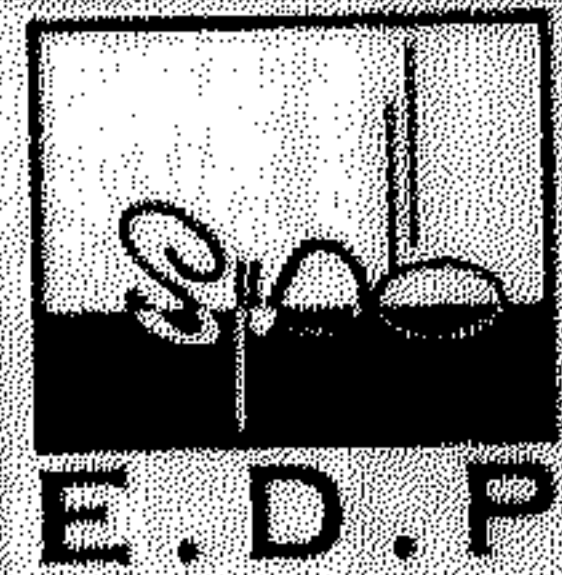
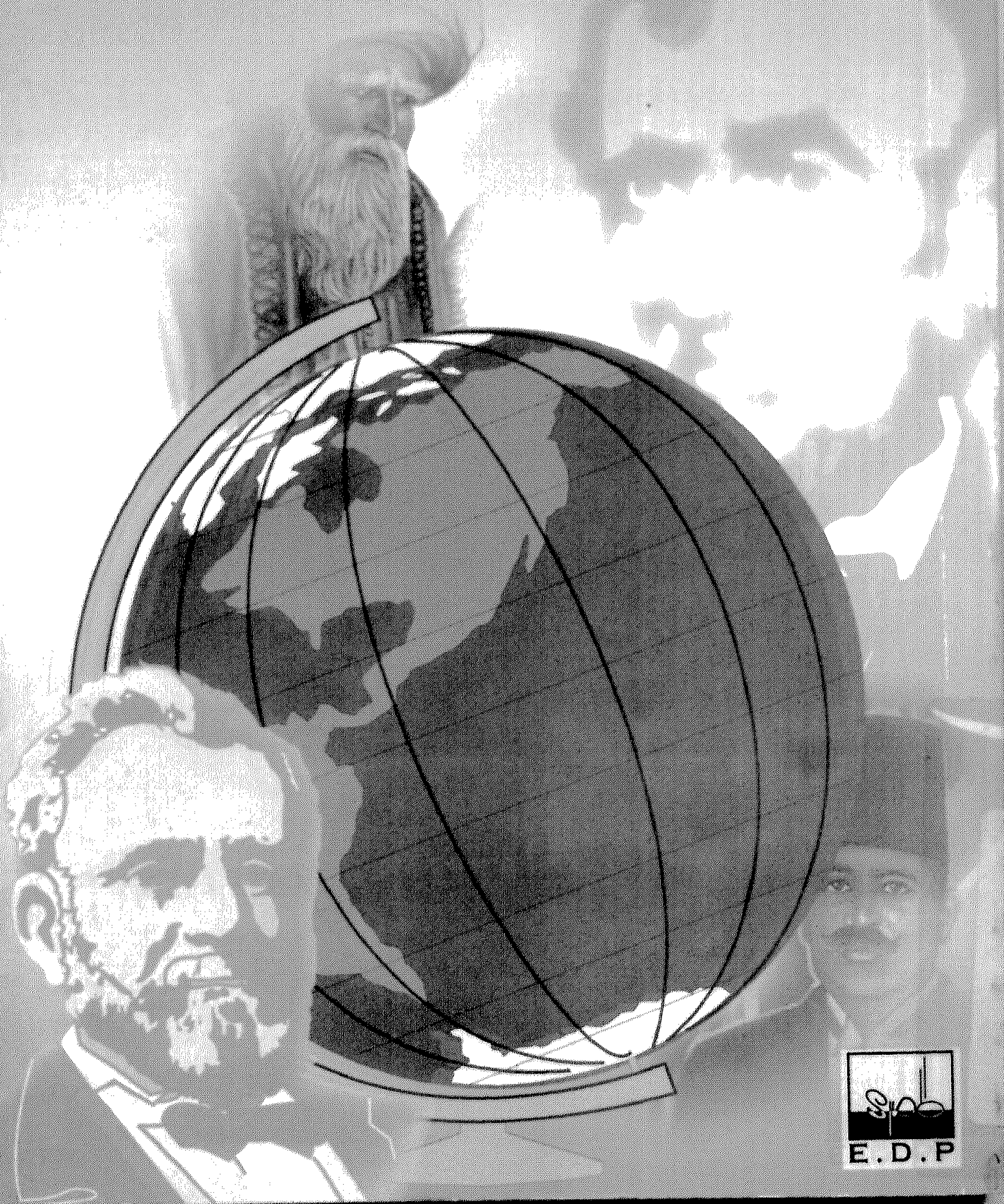


منهج البحث في التاريخ

د. محمود الحويرى



الناشر

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات
5 شارع مصطفى طه ٣، المنيل القاهرة
تليفاكس : ٣٦٥٥٤٨٧

منهج البحث في التاريخ

د. محمود محمد الخويرى

رقم الإيداع ٩٩/٢٣٢١

التراقيم الدولى I.S.B.N-1-29-5841-977

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أى جزء من هذا لكتاب أو تخزينه أو تسجيله بأية
وسيلة أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر.

مقدمة

تدور جهود المؤرخين حول النفاذ إلى الماضي، بهدف استلهاهم أحداثه والتأمل فيها، ومعرفة كل ما طرأ عليها من تغيير. ولاشك أن التنقيب عن تلك الأحداث والوقوف على كنه دوافعها ونتائجها، يكشف لنا عن الدروس التي تفيد في توجيه وفهم مستقبلنا، وكيف ينبغي له أن يجيء، فالمستقبل ملتقى أنظار الجميع ومحط آمالهم.

وقد تغير مفهوم التاريخ كثيراً في أوروبا في القرن التاسع عشر، فلم يعد قاصراً على سرد أحداث ووقائع الأسر الحاكمة والحروب والمعارك التي دارت بين الدول والأمم، بل امتد إلى كافة جوانب الحضارة الاجتماعية والفنية، والتيارات المختلفة التي تؤثر في حياتها. وفي هذا القرن صار التاريخ علم دراسة وتحليل ومقارنة ونقد، له قوانينه وقواعده ومناهجه التي لا يعيها إلا المؤرخ المقتدر الذي يجمع بين الحاسة التاريخية الأمانة والوعي العلمي المتين. وبعبارة أخرى انتقل علم التاريخ من فرع ثانوي من فروع المعرفة الإنسانية إلى أحد أعمدها الأساسية، تخصص له الكراسي والأقسام في الجامعات الأوربية، ويقوم بالعمل في ميدانه مؤرخون كبار، ويدرسه طلاب كثيرون.

وهذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم هدفه إعطاء الطالب المتخصص في التاريخ، والقارئ الذي تستهويه كتب التاريخ ويرغب في معرفة المقاييس التي يستطيع بها أن يحكم على الكتابة التاريخية، فكرة عامة عن علم التاريخ ومناهج بحثه وتفسيره وكتابته ومساره واتجاهاته. ولقد دارت فكرة تأليف هذا الكتاب في ذهني منذ قمت بتدريس مادة منهج البحث التاريخ لطلبتى بقسم التاريخ بجامعة جنوب الوادي وغيرها.

ويتناول هذا الكتاب أصل كلمة التاريخ، ووضعه بين العلوم، وفائدته، والصفات الأساسية التي يجب توفرها فيمن يتصدى لكتابة التاريخ. وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى كتابة التاريخ في العصور القديمة عند قدماء المصريين والبابليين والآشوريين، واليهود، والصينيين، واليابانيين، والهنود، واليونان، والرومان.

وتعرض الكتاب بعد ذلك لكتابة التاريخ في العصور الوسطى الأوروبية، فتناول كتابة التاريخ بعد ظهور المسيحية، وفي العصور الوسطى الأوروبية الباكرة، وتدوين التاريخ في العصور الوسطى الأوربية فيما بين سنتي ٩٥٠ و١٥٠٠م، وتأثير الحروب الصليبية في التدوين التاريخي في العصر الوسيط الأوربي.

وانتقلنا بعد ذلك إلى الكلام على كتابة التاريخ في عصر النهضة، وهو المصطلح الذي يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في الفترة بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر. ثم تناولنا تأثير حركة الاستنارة أو التنوير في القرن الثامن عشر في كتابة التاريخ، وهي الحركة التي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميادين الحياة الإنسانية والتفكير.

كما عالج الكتاب المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام، والتدوين التاريخي عند المسلمين. وألقى الضوء على أقدر مؤرخي العصور الوسطى من المسلمين وأعظمهم العلامة ابن خلدون الذي فاق بمراحل أي مؤرخ مسيحي في العصور الوسطى في تفهمه لمبادئ التقدم الإنساني وال عمران، حتى عرف بأنه واضع أساس علم الاجتماع.

ويتطرق الكتاب بعد ذلك إلى المدارس التاريخية التي ظهرت في مجال تفسير التاريخ، وتناولته من خلال اهتمامات خاصة في النواحي

السياسية والاقتصادية والدينية والقومية، وفي مثل هذه الحالة ترفض تلك المدارس قبول الآراء المتعارضة، وذلك على حساب الحقيقة التاريخية. ومن المعروف أن كل العلوم على الإطلاق تعد علوماً مساعدة للتاريخ، وذلك لطبيعة التاريخ نفسه، كعلم يتناول جميع الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والفكرية. ولذلك تناولنا العلوم المساعدة للتاريخ، والتي لا يستطيع الباحث في التاريخ إغفالها، مهما كان نوع التخصص الذي يكتب فيه.

ومن الموضوعات الهامة التي تناولها الكتاب كتابة التاريخ بين الموضوعية والذاتية، وهو من الموضوعات التي اختلفت فيه الآراء واحتدام الجدل، لأن التاريخ يكتبه باحثون ينتمون إلى مجتمعات معينة، ويلونون كتاباتهم في كثير من الأحيان بنوازعهم الشخصية وانعكاسات التيارات السائدة في مجتمعاتهم. وانتقلنا بعد ذلك إلى موضوع دار الجدل حوله في الوقت الحاضر وظهرت وجهات نظر متعددة متباينة تدعو إلى ذلك، وهو موضوع إعادة كتابة التاريخ. فالبعض يرى ضرورة إعادة كتابة التاريخ من منطلق أن أحداث التاريخ تتجدد رؤيتنا لها، بالإضافة إلى أن ما كتب من التاريخ في موضوع ما قليل وتنقصه الموضوعية.

وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى دراسة «كتابة البحث التاريخي»، فتحدث عن اختيار موضوع البحث الذي يختلف من باحث لآخر تبعاً لاختلاف المستوى العلمي وحصيلة الثقافة، ثم تحدث عن وضع خطة البحث التي تعنى تبويب الرسالة تبويبا أوليا، أي تقسيم البحث إلى أبواب وفصول تسهила للدراسة. وتعرض الكتاب بعد ذلك لجمع المادة التاريخية، ومن الأفضل للباحث أن يبدأ بجمع مادته العلمية من المصادر الأصلية، ثم من المراجع الحديثة بعد ذلك، لأن المادة التاريخية التي تأتي من الأصول، هي التي تبرز عناصر البحث، وتوجهه إلى ما هو أقرب إلى الكمال،

وعندما ينتهي الباحث من جمع المادة العلمية المتعلقة بموضوع بحثه، يدخل في عملية أساسية قبل الشروع في كتابة البحث في شكله النهائي، وهي عملية تحليل هذه المادة وفرزها والتثبت من صحتها، وهذه العملية إحدى عمليات المنهج الأساسية، وتعرف بنقد الأصول.

وكل تلك الموضوعات وغيرها تأتي في صفحات الكتاب، ولا أدعى أنني جئت فيه بجديد، وكل ما أستطيع أن أقوله، أن لي فيه ثواب المجتهد وعذر المخطيء.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه...

تكنات المعادى في سبتمبر ١٩٩٨ م

جمادى أولى ١٤١٩ هـ

المؤلف

الفصل الأول

علم التاريخ

أصل كلمة التاريخ

هل التاريخ علم؟

فائدة التاريخ

الصفات الواجب توفرها في المؤرخ

التاريخ هو دراسة الحوادث، أو هو الحوادث نفسها، والحوادث جمع حادث، والحادث هو كل ما يطرأ من تغيير على حياة البشر، وكل ما يطرأ من تغير على الأرض متصلاً بحياة البشر. وإذا كان التاريخ في حقيقته هو الحوادث، وكانت الحوادث هي التغيرات، والتغيرات وليدة الزمان إنتهينا إلى أن التاريخ هو الزمان^(١).

والتاريخ هو وعاء الخبرة البشرية، هو العلم الخاص بالجهود البشرية، أو هو المحاولة التي تستهدف الإجابة على الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي، وتستشف منه جهود المستقبل^(٢). وقد يحدث الظن أن التاريخ هو الماضي أو الأحداث التي طواها الزمن في غيابه، ولم تعد تهمنا في قليل أو كثير. وليس هذا بصحيح، فالتاريخ يشمل الماضي والحاضر والمستقبل معاً، ولا يمكن الفصل بينهم، بل هو بالضبط وحدة لا تتجزأ، كالنهر الدفاق المياه، المتلاحق الأمواج، لاتجد في تياره فجوة، ولا ترى بين أمواجه ثغره.

ويرى المؤرخ راوس^(٣) أن التاريخ يبحث في المجتمع الإنساني وفي حكايته وكيف أصبح الإنسان كما هو الآن. ويقول السير تشارلز فيرث عن التاريخ: «التاريخ شيء لايسهل تعريفه، ولكن يبدو لي أنه سجل لحياة المجتمعات الإنسانية والتغيرات التي اجتازتها تلك المجتمعات وللأفكار التي تحكمت في توجيه نشاط تلك المجتمعات وللظروف المادية التي ساعدت أو عاقت تطورها».

ويعتبر ابن خلدون (٣٣٢-١٤٠٦) أول من أشار صراحة إلى فكرة

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون (القاهرة ١٩٨٤)، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) ويدجري (ألبان. ج): التاريخ وكيف يفسرونه، من كنفوشيبوس إلى توينبى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٩٦)، ج ١ مقدمة المترجم.

(٣) التاريخ أثره وفائدته (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٥.

التاريخ في مقدمته بقوله: «وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو أصيل في الحكمة عريق»، والحكمة في المفهوم العربي هي أعلى مراتب العلم.

وفي رأى كثير من المؤرخين - مثل المؤرخ السخاوى^(١) - أن التاريخ بالأولى هو كيان الأمم، فلا توجد أمة أو دولة إلا ولها تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، ينقلها خلفها من سلفها، وحاضرها عن غابرها، ولولا ذلك لانقطع الوصل، إذ النظرة السليمة تستشرف إلى معرفة البدائيات، وتشربت إلى إدراك المنشئات.

وهناك من عرّف التاريخ بأنه فرع عظيم من فروع المعرفة، وكتابه فن قديم العهد، وكل فرد يعرف ما هو التاريخ، فكلمة التاريخ مألوفة لديه، ويعرف تماما ما تعنيه، والتاريخ يتعامل مع أفكار، وأعمال الرجال والنساء الذين عاشوا في الأزمنة الماضية، وكلنا يعرف أن التاريخ يرقد خلفنا مثل بلد متعرج وغير مستو، ومن الصعب الاستدارة والعودة لهذا البلد^(٢).

أصل كلمة التاريخ:

وقد اختلفت الآراء في تفسير كلمة تاريخ وأصلها. ففي اللغة العربية يقول المؤرخ السخاوى في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»،^(٣): «التاريخ في اللغة الإعلام بالوقت، يقال أرخت الكتاب وورخته أى بينت كتابته، قال الجوهري التاريخ تعريف الوقت، والتورخ مثله يقال أرخت وورخت، وقيل اشتقاقه من الأرخ يعنى بفتح الهمزة وكسرها، وهو الأنثى من بقر الوحش، لأنه شىء حدث كما يحدث المولد. وقد فرق الأصمعى

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ٣٤٩ هـ)، ص ٢٥.

(٢) Shyder (Phil L.), Detachment and the Writing of History. Essays and Letters of Carl L. Becker (New York, 1958), P. 41.

(٣) ص ٧.

بين اللغتين، فقال: بنو تميم يقولون ورخت الكتابة تورخا، وقيس تقول أرخته تأرخا، وهذا يؤكد كونه عربيا، وقيل إنه ليس بعربي محض بل هو معرب مأخوذ من «ماه روز» بالفارسية، ماه القمر وروز اليوم (ومعناها حساب الشهور والأيام)، قال أبو منصور الجواليقي في كتابه المعرب من الكلام الأعجمي: «يقال إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإنما أخذه المسلمون من أهل الكتاب، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة، كتب في خلافة عمر رضی الله عنه فصار تاريخا إلى اليوم». والواقع أن الذين رجحوا هذا التأويل قد اعتمدوا على رواية في نشأة التقويم الإسلامي تقول إن سبب وضع التاريخ الهجري أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر رضی الله تعالى عنه يقول: إنا قد قرأنا صكا من الكتب التي تأتينا من قبل أمير المؤمنين رضی الله تعالى عنه، وكان محله شعبان فما ندري أي الشعبانين هو: الماضي أو الآتي؟ فجمع أعيان الصحابة واستشارهم فيما تضبط به الأوقات، وكان فيهم ملك أهواز اسمه الهرمزان وقد أسلم على يده حين أسر، فقال له: إن لنا حسابا نسميه «ماه روز» أي حساب الشهور والأعوام، وشرح كيفية استعماله، فأمر عمر بوضع التاريخ، فاستقر رأيهم على تعيين يوم من أيامه عليه الصلاة والسلام لذلك، فجعل مبدأ الهجرة من مكة إلى المدينة إذ بها ظهرت دولة الإسلام. وإذا صحت هذه الرواية في تحليل نشأة التقويم الهجري عند المسلمين، فلا يقتضى ذلك بالضرورة علاقة لغوية متكلفة وغير واضحة بين «ماه روز» الفارسية و«مورخ» العربية^(١). وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتابه الخراج، تاريخ كل شيء آخره ووقته الذي ينتهي إليه في شرف قومه كما قال المطرزي وذلك بالنظر لإضافة الأمور الجليلة من كرم أو فخر أو نحوها إليه، وإما لكونه ذاكراً للأخبار ومشاكلها.

(١) عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٧٦) ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

ويبدو ان أصول كلمة التاريخ مستمدة من الكلمة السامية التي تعنى القمر أو الشهر، وهى فى الأكادية (أرخو) وفى العبرية (يرخ)، وهذه الكلمة لم تستعمل فى العربية. فأما استعارة العربية لهذه الكلمة من الأكاديمية فبعيد الاحتمال، كما وأنه ليس من المحتمل الافتراض أنها استعيرت مباشرة من العبرية أو الآرامية، وخاصة لوجود حرف (ى) فى الصورة العبرية والآرامية لهذه الكلمة. لذا لم يبق بعد هذا إلا العربية الجنوبية والأثيوبية، أو الافتراض بأن هذه الكلمة كانت مستعملة فى إحدى اللهجات العربية الشمالية التى لانعرفها الآن. إن كلمة تاريخ هى ليست الشكل البسيط للجزر، بل هى صيغة الاسم التى توجد فى اللغة العربية والعربية الجنوبية، وهذا غير موجود فى الأثيوبية، مما يجعل احتمال اشتقاقها من الأثيوبية، بعيدا، ثم إنه يبدو أن العرب أخذوها كتعبير فنى، وهذا بدوره يبعد أصلها الأثيوبى إذ لو كان أصلها أثيوبيا لكانت باقية فى لغتهم، يضاف إلى ذلك أن احتمال كون أصلها من العربية الشمالية بعيد^(١). وأغلب الاحتمال أن أصل كلمة تاريخ من العربية الجنوبية، فمما لاشك فيه أن عرب الجنوب اهتموا بأمر التوقيت لعوامل عديدة، منها الزراعة التى تخضع لتقلبات الجو وتبدل المواسم، ومنها الأعياد والشعائر الدينية التى لها ارتباط وثيق بضبط الأوقات، ومنها التجارة فى البر والبحر، وقد ورد لفظ «ورخ» فى نقوش العربية الجنوبية، وجمعها أورخم بمعنى الشهر القمري^(٢).

ويقول المؤرخ رونثال^(٣) إن الأصل التاريخى لكلمة إيستوريا Istorica

(١) فرانز رونثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، صالح أحمد العلى، مراجعة محمد توفيق حسين (بغداد ١٩٦٣)، ص ٢٠ - ٢١ ..

(٢) عفت الشرقاوى: المرجع السابق، ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١، السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب (الإسكندرية ١٩٨٧)، ص ٢٣.

(٣) علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٦ - ١٧.

الإغريقية (وهي ما تقابل كلمة تاريخ في اللغة العربية) ذو أهمية أكبر، فعندما نشطت الحركة الفكرية والسياسية نشاطا عظيما في الدويلات الأيونية في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، كان تعبير *Istoria* يقصد منه البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، أى لنوع من المعرفة كلن بهم كل مواطن دولة المدينة الواحدة، ألا وهي معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، وسرعان ما أصبحت كلمة *Is-toria* مقتصرة على معرفة الأحداث التي رافقت هذه الظواهر، وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع، وقد أخذ الرومان تلك الكلمة بمعناها ومبناها، وظلت كلمة *Istoria* تعبيراً فنياً لم تتبدل حروفه بانتقاله إلى اللغات الأوربية كما كان يحدث لو كانت هذه الكلمة دارجة الاستعمال عند العامة. ومن كلمة *Histotia* اشتقت الكلمات الأوربية الحديثة مثل كلمة *History* الإنجليزية و *Histotia* وكلمة *Histoire* الفرنسية.

وقد أصبح الشائع حالياً التفريق بين كلمة التاريخ *History* كتعبير دال على مسيرة الإنسانية الحضارية على سطح الأرض منذ القدم، وعبارة تدوين التاريخ أو كتابة التاريخ *Historiagraphy* كتعبير عن العملية الفكرية الإنشائية التي تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير مسيرة الإنسان على كوكبه. فالتاريخ أشبه ما يكون بنهر هائل متدفق تحوى مياهه كل تفاصيل نشاط وأفكار وتطلعات وأحاسيس ونجاح وإحباطات الإنسان منذ الخليفة. أما تدوين التاريخ، أى العملية الفكرية الإنشائية فليست سوى مشهد يلتقطه المؤرخ من الماضي القريب أو الماضي البعيد، ويحاول من خلال مصادره المتاحة، ومنهج علم التاريخ، وخياله العلمى كمؤرخ، أن يعيد تركيبه (١).

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ (القاهرة ١٩٨٥)، ص ٢٧ - ٢٨.

هل التاريخ علم:

حدث اختلاف حول التاريخ هل هو علم؟ أم أنه فن وأدب؟ فذكر وليم ستانلى جيفونز (١٨٣٥ - ١٨٨٢) الأستاذ بجامعة لندن أن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة، وبذلك لا يمكن فى دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً. فقيام عنصر المصادفة، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية، على غرار ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم.

وقد أيد هذا الرأى كارل بوبر^(١) Karl Popper فى كتابه «عقم المذهب التاريخى»، وأوجز أدلته على كذب المذهب التاريخى، وحصرها فى القضايا الخمس التالية:

- ١ - يتأثر التاريخ الإنسانى فى سيره تأثراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانىة.
- ٢ - لا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية، أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا.
- ٣ - وإذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنسانى.
- ٤ - وهذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام تاريخ نظرى، أى إمكان قيام علم تاريخى إجتماعى يقابل علم الطبيعة النظرى. ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية فى التطور التاريخى تصلح أن تكون أساساً للتنبؤ التاريخى.
- ٥ - وإذن فقد أخطأ المذهب التاريخى فى تصوره لل غاية الأساسىة التى يتوسل إليها بمناهجه. وبيان ذلك يتداعى المذهب التاريخى.

(١) عقم المذهب التاريخى، ترجمة عبدالحميد صبره (الإسكندرية ١٩٥٩)، ص ٦٠٥.

ويرى البعض أنه من الصعب جداً أن يعد التاريخ علماً، خصوصاً إذا لاحظنا أن التاريخ لا يخلف لنانفسه، وإنما يخلف لنا تعبيرات وأوصافاً للأحوال التي جرت فيه، والأوصاف كلها تتوقف على أمور نفسه أو ذاتية هي الأحوال الذاتية الخاصة بمؤلف الوثيقة ما عدا أحوالاً قليلة هي أحوال الأشياء الدالة على آثار مثل الآثار الكثيرة أو اللوحات في دلالتها على ما أنتجه الفنان^(١). ومن هنا كان علم التاريخ شاء أو لم يشأ أن يكون ذاتياً وأن يتوقف على قدرة ذاتية خالصة للقائم بالبحث التاريخي، خصوصاً إذا لاحظنا من ناحية أخرى، أن الوثائق لاتعطينا صورة سينمائية عن الحادث، وإنما هي صور متناثرة بينها وبين بعض الكثير من الهوات وأنواع النقص والاختلاط وعدم الارتباط، الأمر الذي يمثل عبئاً هائلاً على المؤرخ ليقوم به من حيث إكمال كل نقص وسد كل ثغرة بين الوسائل المختلفة. ومن هنا كان التاريخ إلى حد كبير يقوم على الفن وعلى موهبة خاصة عند المؤرخ الذي يستطيع أن يحيى الماضي بكل ما كان عليه وأن يستعيد كل تجاربه في الماضي ابتداء من الوثائق، وابتداء من الوثائق وحدها، وكأنه أحيائها من جديد وتراءت له عياناً. ذلك أن غاية المؤرخ هي أن يستعيد الوقائع التاريخية في ذهنه كما كانت عليه بالفعل في الماضي، وكأنه عاينها بنفسه وجهاً لوجه، فبهذا وحده يمكنه أن يؤرخ تاريخاً حقيقياً، وكل هذا إنما يعتمد على قدرة ذاتية، ولاتجدي الوثائق وحدها نفعاً مهما كان تعددها، ولهذا سيظل البحث التاريخي بالضرورة ذاتياً^(٢).

ويتفق مع هذا الرأي المؤرخ وولش الذي يرى أن المؤرخين لا يجمعون على تفسير واحد لأي عصر، فهناك تفسيرات مختلفة. كما سئرى فيما بعد. للماركسين والأحرار والبروتستانت والعقليين والملكيين

(١) عبدالرحمن بدوي: متاحج البحث العلمي (بيروت ١٩٧٧)، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) نفس المرجع، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

والجمهوريين وغيرهم، ويتمسك أنصار هذه النظريات بها، حتى إن كل واحد منهم يعتبر أن نظريته إن لم تكن هي الكلمة الأخيرة الخاصة بالعصر الذي يدرسه، فهي على الأقل صحيحة في أفكارها الرئيسية. وهذا الاعتقاد يجعلهم يرفضون جميع الآراء المنافسة باعتبارها خاطئة خطأ مطلقاً، الأمر الذي يجعل من المستحيل على الأقل تحقق ادعاء اتخاذ الموقف العلمي الذي يدعيه المؤرخون المحدثون^(١). ويمكن القول إن المؤرخين لا يتأثرون بعوامل ذاتية فحسب، بل إنه من الواجب أن يتأثروا. فالتاريخ غير المتحيز ليس مثلاً أعلى فحسب، بل هو مستحيل استحالة مطلقة أو يكاد، فكل مؤرخ ينظر إلى الماضي من وجهة نظر معينة، فهو لا يستطيع أن يتجنبها، وتجنبها يشبه مطالبته بتغير طبيعته. ويمكن القول أيضاً إن التحليل الدقيق لاختلاف المؤرخين يبين أن هذه الاختلافات تدور حول نقاط ليست موضع اتفاق، بل هي تعتمد على مصالح ورغبات الأطراف المتشاحنة، سواء كانت هذه الاختلافات لأسباب شخصية أو جماعية. فالخلافات التاريخية وفقاً لهذا الأسلوب في التفكير لا تعنى في صميمها بما هو صحيح أو باطل، بل بما هو مرغوب وما هو غير مرغوب فيه. ولذا فلم تعد الأحكام التاريخية الرئيسية معرفية بمعنى الكلمة، بل أصبحت عاطفية. وقد تذهب هذه الفكرة بعيداً وتزيل الفارق بين التاريخ والدعاية، ويترتب على ذلك إضعاف الإدعاء القائل إن التاريخ دراسة علمية صحيحة أو يستطيع أن يصبح ذلك^(٢).

وفي سنة ١٨٧٤م وقف ج. زير في (١٨٢١ - ١٨٩٢) يحاضر في الجمعية التاريخية الملكية، بلندن، فتحدث عن إخضاع جميع الظواهر التاريخية بوساطة منهج علمي دقيق لقوانين العلية (السببية)، وصرح بأن

(١) وولش: مدخل لفلسفة التاريخ (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢١ - ٢٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٤.

الدراسة العلمية للتاريخ مستحيلة، لو فرضنا وجود عامل الصدفة والقدر المحتوم وحرية الاختيار. ثم عاد في بحث كتبه بعد ذلك حول «علم التاريخ»، فكتب قائلاً: «إن أهم ما يجب على المؤرخ أدائه أن يظهر بصورة مقنعة أن الحقائق لم يكن في الإمكان حدوثها بطريقة خلاف التي حدثت بها، وأنه لو أن الأسباب نفسها عملت عملها، لأدت دون شك إلى إحداث نفس النتائج للمرة الثانية» (١).

غير أن هرنشو (٢) Hearnshaw في كتابه «علم التاريخ» يشير إلى أن التاريخ ليس علم تجريبية اختبار كالكيمياء، ولكنه علم نقد وتحقيق، وأقرب العلوم الطبيعية شبيهاً به هو علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته، لكي يستخلص مايمكنه استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء. ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار المؤرخ إلى أن يدرس ويفسر العامل البشري والفكرى والعاطفي حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية. وكما أن الجيولوجي يجد مادته الأساسية فيما سلم في بقايا الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة، فكذلك المؤرخ في الموجود من مخلفات الماضي وسجلاته التي قد تعين على جلاء الحاضر وتوضيحه، وهو هدف البحث التاريخي.

وعلى أية حال، استقر الرأي على أن التاريخ علم بالمنهج، أي أن موضوعه الأساسي وهو الإنسان لايسمح بأن تكون له قوانين لها دقة قوانين العلوم، ولكننا ندرسه بمنهج البحث العلمي من دراسة للمادة وتحليلها تحليلًا دقيقًا، ثم استخلاص الحقائق. وكان هذا هو الرأي الذي جال بخاطر بيوري (٣) بكل وضوح عندما وصف التاريخ في العبارة

(١) ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢ ص ١٥٣.

(٢) علم التاريخ (القاهرة ١٩٤٤)، ص ٩٨.

(٣) كان جون باجنل بيوري (١٨٦١-١٩٢٧) John bagnell Bury فيلولوجيا كلاسيكيا قبل أن يصبح مؤرخًا. وتتميز أعماله التي تتناول فترة الإمبراطورية الرومانية المتأخرة =

الأخيرة من محاضراته الافتتاحية في يناير سنة ١٩٠٣ قائلا: «وإذا كان علم التاريخ يصبح عاما بعد عام وأكثر فأكثر قوة عظيمة تعمل على تزع غشاوات الخطأ، وتعين على تكوين الرأي العام، وعلى السير إلى الأمام بقضية الحرية الفكرية والسياسية، فإن ذلك العلم سيعمل جاهداً على تكوين طلابه على نحو يمكنهم من القيام بذلك الواجب لا للانتفاع به في سد مطالب الأسبوع التالي أو العام القادم أو حتى القرن الذي سيجيء، ولكن لكي يذكر دائماً أن التاريخ، وإن كان يقدم مادة للتاريخ الأدبي أو للتأمل الفلسفي، إلا أنه علم، لا أكثر ولا أقل. History is a science, no more, no less.» وقد لقيت تلك العبارة قبولاً واسعاً.

وقد سار في هذا الاتجاه المؤرخ البريطاني جورج ماكولي تريفلان (1876 - 1962) Trevelian ، الذي أصدر مقالة رائعة عن طبيعة علم التاريخ وحدوده، خلاصتها أن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً دقيقاً كما هو الحال في العلوم الطبيعية، ولكنه علم في حدود معينة هي الدقة في جمع المادة، والدقة كذلك في الموازنة بين الأدلة، والمؤرخ الذي يستطيع أن يفعل ذلك يستلقت اهتمام العقول بكلامه، ويثير إحدى العواطف الإنسانية، ويفتح الباب أمام قوى التخيل والتصوير^(١).

والإمبراطورية البيزنطية بالمقدرة العالية في التاريخ والقبولوجيا. وفي سن الثامنة والعشرين أخرج كتابه «تاريخ الإمبراطورية المتأخرة من أرخادوس حتى إيرين ٣١٥ إلى ٨٠٠ م (مجلدان ١٨٨٩)، ويعتبر هذا الكتاب إسهاماً ملحوظاً في الأدب. وقد عمل بيوري محرراً في مجموعة كامبردج للتاريخ القديم. وفي سنة ١٩٠٢ خلف لورد آكتون في منصب أستاذ كرسي التاريخ الحديث بجامعة كامبردج، حيث ألقى محاضرة افتتاحية عن «علم التاريخ». أنظر:

Stem (First), The Varieties of History. (New York). 1964). P. 209:

حسين مؤنس: «التاريخ والمؤرخون»، ص ١٦٣، مجلة عالم الفكر أبريل مايو يونيو، الكويت ١٩٧٤، ص ٩٢ - ٩٣، كار (إدوارد): ما هو التاريخ، ترجمة د. أحمد حمدي، راجعه على أدهم، ص ٧٥ - ٧٦، ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه، ج ٢، ص ١٥٤.

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ١٥٥ - ١٥٦

وفي اعتقاد المؤرخ كولنجوود^(١) أن كل مؤرخ يتفق معه أن التاريخ نوع من أنواع البحث العلمي، ويندرج من حيث «الأصل» تحت مانسميه العلوم، والتاريخ هو العلم الخاص بالجهود الإنسانية، أو هو محاولة تستهدف الإجابة عن الأسئلة، التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي.

ومن المؤكد أن التاريخ علمي في منهجه، فإذا قلنا أن اثنين واثنين تساوي أربعة أو أن الهيدروجين والأكسجين إذا خلطا معاً بنسب خاصة تحت ظروف خاصة فإنهما يكونان الماء، فليس هناك من شك أنه في يوم ١٢ أكتوبر عام ١٩٤٢، نزل جماعة من التجارة بقيادة كريستوفر كولومبس على جزيرة واتلنج. وحقيقة هذه الحادثة تثبتتها سلسلة من الوثائق اختبرت صحتها وقابليتها للتصديق بعناية كبيرة، وستظل على ذلك إلى أن يحين ظهور وثائق أكثر صحة وقابلية للتصديق منها^(٢).

وقد أصر المؤرخ الفرنسي فوستل دي كولانج (١٨٣٠ - ١٨٨٩) الذي يعتبر مؤسس المنهج العلمي في دراسة التاريخ، على أن «الوطنية فضيلة والتاريخ علم، والإثنان ينبغي ألا نخلط بينهما». كما قال في محاضرة ألقاها في سنة ١٨٦٢: «أيها السادة، أريد أن يكون واضحاً مفهوماً أن التاريخ شيء أكثر من التسلية، وليس المقصود منه أن يشبع فضولنا أو يشغل ذاكرتنا، فالتاريخ علم وينبغي أن يكون كذلك، وهدفه أعظم سمواً.^(٣)

فائدة التاريخ:

تدور جهود المؤرخين حول النفاذ إلى الماضي، بهدف استلهاهم أحداثه والتأمل فيها، ومعرفة كل ما طرأ عليهما من تغيير. ولاشك أن التنقيب عن تلك الأحداث والوقوف على كنه دوافعها ونتائجها، يكشف

(١) فكرة التاريخ (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) لويس جوتشلاك: كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة د. عائدة سليمان عارف، د. أحمد مصطفى أبو حاكمة (بيروت ١٩٦٦)، ص ٢٠.

(٣) Stern, The Varieties of History... PP. 178-179.

لنا عن الدروس التي تفيد في توجيه حاضرننا وفهم مستقبلنا، وكيف ينبغي له أن يجيء فالمستقبل ملئنا أنظار الجميع ومحط آمالهم.

والتاريخ في حقيقته يحاول الإجابة على سؤالين هامين هما: كيف كانت حياة الإنسان في العصور الماضية؟ وكيف وصل الحاضر إلى ما هو عليه الآن؟ فإذا كنا نهتم بالماضي من أجل معرفته، فينبغي ألا ننسى القيمة العظيمة التي يفرزها لنا الماضي، وهي الوقوف على أوضاع المجتمعات السابقة لنا، والعادات والتقاليد والأفكار التي اندثرت وتركت القليل - أو لا شيء - خلفها. فأنت لا تستطيع أن تفهم وطنك ما لم تعرف شيئاً من تاريخه، كذلك لا يمكنك أن تفهم أفكارك الخاصة وميولك وأهواءك وردود الفعل العاطفية الكامنة في داخلك، ما لم تعرف تراثك وكيف أنه جاء إليك. فعلى سبيل المثال لماذا يتصرف الإنجليزي بطريقة معينة، والفرنسي بطريقة مختلفة عنها؟ الواقع أن دراسة التاريخ وحدها هي التي تخبرنا، إذ لا فرق بين الماضي والحاضر، فكل جزء من حاضرننا يبتلعه الماضي أولاً بأول^(١).

ويذكر كولنجوود إن فلسفة التاريخ لا تعنى بالماضي في ذاته، ومعرفة هذا الماضي ليست - ولا يمكن أن تكون - هدف المؤرخ، وإنما هدفه - وهو هدف كل مخلوق يفكر - هو معرفة الحاضر، إلى هذه الغاية ينبغي أن ينتهي كل تفكير، وحول هذه الغاية ينبغي أن يدور كل شيء. إن الماضي الذي يدرسه المؤرخ ليس ماضياً ميتاً، بل هو ماضٍ بمعنى ما زال يحيا في الحاضر، ولكن أي فعل ماضٍ لا يعنى شيئاً للمؤرخ حتى يتسنى له فهم الفكر الكامن وراءه. ومن ثم «فإن كل التاريخ تاريخ فكر»^(٢) ويذهب

(١) Trevelyan (G.M.), Hist, and the Reader (London, 1945), PP. 16-20.

(٢) كار: ما هو التاريخ؟ ص ٢٨-٢٩؛ حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ١٦٨ - ١٦٩.

المؤرخ الإيطالي بنديتو كروتشه^(١) (١٨٨٦ - ١٩٥٢) Benedetto Croce إلى اعتبار التاريخ كله معاصراً، ولا يستطيع أن يفهم حاضره دون أن يفهم الماضي، والتأمل في الماضي يبعد الإنسان عن ذاته، ومعرفة الإنسان بنفسه لا تقف عند حد معرفته الشخصية التي تفرق بينه وبين إنسان آخر، بل أقدر على حسن التصرف في الحاضر والمستقبل^(٢). وعلى هذا يخبرنا باحث في التاريخ أنه «لا يوجد في الحقيقة شيء مفاجيء في التطورات العظمى للتاريخ، ولا شيء يمكن توضيحه في الأمور الإنسانية دون الرجوع إلى الماضي، ومن هنا تظهر قيمة التاريخ وجدواه، إذ هو يتضمن الأسباب التي أوجدت الرجال والشعوب والإمبراطوريات في الوقت الحاضر، ويمدنا بالوسائل الوحيدة التي تمكننا من فهم الحاضر، والأرض الصلبة التي نستطيع بها وضع الأساس لخطط مستقبلنا»؛ وتشير إحدى النصوص القديمة إلى أنه «لو عرفنا شيئاً من ماضى أى جماعة من الرجال، فلن يتوفر لدينا بعض الوضوح عن معنى سلوكهم الحاضر فحسب، بل أيضاً قدرأ من الارشاد لما نتوقه منهم»^(٣).

وكان المؤرخ اليونانى بوليبيوس (١٤٨ - ١١٧ ق.م) يعتبر التاريخ أفضل وسيلة لتعليم الفلسفة عن طريق العبر والأمثلة التي يقدمها. وخلاصة رأيه في هذا المجال أن الإنسان يتعلم من أخطاء غيره الشيء

(١) بنديتو كروتشه: فيلسوف ومؤرخ إيطالى، ظل طوال النصف الأول من القرن العشرين، يعتبر أبرز المفكرين الإيطاليين وأعظمهم، كما اعتبر المؤسس لتيار فكرى هام كان الوجه البارز في الفكر الأوربي والغربي عموماً المناقض لكل من الماركسية والوجودية، خصوصاً في مجالات فلسفة التاريخ وفلسفة الجمال. وكان تأثيره قويا على أصحاب الاشتراكية العلمية الذين رفضوا تفسير ماركس الاقتصادى لحركة التاريخ، وأكدوا أهمية العوامل الفكرية والثقافية أو الأخلاقية في النهاية.

(٢) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٤٣ - ٤٤؛ حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ١٣.

(٣) Smellie (K.B.), Why we read History. Ed. By H.M. Burton (London, (٣) 1947), p. 60.

الكثير، والتعلم من أخطاء الغير أفضل وأقل خطراً من تعلم الإنسان من أخطائه الشخصية لأنه يرى نتائج أخطاءه غيره فيتجنب سلوك نفس المسلك، أما أخطاؤه هو فقد تكون مميتة ولا تتيح له فرصة الاستفادة منها. وهكذا يصل إلى القول بأن «أحسن ثقافة من أجل الحياة الحقيقية هي معرفة الأشياء والعبر التي قدمها لنا التاريخ الفعلى التي تتيح للإنسان دون أن تعرضه للأخطار معرفة الطريق الأفضل والسلوك الأحسن في كل الظروف والمناسبات». وقد انطلق بوليبيوس من هذا المفهوم في تدوين التاريخ، فاعتمد على صدق الحقائق التاريخية أكثر من شيء آخر من أجل إعطاء القارئ الدرس الحقيقي الذي يفيد منه في سلوكه سواء كان حاكماً أم محكوماً، كبيراً أم صغيراً. وكان بوليبيوس يعتقد أن زخرفة الكلام وتنميقه والاعتناء بالحشو والأساطير لا يخدم الهدف الذي من أجله يجب أن نقرأ التاريخ، وإنما يخدم هذا الهدف الحقائق البسيطة التي لا يشوهها تزويق أو بهرجة أو تحوير. إن ما يهمه هو الحقائق المجردة التي يقبلها عقل الإنسان السوى ويفيد منه. ولما كان التاريخ «ذريعة» للوصول إلى هدف هو «العبرة»، فإن هذه «الذريعة» يجب أن تكون سليمة من كل غش حتى يمكن الوصول إلى الهدف مأموناً سليم النتائج^(١).

ويقدم المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (٥٠٠ - ٥٦٥ م) Procopius الدليل القوي، في مقدمة كتابه عن الإنجازات المعمارية الضخمة، على أهمية كتابة التاريخ لما يحفظه من عبرة تتعلق بالفضيلة والرذيلة. وقال أنه من الواجب على الأجيال القادمة أن تقتدى بالأعمال الفاضلة، وتتجنب الأعمال الشريرة، ثم قال متعجباً: «ما أكثر الفوائد التي من الممكن أن تحققها الدول من دراسة التاريخ! وما أعظمها! إن التاريخ ينقل إلى الأجيال التالية ذكرى الذين رحلوا، ويقف بثبات ضد عوامل النسيان.

(١) نورالدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ (دمشق ١٩٦٥) ص ١٢١-١٢٢.

ويحض الذين يطلعون عليه من حين إلى آخر على الفضيلة، بفضل الثناء الذي يطرحه عليها، ويهاجم التاريخ الرذيلة باستمرار بالعمل على تجنب الوقوع تحت سيطرتها. وهكذا يجب أن يكون ذلك هو اهتمامنا الكلي، فكل أعمال الماضي ستوضح بجلاء، مع ذكر فاعلها، أيا كانت شخصيته،^(١).

وقد كتب في علم التاريخ وفوائده كثيرون من المسلمين، حتى قل أن تجد مصنفًا في التاريخ خلا من الإشارة إلى هذا العلم وبيان منفعتة. وهذا ابن الأثير يعبر عن ذلك بكل وضوح في تاريخ الكامل الذي وضعه لبدر الدين لؤلؤ بن عبدالله الأتابكي، الملقب بالملك الرحيم، صاحب الموصل المتوفى سنة ٦٥٧ هـ (٢٣٥٩ م) فهو يبين مانصه «فمن فوائد التاريخ: أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي، إذا وقفوا على ما فيه من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوا مدونة في الكتب يتناقلها الناس، فيرونها خلف من سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر، وقبيح الأحداث، وخراب البلاد وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال، استقبحوها وأعرضوا عنها وأطرحوها. وإذا رأوا سيرة الولاة العدالين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت وأمالها درت، استحسنا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه. هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك واستعانوا نفائس المدن وعظيم الممالك، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخراً. ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلاً، ويصبح لأن يقتدى به أهلاً،^(٢).

(١) جوزيف داموس: سبعة مؤرخين في العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٩)، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٥). ج ١ ص ٧.

ولم يخرج عن ذلك ما قاله ابن خلدون^(١) (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) في قيمة التاريخ وجدواه: «إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا...». وخلاصة ما قاله ابن خلدون هي أن التاريخ ينفع في العظة والعبرة، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لتعلم، وندرس سير الأنبياء لتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم ونرى ما وقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا عن المزلات ومواطن الضرر، ولهذا نجد ابن خلدون يسمي تاريخه الكبير «كتاب العبر»^(٢).

وفي كلام السخاوي^(٣) عن فائدة التاريخ نجده يقول: «والتاريخ يتناول أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسنتهم، فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم والحكماء وكلامهم والزهد والنساء ومواعظهم، عظيم الغناء، ظاهر المنفعة، فيه ما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسيرته في اعتقاداته وسيرته في أمور الدنيا وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوي. وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب مبادئ الدول وإقبالها ثم انقراضها وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشبابها أبداً في العالم، غزير النفع، كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها، وياشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله، ويصير مجرباً غير غرٍ ولا غمز...».

وقد كتب المقرئزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢ م) في مقدمة كتابه

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي (القاهرة ١٩٦٥)، ص ٣٦٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ج ١ (بيروت ١٩٨٨)، ص ١٣.

(٣) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ١٤.

(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٣٣.

«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»^(١) ما يعبر عن رؤيته لوظيفة التاريخ، إذ يقول: «وبعد، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً، لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، والإطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مدام الفعال ليرغب عنها أولو النهي...». كما يقول أيضاً: «وأما متفعة هذا الكتاب، فإن الأمر فيها يتبين من الغرض في وضعه ومن عنوانه، أعنى أن منفعته هي أن يشرف المرء في زمن قصير على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغييرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة، فتتهذب بتدبير ذلك نفسه وترتاض أخلاقه، فيحب الخير ويفعله، ويكره الشر ويتجنبه، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها، والإقبال على ما يبقى، وهو ما يعنى أنه يرى في التاريخ علماً ذا وظيفة أخلاقية، وهدف عملي تعليمي».

ويرى الفيلسوف والمؤرخ كوندرسيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) Condorcet الذي عاش السنوات الأولى من الثورة الفرنسية وشارك في أحداثها، أن التقدم «ضرورة»، أما التدهور أو النكوص فهو «عرض»، والتقدم يعبر عن قانون التاريخ نفسه، على حين أن التدهور يعبر عن الإلغاء المؤقت لهذا القانون. وكل جيل من أجيال الإنسانية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأجيال التي سبقتة ويعتمد عليها، وهذه الحتمية التاريخية هي ضمان التقدم الإنساني. ومما لا شك فيه أن من ضروب هذا التقدم ما سيسير بسرعة، ومنها ما سيسير ببطء، ولكن هذا السير لن يعود القهقري، مادامت الأرض تحتل دائماً مكانها في النظام الكوني^(٢). ولاحظ كوندرسيه أن

(١) ج (بولاق ١٢٧٠هـ)، ص ٢ - ٨؛ قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٢٣٨.

(٢) Heilbroner (Robert L.). The Future as History (New York. 1960). P. 22. السيد محمد بدوي: مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري لكوندرسيه (القاهرة ١٩٩٥)، ص ٢٦ - ٢٧.

وظيفة المؤرخ هي اكتشاف العقبات التي وقفت - أو قطعت - المجرى الطبيعي للتقدم والتخلص منها، وعمله هو انتزاع الماضي من ظهر الحاضر، حتى يمكن للحاضر أن ينهض ويواصل رقيه ورخاءه وسعادته وكماله^(١). وأساس تقدم الإنسانية هو تقدم العقل البشري، فعن طريق تقدم القوى العقلية تتقدم الجوانب الإنسانية المادية والاجتماعية. ودراستنا للتقدم الذي تم في العصور القديمة والسابقة والذي يحدث في عصرنا تساعدنا في معرفة التقدم الذي سيحدث في المستقبل. ويحدد كوندرسيه أهم العقبات التي تلعب دوراً هاماً في عرقلة تقدم الإنسانية وهي المعتقدات المسلم بها سابقاً دون برهنة على صحتها، وتعد الخرافات أوضح مثل تلك المعتقدات^(٢). وقد وضع كوندرسيه قانوناً عاماً لتقدم الإنسانية، ويقوم هذا المبدأ على أساس تقدم العقل البشري، فإن مراحل تقدم الإنسانية هي ذاتها مراحل تقدم العقل البشري، أي أن كل مرحلة منها تعبر عن سمات أساسية في تقدم العقل البشري. وقد مر التقدم الإنساني في عشر مراحل، تمثل المرحلة العاشرة فيه مستقبل الإنسانية في العصور التي تلي عصر كوندرسيه (ما بعد القرن الثامن عشر الميلادي)^(٣). وعند عرضه للمستقبل نلاحظ سيطرة نزعته التفاؤلية على تنبؤاته، ولذلك رسم صورة جميلة مشرقة لمستقبل الإنسان، وتتلخص أمنيته التي ستتحقق في المستقبل في النقاط الثلاث الأساسية: قيام المساواة بين الأمم، وتقدم المساواة بين أفراد الشعب الواحد، والتحسين الخلقى للإنسان^(٤).

وقد كتب العالم دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) David Hume مقالة موجزة جعل عنوانها «عن دراسة التاريخ»، بدأها بالإصرار على أنه

(١) Heilbroner < Op. Cit., 43; Smellie, Why we read History, P. 60.

(٢) عاطف وصفي: كوندرسيه (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٩٩، السيد محمد بدوي: المرجع السابق، ص ٤٦.

«تسليّة مناسبة، أمتع وأروح للعقول من القصص، وفي التاريخ يشهد المرء قيام وتقدم وسقوط وتمام الفناء النهائي لأشد الإمبراطوريات ازدهارا، والفضائل التي أسهمت فيما بلغته من عظمة، والردائل التي اجتلبت عليها دمارها. ودراسة التاريخ «توسع، بمعنى ما حياة الإنسان، وهي في حد ذاتها قصيرة وجيزة الأمد، والرجل الملم بالتاريخ يمكن من بعض النواحي أن يقال عنه أنه عاش منذ بداية العالم. وقد اقتنع هيوم بأن التاريخ يدور حول ما هو واقعي، وأن العنصر الخلقى Ethical يسيطر عليه، ولذلك كتب يقول: «لقد كان المؤرخون جميعا بلا استثناء أصدقاء الفضيلة المخلصين»^(١).

وتكمن ميزة التاريخ أساسا في المقارنة التي يمكن أن يضعها أي رجل دولة أو مواطن بين القوانين والعادات الأجنبية وتلك السائدة في بلده، وهذا هو الذي يحث الناس في العصر الحديث على المنافسة في مجالات الفنون والزراعة والتجارة. كما أن الأخطاء الجسيمة التي حدثت في الماضي نافعة للغاية في صور شتى، فمثلا الاطلاع على تاريخ أحد الطغاة من الممكن أن يمنع شعب من إعطاء سلطة مطلقة إلى طاغية^(٢).

والعلّ الأوضح قوائد التاريخ أنه يعنى بالتربية المدنية والسياسية، وقد عبّر عن ذلك المؤرخ الإنجليزي جون سيللي (١٨٣٤ - ١٨٩٥) John Seeley في محاضرة له في «في تدريس العلوم السياسية»، سنة ١٨٦٩، فقد قال: «إن التاريخ مدرسة السياسة»، ويعنى ذلك أن التاريخ هو السياسة الماضية، والسياسة هي التاريخ الحاضر وبدون مقدار يسير من التاريخ على أقل تقدير لا يمكن أن يعنى الإنسان عناية معقولة بالشؤون السياسية، وبدون حظ وفير منه لا يمكنه أن يصدر حكما معقولا في الأحداث المعاصرة، كما أن التاريخ دراسة هامة لكل مدنى، ورجال الحكم والتشريع أشد الناس حاجة إلى فهمه^(٣).

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢، ص ٤١-٤٢، هرنشو: علم التاريخ، ص ١١٢-١١٤.

(٢) Stern, The Varieties of History., p. 441.

(٣) Rowse (A.L.), The use of History (New York, 1948), pp. 5-

ويلاحظ أن معظم الصحفيين من ذوى النفوذ، والذين يلعبون دوراً بارزاً فى تكوين رأى صائب فى الشؤون العامة، يتمتعون بعقلية تاريخية. وفى مجال الخدمة المدنية Civil Serice وخاصة وظائفها العالية، يعتبر التاريخ أحد العوامل الهامة لمن يريد شغل هذه الوظائف، ذلك أنه يعطى خلفية صحيحة لمعظم الأمور التى سوف يجرى ممارستها فى الخدمة المدنية الإدارية. وإذا كان التاريخ هاما لمن يعملون فى الخدمة المدنية، فلاشك أنه لاغنى عنه لمن يعمل فى السلك الدبلوماسى خارج الوطن^(١)، والزعماء السياسيين ورؤساء الحكومات الذين يحتلون قمة الخدمة المدنية، ذلك أنه لا يستطيع شعب أن يتحمل وجود زعيمه السياسى دون أن يكون ملما بحقائق التاريخ ونزعاته وتاريخ أوروبا الحديثة وتاريخ العالم^(٢).

ومن أولى فوائد التاريخ أنه يعينك عل أن تفهم - أفضل مما تفهم بمساعدة أية معرفة أخرى - الأحداث العامة والاتجاهات المعاصرة لك، فهل هناك ما هو أهم من ذلك؟ وإذا أنت لم تفهم العالم الذى تعيش فيه، فما أنت إلا مجرد لعبة فى يده، وعرضة لأن تكون ضحيته^(٣) - ولكن للأسف فإن القلة القليلة هى التى تستفيد من التاريخ، بصورة مطابقة لما يقوله الفيلسوف الألمانى هيغل Hegel: «الشيء الوحيد الذى يتعلمه المرء من التاريخ، أنه لأحد يتعلم شيئاً من التاريخ»، وعلى الرغم مما يحمله هذا القول من يأس، فإننا نستطيع أن نتعلم الكثير من التاريخ، فهو يقدم لنا معيناً لا ينضب من التجارب الإنسانية المفيدة التى نستطيع الاعتماد عليها^(٤).

وقد سبقت الإشارة إلى أن التاريخ يدور حول المجتمعات الإنسانية وما

Ibid., p. 16. (٢)

†Ibid., p. 29.(٤)

Ibid., p. 10. (١)

Ibid., Pp 16. (٣)

أصبحت عليه، وتطورها خلال تعاقب العصور، والقوى التي كانت تحركها، والدوافع والنزعات - العامة والخاصة - التي شكلت أحداثها، أى أن التاريخ دراسة تتناول الطبيعة البشرية كل الوقت وتتعامل معها. ولهذا كانت قراءة سير الشخصيات التاريخية العظيمة مفيدة إلى حد بعيد، ولكن التاريخ لا يتناول حياة تلك الشخصيات فحسب، بل يتكون من رواسب حياة الملايين من الرجال والنساء الأقل شأنًا الذين لم يتركوا لنا أسماءهم، رغم أن حياتهم شكلت مادة التاريخ^(١).

ومن الواضح أن للتاريخ غرضًا أخلاقيًا، فيقول المؤرخ الإنجليزي تريقليان إن التاريخ يساعد المواطن على نبذ التعصب والتحيز، ويشحذ نشاطه ويدرب عقله على اتخاذ نظرة متوازنة إزاء المسائل السياسية، والتاريخ أساس تعليم الشعوب، وينبوع ثقافتها، وبه تتذوق تراثها الأدبي، وتندمج مع المثل العليا^(٢).

ومهما كان من أمر، فالإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًا لاغنى له ن دراسة ماضيه أو تاريخه، وما يتبع ذلك من ضرورة التوجه بالنظر إلى آفاق المستقبل في عصرنا الحالي المليء بالتحديات. ومن هذا المنطلق، فإن الأمة التي تسترجع أمجادها، وتكشف عن مآثرها العلمية والأدبية، وما وصلت إليه من رقى وازدهار، ثم انطوت على نفسها تتغنى بما كان لها من أمجاد تعويضًا لها عما تقاسيه من تخلف حاضرها، هي أمة مشدودة إلى الماضي، ضاع منها طريق الحاضر والنظرة الصائبة إلى المستقبل. ويبدو الفارق واضحًا بين تلك الأمة وغيرها من الأمم التي تعود إلى ماضيها لتأخذ منه الدروس التي تنهض أساساً لإفادة الحاضر،

Ibid., pp. 16-17.

(١)

Winkler, (Henry R.). George Macaulay Trevelyan, p. 32, in Some the (٢) century Historians, ed. by William Halperin, (U.S.A., 1961).

والانتفاع بتجاربهافي المستقبل لتلاحق متطلبات العصر وإنجازاته. ولاشك أن مثل هذه الأمة قد تحررت من تبعية التاريخ وأصفاده الثقيلة، وتكونت لديها رؤية تاريخية حقيقية تتيح لها الانطلاق في ميادين العلم والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة بعزيمة قوية، وروح وثابة.

الصفات الواجب توفرها في المؤرخ:

لايدرس التاريخ عفواً ولايكتب اعتباطاً، وليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخاً، كما قد يتصور بعض الناس، أو كما يتخيل بعض الكتاب، حينما يسطرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة، ويعتقدون بذلك أنهم يكتبون تاريخاً، ماداموا قد أمسكوا بالقلم، فلا بد من أن تتوفر في المؤرخ الصفات الضرورية وأن تتحقق له الظروف التي تجعله قادراً على دراسة التاريخ وكتابته(١).

وأول صفة ينبغي أن يتحلى بها كاتب التاريخ ليصبح مؤرخاً هي صفة عامة لا بد منها في كل الباحثين في شتى العلوم، تلك هي حب الدراسة. فقد يكون البحث شاقاً، وقد تكون المصاعب التي تعترض الباحث أثناء عمله مصاعب جمة، كندرة المصادر وغموض الوقائع أو اختلاطها واضطرابها. لكن ذلك لا ينبغي أن يصد الباحث عن بذل الجهد والصبر على مواصلة الدراسة ولو أخذ منه السنين تلو السنين، ذلك إن الإسراع والتعجل سوف يؤديان دون شك إلى طمس الحقيقة التاريخية(٢).

ومن الصفات الأساسية المؤرخ عدم التحيز، فعليه أن يحرر نفسه من العطف أو الإعجاب أو الكراهية لجماعة من الناس: أمة، حزب، فرقة، إقليم، مدينة، أسرة، أو لمجموع من المذاهب أو المؤسسات: دين، فلسفة،

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي (القاهرة ١٩٨٠)، ص ١٨.

(٢) حسنين محمد ربيع: محاضرات في علم التاريخ (القاهرة ١٩٩٦). ص ٣٦ - ٣٧.

فرقة سياسية، وإلا شوه الوقائع ابتغاء ان يعطى فكرة حسنة عن أصدقائه، وسيئة عن خصومه، ومنذ العصر القديم كان الشائع عند المؤرخين أن يتباهوا بأنهم تجنبوا هذا أو ذلك، أى التحير مع أو ضد(١). ويقول بوليبيوس: «إن التاريخ يجب أن ينزه عن الأغراض التى تشوه الحقائق، وإذا ما وقف الإنسان موقف المؤرخ فعليه أن يتخلى رأساً عن جميع الاعتبارات كحب الإنسان لصديقه وكرهه لعدوه.... وعليه فى بعض الأحيان ألا يتورع عن مدح أعدائه وذم أصدقائه. وكما أن الإنسان يفقد كل قيمته فيما إذا انتزعت منه عيناه، كذلك التاريخ يفقد كل أهميته إذا ما انتزعت منه الحقيقة ولا يبقى منه إلا قصة لاقيمة لها،(٢). وفى مكان آخر يقول بوليبيوس: «إن واجب المؤرخ ليس إثارة دهشة القارىء بما يقدمه من مبالغات وأساطير، فهذا من اختصاص كتاب المأساة (التراجيديا)، إن المؤرخ الحق هو الذى يقدم الحقائق الخالصة مهما كان نوعها أو مضمونها كما حدثت تماماً دونما تحريف أو تزوير أو مبالغة، لأن هدف التاريخ مختلف تماماً عن هدف التراجيديا ومعاكس له. فالتراجيديا تهدف إلى استثارة الجمهور استثارة مؤقتة، فى حين أن التاريخ يهدف إلى إبراز الحقائق والأحداث الصحيحة، ليتعلم الإنسان ويكتسب المعرفة على مر العصور. إن كاتب التراجيديا يرضيه أن يصفق له جمهوره، ولو كان هذا التصفيق كذبا وزوراً، فى حين أن المؤرخ لا تقتنعه إلا الحقائق لأنه يروم نشر الفائدة بين تلاميذه،(٣).

وقد أعطى لوشيان من ساموساتا (١٢٥ - ٢٠٠ م) وهو مؤرخ يونانى متشكك صفات المؤرخ المالى بقوله: «لا يعرف الخوف، غير قابل للفساد،

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى (الكويت ١٩٧٧)، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) نور الدين هاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ١٠٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٢.

حر، صديق للتعبير الحر والحقيقة، لا يتأثر بالكراهية أو الصداقة، لا يفضى عن أى شخص، لا يظهر رثاءً ولا خجلاً ولا خضوعاً، قاض محايد، حسن السلوك مع كل الرجال إلى الحد الذى لا يعطى فيه جانباً أكثر مما يستحق، ورجل لا ينتمى إل بلد من البلاد، مستقل، لا يخضع لأى سلطان، غير عابىء بما يظنه هذا الرجل أو ذاك ولكنه يقرر الحقائق. .
وكتب بييربايل من روتردام فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أن «المؤرخ بوصفه مؤرخاً هو كأنه بلا أب، ولا أم، ولا أجداد. ويجب حين يسأل من أين جاء: أنا لست فرنسياً ولا ألمانياً ولا أسبانياً، وأنا مواطن عالمى. أنا لا أخدم الإمبراطور أو ملك فرنسا، وإنما أخدم الحقيقة وحدها: إنها ملكتى الوحيدة التى أقسمت على طاعتها» (١).

ويكون المؤرخ بمثابة القاضى الذى لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذى يصل إليه البعد عن التحيز والهوى (٢). ومع هذا فإن الأصول القضائية أرحم من الأصول التاريخية، فمن أصول الأحكام القضائية براءة الذمة، وأن المتهم برىء إلى أن تثبت إدانته، أما فى التاريخ فكل رواية متهمة إلى أن يقوم الدليل على براءتها، ولذا كان لا بد للذى يتصدى لدراسة التاريخ أن يتجهز بالشك النافذ المتزن، وأن ينمى فى ذاته الحس النقدى الحاد الواعى، ولكن ينبغى اتخاذ الحذر من المغالاة فى الشك والنقد (٣). ويرى المؤرخ الأديب على أدهم «أن إسناد وظيفة القاضى، إلى المؤرخ ليس من الصواب، لأن عمل القاضى أن يفصل فيما بين المتهم والشاكى، ويحكم بالإدانة أو البراءة. وعمل المؤرخ يختلف عن ذلك، فهو يراقب الأعمال والرجال ويصف ما يرى دون أن يمدح أو يذم» (٤).

(١) هانزكوهن: عصر القومية، ترجمة عبدالرحمن صدقى، مراجعة مصطفى حبيب (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٨٩.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٦.

(٣) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ (بيروت ١٩٥٩)، ص ٥٩.

(٤) أحمد حسين الطماوى: على أدهم بين الأدب والتاريخ (القاهرة ١٩٩٠)، ص ١٠٥.

ومن المزايا المطلوبة فى علم التاريخ أنه ينبغى على المؤرخ أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور، وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه والمناصب، وأن يكرس نفسه لعمله العلمى فى صمت وسكون، من غير أن يوزع جهده هنا وهناك، ودون أن يقوم بأعمال أخرى، نافعة بغير شك، ولكن يمكن أن يقوم بأدائها آخرون على خير وجه، إذ أن الحقيقة العلمية التى قد يكشف عنها تعدل كل ألوان الكسب وصفوف المناصب أو تزيد عنها. ولا شك أن العاكفين المتفرغين للدرس والبحث فى كافة العلوم والآداب والفنون - ومنهم المؤرخون - هم الذين يقوم على أكتافهم تقدم الإنسانية وازدهار الحضارة^(١).

وقبل العصر الذى أصبح فيه القارىخ علما، نلاحظ فى التراث الإسلامى أن أكثر المؤرخين المسلمين قد التزموا فى غالبية كتاباتهم الحيدة والتجرد عن الهوى، وقدموا لنا رؤية سليمة فيما ينبغى أن يكون عليه المؤرخ من دقة وموضوعية وصدق، فقد اكتفوا بسرد الأحداث دون تعليق، وأقدموا على تسجيلها دون وجهة نظر مسبقة، وألزموا أنفسهم بقسط من الموضوعية يندر أن نجدها فى غيرهم. وهذه الصفات التى ينبغى على المؤرخ العمل بها، هى التى - على سبيل المثال - جعلت مؤرخا واعيا بصيرا من مؤرخى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، وهو ابن طباطبا العلوى المعروف بابن الطقطقى (ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) يقول: «والتزمتم فيه - يعنى فى كتابته - أمرين: أحدهما ألا أميل فيه إلا مع الحق، ولا أنطق فيه إلا بالعدل، وأن أعزل سلطان الهوى، وأخرج من حكم المنشأ والمريى (اعتبارات البيئىة)، وأفرض نفسى غريباً منهم وأجنيبياً بينهم»^(٢).

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٩.

(٢) محمد عبدالغنى حسن: علم التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٦١)، ص ٣٧.

ويشترط العلامة ابن خلدون^(١) في المؤرخ أن يكون عالماً بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالماض من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والممل، ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوفياً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خبر.....

أما المؤرخ السخاوي^(٢) (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) فيقول عن الشروط التي ينبغي أن تتوفر في المؤرخ: «ويشترط في المؤرخ الصدق، وإذا نقل يعتمد على اللفظ دون المعنى، وألا يكون ما نقله مما أخذه في المذاكرة ثم كتبه بعد، وأن يسمى المنقول عنه، فهذه شروط أربعة فيما ينقله، أما ما يقوله من قبل نفسه وما عساه يطول فيه من المنقول بعض التراجم دون بعض، فيشترط فيه أن يكون عارفاً بحال المترجم علماً ودينياً وغيرها من الصفات وهو عزيز جداً، وأن يكون حسن العبارة عارفاً بمدلولات الألفاظ حسن التصوير بحيث يتصور حين ترجمة الشخص جميع حاله، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عنه ولا تنقص، وأن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه في الإطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره، وذلك بأن يكون عنده من العدل، ما يقهر به هواه ويسلك معه طريق الإنصاف، وإلا فالتجرد عن الهوى عزيز».

(١) المقدمة، ص ٢٥١.

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٧٣ - ٧٤.

وفى تاريخ مصر الحديث يقدم لنا الشيخ عبدالرحمن الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) صورة كاملة للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى فى موضوعية تبين دقته، وتبين كذلك أنه يؤكد أنه يكتب للحقيقة والتاريخ. فهو يقول فى مستهل كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والخبار»: «ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى». ولكن هذه الموضوعية لاتجعل من تاريخ الجبرتي تاريخاً بارداً، فكتاباته تفيض بالحياة الدافئة، والسبب فى ذلك أنه يفعل بالأحداث انفعالا عميقا. وأول ما يسترعى النظر لمن يقرأ الجبرتي حب الرجل لبلده التى شاركها فى أفراحها ومصائبها بكل قطرة، فهو يكتب عنها وكأنه يكتب بلحمه ودمه^(١).

ونخلص من هذا إلى أن الشروط الواجب توفرها فيمن يتصدى لكتابة التاريخ تنقسم إلى قسمين: قسم يرجع إلى مادة المؤرخ ومعلوماته ومعارفه كما سنرى فيما بعد، وقسم يرجع إلى أخلاق المؤرخ ونفسيته. فالمعرفة بحال المترجم، وحسن العبارة، وحسن التصور، ومدلولات الألفاظ، كل ذلك من الشروط المادية المتصلة بمعارف المؤرخ ومعلوماته ومادته التاريخية، والصدق وعدم غلبة الهوى فى الأحكام، وسلوك طريق الإنصاف والبعد عن التحيز والتعصب، كل ذلك من الشروط الخلقية فى المؤرخ^(٢).

(١) محمد أنيس: مدرسة التاريخ العثمانى (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢٩.

(٢) محمد عبدالغنى حسن: علم التاريخ عند العرب، ٢٧٢ - ٣٠.

الفصل الثانى

كتابة التاريخ فى العصور القديمة

كتابة التاريخ فى الشرق القديم

كتابة التاريخ عند اليهود

كتابة التاريخ عند الصينيين

كتابة التاريخ عند اليابانيين

كتابة التاريخ عند الهنود

كتابة التاريخ عند اليونان

كتابة التاريخ عند الرومان

الحقيقة أن علم التاريخ علم قديم يرجع إلى العصر الذي ترك فيه الإنسان آثاره على الصخر. فالإنسان البدائي الذي عاش في الكهوف زين كهفه بالنقوش البدائية التي تصور حياته ليراها ويدرسها من يأتي من بعده. وربما كانت تلك الصور التي حفظتها لنا كهوف الإنسان الأولى هي أول مآدون الإنسان من تاريخه. وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن التدوين التاريخي يسبق بكثير اهتداء الإنسان إلى الكتابة، إذ عمل الإنسان على أن يصور حياته ويسجلها في تلك الصور التي حفرها على جدران كهفه البدائي، وبالتالي نستطيع القول إن التاريخ نفسه يسبق مرحلة التدوين التاريخي، فهو قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض، وإن لم يصل علمنا به إلا من ثنايا الحفريات التي تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على سطح الأرض. غير أن علمنا بالتاريخ لا يصل إلا إلى عدة آلاف من السنين، وهو عمر قصير إذا قيس إلى الحياة الإنسانية الطويلة^(١).

كتابة التاريخ في الشرق القديم:

وكتابة التاريخ بالمعنى المعروف اليوم كانت نادرة قليلة التقدم عند سكان الشرق الأدنى القديم، ويرغم تقدم الحضارة في مصر وفي أرض ما بين النهرين، فإنه لم تخرج ما يستحق أن نسميه تاريخاً، والملاحظات اليسيرة عن انتصارات الفراعنة المصريين، والقوائم القليلة الحاوية لأسماء الملوك التي حفظت كان باعثها جميعاً تمجيد شأن الفرعون الحاكم، وذكر أحداث حياته^(٢). فرغم التقدم الكبير الذي أحرزته دراسات مصر

(١) حسنين ربيع: محاضرات في علم التاريخ، ص ١٢٥

(٢) بارنز (هارى إلمر): تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة د. محمد عبدالرحمن برج، مراجعة د. سعيد عبدالفتاح عاشور، ج ١، ٢٣، على أدهم: تاريخ التاريخ (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١١-١٢.

القديمة، فلسنا في موقف يسمح لنا بتصوير أننا قد أصبحنا مدركين لأصول التاريخ الفرعوني إدراكاً تاماً أو ملمين بمعالم الحضارة المصرية القديمة إماماً دقيقاً، ولا زالت بعض عصور وحوادث ذلك التاريخ الطويل المطرد الذي استمر أكثر من ثلاثة آلاف سنة غامضة، ولا زالت بعض نواحي الحياة في مصر القديمة مبهمة، ولا زالت معلوماتنا عن ذلك التاريخ وتلك الحضارة عرضة للتغيير والتفتيح كلما توصل باحث إلى نتيجة علمية جديدة أو نقب أثرى في أرض مصر (١).

وظهرت عند الاشوريين وثائق حوليات ملكية في تسلسل حول مغامرات الحكام في الحرب والصيد والقيام ببناء بعض القصور، ولم يظهر أثر للحاسة الناقدة في هذا التسجيل البدائي للتاريخ، وكان الهدف المقصود من هذه النقوش تمجيد الملك الحاكم وإعلاء شأنه في نظر الأجيال التالية، وكانت الحقائق التي تزرى ونشوه ذكره تحذف جميعها ولا يشار إليها، وتغلب على تلك النقوش المبالغة والتهويل والروح الدينية ونسبة المباني الشسيدة للآلهة (٢).

ويذكر الأستاذ بارنز Barnes أن الأحوال الجوية جعلت مصر متحفاً تاريخياً حقيقياً، أو كما قال الأستاذ برستد Breasted، كتاباً تاريخياً ضخماً، وساعدت على حفظ مصادر وافية وقيمة للمعلومات التاريخية المصرية إلا القليل، ومها ما كتبه أحد كتاب تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) تقريباً، وقد وصف فيما كتبه حروب هذا الملك القدير وصفاً جيداً. وحينما تأثرت الثقافة المصرية القديمة بالثقافة الهلينية ظهر كاتب مصر هيليني الثقافة وجمع حوليات عن تاريخ مصر، وكتب سرداً

(١) عبد الحميد زايد: مصر الخالدة (القاهرة ١٩٦٦)، ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) على أدم: تاريخ التاريخ، ص ١١.

تاريخيا كان له شأن على ما يبدو في عصره، وعرف بالدقة والموضوعية في جمع المادة التاريخية وتفسيرها^(١). وهذا الكاتب هو مانيتون السمودي (٣٢٣ - ٢٤٥ ق.م) Manetho الذي يعد أول مؤرخ أنجبته مصر القديمة، وأبو التاريخ الفرعوني بحق، وقد عاش في بلاط الملك بطليموس الثاني (فيلاذلفوس)، وكان على جانب كبير من العلم والثقافة، ملماً إماماً كبيراً باللغة المصرية القديمة، متمكناً من اللغة اليونانية، متعمقاً في دراسة تاريخ بلاده القديم وعقائد الديانة المصرية. وقد كتب مانيتون تاريخ مصر حوالي عام ٢٨٠ ق.م باللغة اليونانية، ولكن كتاباته فقدت للأسف الشديد، ولم يصل إلى أيدينا منها إلا فقرات مختصرة أو مبتورة عن طريق مؤرخين جاءوا بعده ببضع قرون وتناقضوا في التواريخ وسنى حكم الملوك، مثل المؤرخ اليهودي يوسف Josephus الذي عاش في القرن الأول الميلادي، والمؤرخين المسيحيين القديمين جوليوس الأفرقي الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، وإيوبويوس الذي عاش في بداية القرن الرابع الميلادي^(٢).

ويبدو أن الكتاب الإغريق لم يهتموا كثيراً بكتابات مانيتون نظراً لطابع كتاباته القومي، أما الكتاب اليهود فقد نقلوا عن مانيتون لأنهم اعتقدوا أنه يؤيد حججهم في محاولاتهم تعجيد قومهم. وترجع أهمية كتابات مانيتون إلى تدوينه أسماء ملوك مصر كما نطقها الإغريق، ثم إلى انفراده بتوزيع فراعنة مصر بين ثلاثين أسرة - وهو تقسيم لازلنا نسير عليه حتى الآن - حكمت بالتوالي مصر منذ توحيد مينا لشرى الوادي حتى فتح الإسكندر الأكبر للبلاد عام ٣٢٣ ق.م^(٣).

(١) بارنز: المرجع السابق، ج١ ص ٣٣ - ٣٤؛ على أدم: المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) عبد الحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٤ - ١١٥.

(٣) عبد الحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٥.

وقد يعتمد المؤرخ على المعلومات التي تمدنا بها دراسة حضارات الشرق القديم الأخرى، كالبابلية والآشورية والأرامية والفينيقية والحثية، التي عاصرت بعض أدوار الحضارة المصرية، وتفاعلت وتجاوبت معها، وأثرت أو تأثرت بها، وارتبطت تواريخها بتواريخ مصر القديمة ارتباطاً وثيقاً، وانتقلت شعوبها بالشعب المصري إتصلاً مباشراً أو غير مباشر، وضمت عناصر حضارة مشتركة تساعد على فهم تاريخ مصر القديمة وحضارتها، ولكن هذه المعلومات مضللة في كثير من الأحيان. وتمثل وجهات نظر تلك الأمم من زاوية مصالحها الخاصة، وترسم صور الأحداث الجارية بما يتفق مع أهدافها، فطالما حولت الهزائم إلى انتصارات، أو عولجت بعض الحالات بطريقة تبرر رفعة شأن هذه الأمم أو تمجد ملوكها^(١).

والجدير بالذكر أن البابليين والآشوريين تقدموا على المصريين القدماء تقدماً قليلاً في جمع الوثائق التاريخية، ولكن لم يظهر بينهم مؤرخ من طراز مانيتون، حتى تأثرت الحضارة البابلية بالحضارة الهيلينية، فقد ظهر حينئذ المؤرخ الكاهن بيروسوس Berossos، وكتب تاريخ بابل باللغة الإغريقية في نفس القرن الذي عاش فيه مانيتون، أي أوائل القرن الثالث قبل الميلاد. ولقد كان تاريخ بيروسوس مصدراً هاماً للمؤرخين في العالم الإغريقي - الروماني وذلك لندرة المصادر الأخرى، وعلى الرغم من أننا في الوقت الحاضر لانملك سوى مقتطفات منه، إلا أن قيمتها تزداد يوماً بعد يوم^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن الوثائق التاريخية الخاصة بقدماء المصريين والبابليين والآشوريين لم تتجاوز أنساب الملوك، وتسجيل الحملات

(١) المرجع السابق، ص ١١٣.

(٢) يارنيز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١، ص ٣٤ - ٣٦.

الحربية، وأساليب المدح الموجهة إلى الملوك، والملابس الاجتماعية التي مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ الممل لم تسمح بازدهار لون آخر من ألوان التاريخ أرقى مستوى وأكثر أصالة^(١).

كتابة التاريخ عند اليهود:

اهتم اليهود بتاريخهم اهتماماً كبيراً، وعبرت الكتب العبرانية المقدسة عن أفكارهم حول طبيعة التاريخ وموقفهم منه. وقد نظر اليهود إلى التاريخ نظرة تقوم أساساً وفي أوسع شمول على المذهب التآليهي، فالطريق إلى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الإلهية. ومع أنه جاء على اليهود أوان ربما سار فيه اعتقاد بأن للشعوب المختلفة أرباباً متفرقين، فالذي حدث منذ عهد مبكر أنه نشأ بينهم اقتناع بوجود إله فقط. ومع أن الإصحاحات الأولى من سفرهم الأول وهو سفر التكوين، ربما اعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية، فإن تلك الكتب تنطوي على فكرة جوهرية هي أن بداية التاريخ البشري إنما ترجع إلى الله. فهو الذي خلق الأرض بكل مالها من خصائص تجعل التاريخ ممكناً على ظهرها. وهو الذي خلق الكائنات البشرية في صورة أرواح لها أبدان، وهو الذي أدخلهم في رفرف من السعادة والحبور: جنات عدن^(٢). ولكن التاريخ يحتوى على الشر، كما أن قصة سقوط آدم وحواء، وهما أول الكائنات البشرية، تقدم إلينا تبياناً لأصل ذلك الشر. وتنطوي القصة ضمناً على فكرتين دامتا بقوة في نظر اليهود إلى التاريخ. وأولى هاتين الفكرتين أن للإنسان مطلق الحرية في طاعة الله أو عصيانه، وابتعاد الإنسان عن الله عن طريق المعصية هو أصل الشر وأساسه، كما أن جميع أنواع الشرور الأخرى تتوقف توقفاً مطلقاً عليها. ومع أن الله قد طرد آدم وحواء من

(١) على آدم: تاريخ التاريخ، ص ١٣ - ١٤.

(٢) ويدجى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج ١، ص ١٤٩ - ١٥٠.

جنة عدن، فإنه لم يبعد بين ذاته وبين البشر، إذ ذهب اليهود إلى أن الله ظل دائما على إتصال بالناس في التاريخ (١).

ويقول الأستاذ بارنز في كتابه «تاريخ الكتابة التاريخية» (٢): «إن شرف إخراج أول سرد تاريخي حق متسع المجال ويحظى بنسبة عالية من الدقة يلزم أن يعزى إلى يهود فلسطين القديمة. ومعظم هذه الكتابات اليهودية التاريخية قد احتواها الكتاب المقدس (التوراة)، وفي عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة أبدى بعض آراء الكنيسة الذين يميلون أكثر من غيرهم إلى التشكك، شكوكهم في صحة أفكار معينة تقليدية عن تأليف الكتاب المقدس. ويذكر بارنز أيضا أن الباحثين المحدثين مثل دلتشي Delitzsch، وونكر، وروجرز، قد أظهروا تأثير الأساطير البابلية والتقاليد في الديانة اليهودية، وبخاصة في اقتباس قصة الخليقة وبرج بابل والطوفان، إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية في اقتباس فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح (٣).

وكان آخر المؤرخين اليهود القدامى البارزين هو يوسف أو فلافيوس يوسيفوس (٣٧ - ١٠٥ م)، وهو مؤرخ اليهود القومى، وكتب أكثر ما كتبه بعد فقد اليهود وحدتهم وسقوط دولتهم سنة ٧٠ م على أيدي القائد الرومانى تيتوس وتشيتت شملهم وتشريدتهم في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وقد حاول المؤرخ يوسف أن يهون الأسى الذى خالج نفوس اليهود بإعادة ذكرى أمجادهم السالفة، ولذلك عمد إلى المبالغة في الإشادة بماضى اليهود (٤).

(١) المرجع السابق، ج١ ص ١٥٠.

(٢) ج١ ص ٣٦ - ٣٧، على أدم: تاريخ التاريخ، ص ١٩.

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ٣٧ - ٣٨.

(٤) المرجع السابق، ج١ ص ١٤٢ على أدم: تاريخ التاريخ، ص ٢١.

كتابة التاريخ عند الصينيين:

شهدت الصين منذ أقدم العصور قدراً ضخماً من التاريخ المكتوب. ويتضح من البقايا الباقية منه أنه كان في معظمه «حواليات» تدور في الأغلب حول أفراد من الطبقات الحاكمة، وأحداث حياتهم وصراعاتهم المدنية، وقيام الأسرات الحاكمة المتعاقبة ومصائرهما، ولكن لم يتجل فيها إلا القليل من التأمل حول طبيعة التاريخ ومعناه. ولم تتوافر أية جهود مستمرة لكشف أى مغزى وعبرة فى الأحداث التاريخية فى أى هدف بعيد، فكان الالتفات كله مركزاً على الحاضر والماضى^(١).

ويرى الأستاذ روبرت فلنت أن الصينيين تفوقوا على سائر الأمم الشرقية فى الأدب التاريخى، ويرجع ذلك إلى شدة إحساسهم بحقائق الحياة، وفرط احترامهم لأسلافهم، وشدة تعلقهم بالماضى وحسن إدراكهم السياسى، واعتدالهم فى إصدار الأحكام، وبعدهم عن الاسترسال مع الخيال، وتقديرهم العالى للمعرفة والثقافة، وميلهم إلى الجد فى طلب العلم^(٢). وعند الصينيين عدد كبير من المؤرخين، وعلى ما يبدو منذ ألفين وستمئة سنة شكلت لجنة فى العاصمة لتسجيل الأحداث التى قد تكون لها أهمية من الناحية القومية؛ والأدب الصينى حافل ضخماً، وهو يشمل تاريخ أسر خاصة وملخصات حولية ومذكرات مختلفة الأنواع وتراجم وسيراً لا يكاد يحصيها العد، ومدونات تاريخية، ومعاجم تاريخية زاخرة بالمعلومات، وهى تتناول شتى العصور ومختلف جوانب الحياة، وهى مكتوبة بأسلوب شيق يرتضيه الذوق الصينى، ولكن الكتابة التاريخية برغم ذلك ترتفع عن مستوى الطريقة الحولية، وقد بذل المؤرخون الصينيون جهداً فى جمع المعلومات واستقصاء الوقائع

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج ١ ص ٢٥.

(٢) على أدم: تاريخ التاريخ، ص ١٤.

وتنسيقها، ولكنهم لم يضعوها في موازين النقد، ولم يسبروا غورها، ولم يتابعوا التطور الجوهرى لأحداث التاريخ (١).

وأبعد المؤرخين الصينيين شهرة هما سيزماتيان الذى ولد حوالى سنة ١٤٥ قبل الميلاد، وسيرىما كوانج الملقب بأمير المؤرخين، وقد ذاعت شهرته فى القرن الحادى عشر، وينتسب هذان المؤرخان إلى أسرة واحدة على الرغم من تباعد مولدهما، وقد كتب الأول وثائق تاريخية تشمل كل ما له أهمية فى الحوليات الصينية منذ عهد هو انج تى، أى منذ ٢٦٩٧ قبل الميلاد، إلى العصر الذى عاش فيه، واستقصى الآخر تاريخ الصين خلال ألف وثلثمائة واثنيتين وستين سنة، وقد أضيفت إليه بعد ذلك إضافات أوصلت السرد التاريخى إلى القرن الثامن عشر، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية (٢).

كتابة التاريخ عند اليابانيين:

عنى اليابانيون بكتابة التاريخ مثل الصينيين، ويرى المؤرخون اليابانيون أن الأسرة الملكية الحاكمة بدأ حكمها منذ القرن السادس قبل الميلاد، وهى أقدم الأسر المالكة تاريخاً. ومن المسائل التى لا تزال موضع خلاف ونقاش مسألة نشأة كتابة التاريخ اليابانية، وهل كانت نتيجة حافز قومى أو كانت أثراً من آثار الاحتكاك بالصين، ويرى المتخصصون الأوربيون فى الدراسات اليابانية أن كتابة التاريخ اليابانى الصحيح لا ترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد (٣).

وقد جمعت أقدم الوثائق التاريخية اليابانية سنة ٧١٢م فى كتاب،

(١) المرجع السابق، ص ١٤ - ١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦.

جرى ترجمته إلى اللغة الإنجليزية، والحوليات اليابانية المسماة نيهونجي التي تمت سنة ٧٢٠م يبدو فيها طابع التأثير الصيني، وفي القرنين الثامن والتاسع اشتركت طائفة من الكتاب في كتابة وثائق تاريخية، وكان أنبه هؤلاء الكتاب ذكراً وأبرزهم أثراً المؤرخ سيجوارا ميشيزن، ومن القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر حدث تطور ملحوظ في كتابة التاريخ الياباني، واتسم بإحكام السرد وإجادة التفكير التاريخي^(١).

وفي خلال العهد الإقطاعي ظهرت حوليات كثيرة، ولكن قبل ظهور المؤرخين الممتازين كما حدث في عهد الإقطاع الأوربي، وقرب انتهاء ذلك العهد ظهر مؤلف تاريخي ضخم ذائع الصيت كتبه الأمير ميتو (١٦٢٢ - ١٧٠٠) وعاونه في ذلك عدد من العلماء اليابانيين والعلماء الصينيين، وقد شمل تاريخ اليابان حتى سنة ١٤١٣م، وكان الغرض الذي رمى إليه الأمير بهذا المؤلف هو النيل من مكانة الشوجانات (وكان الشوجان هو القائد الأعلى للجيش الياباني في عهد الإقطاع) واعتبارهم مغتصبين للسلطة، وإعلاء شأن الميكادو باعتباره المصدر الوحيد للسلطة الشرعية والحكم الصالح، وقد كتب الكتاب بحذق وبراعة جعلته صالحاً لتحقيق هذا الغرض، وهو مصدر الحركة التي انتهت بثورة سنة ١٨٦٨م^(٢).

وأول مؤرخ ياباني وصل بالتاريخ إلى المرتبة العلمية هو هاكيسكي (١٦٥٧ - ١٧٢٥)، ويعدّه اليابانيون أعظم مؤرخيهم أصالة، وأوسعهم إحاطة. ومن كبار مؤرخي اليابان رابي سانجو (١٧٨٠ - ١٨٣٣)، وقد عرف بنفاذ بصيرته، وقدرته الناقد، وتدل المقطعات التي ترجمت من مؤلفاته على أنه كان يريد تصوير الأحداث ويحسن عرضها. وظهر في

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦ - ١٧.

اليابان الحديثة مؤرخون لهم وزنهم مثل موتوري نوريناجا (١٧٣٠ - ١٨٠١ م) وهيرانا اسيتانى (١٧٧٦ - ١٨٤٣). ومن مميزات الأدب اليابانى كثرة الروايات اليابانية التاريخية، وكثير منها يرجع تاريخه إلى القرنين العاشر والحادى عشر^(١).

كتابة التاريخ عند الهنود:

الحقيقة إن تاريخ الهند وإن توغل فى القدم آلافا من السنين، فإن القليل منه نسبيا هو الذى تم كشفه مسجلا حتى الان. وأشد ما أثر عن بلاد الهند من أدب جدير بالذكر، هو أدب دينى وفلسفى. وتحتوى الملاحم السنسكريتية العظيمة وهى «المهابهارتا والراماياتا والبورانات»، على إشارات تاريخية، ولكنه حتى هذه الكتابات نفسها يغلب عليها الطابع الميثولوجى (الأسطورى)، كما أنها ذات مدلول خلقى ودينى^(٢). ويحوى سفرا «المهابهارتا والبورانات»، إشارة إلى فكرة الدورات المتكررة فى التاريخ، وفى كل دورة أربع «يوجات»، أى عصفور. فالعصر الأول عصر «الكريتا، أو العصر الذهبى، كل شىء فيه بالغ حد الكمال. وأما الثانى وهو عصر «الترتيا، فتصاب فيه الفضيلة بالانحطاط، على حين تنتشر فى الثالث وهو «الدفابارا، الأمراض والخطايا وتزداد المراسم الظاهرية وتصاغ القوانين، وفى الرابع وهو «الكالى، أى أسفل درك فى الدورة، فتتسلط فيه الآلام ويهمل الدين. وعند نهايته يجرى امتصاص كل شىء فى البرهمى، وتبدأ الدورة سيرتها الأولى مرة ثانية، وهكذا دواليك إلى الأبد. ونحن نعيش فى «الكالى يوجا، أى عصر الدرك الأسفل، والأيام يغلب عليها السوء^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج١، ص ٦٧.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص ٦٨.

والواقع أن الهند تمتاز بثرائها الأدبي، فالشعر الهندي والفلسفة الهندية من أسمى طراز، ولكن كثرة امتزاج الشعوب والسلالات في الهند منذ القدم وعدم وجود وحدة سياسية تجمع شملها، وتزيل أسباب الخلاف والتنافر في العادات والتقاليد واللغة، لم يساعدا على ظهور الكتابة التاريخية، ولذلك ليس للهندوس تاريخ قومي مكتوب. وقد استطاع الهنود أن يعبروا عن أفكارهم وخوارج نفوسهم في الكتب المسماة «فيدا»، وهي تتضمن وصف الحياة الاجتماعية لطائفة الهنود الآريين وآرائهم في الله والكون والإنسان، ولكنهم لم يعنوا بتدوين أخبار الحياة الاجتماعية، والأحداث الخارجية العادية^(١). ويجد الباحثون صعوبات جمة في استخلاص الحقائق التاريخية من القصائد الشعرية الهندية، وأقدم مؤلفات هندية يمكن إلحاقها بالأدب التاريخي لا ترجع إلى أبعد من القرن الحادي عشر الميلادي، وهي مع ذلك لا تخلو من الشوائب، وأشهرها كتاب «ملوك كاشميرا»، وتغلب عليه الروح الشعرية والنزعة الأسطورية^(٢).

ولو تأملنا رجال العلم في الشطر الأعظم من تاريخ الهند، لوجدناهم من البراهمة الذين ركزوا اهتمامهم على الدين دون التاريخ. وظهرت في عهد الإمبراطورية المغولية تدوينات تاريخية وضعها كتاب من المسلمين، ولكن التدوين تم على يد قوم ارتبطوا ببلاطات الإمبراطور والأمراء، كما أنه قام إلى حد كبير على حياة الحكام وغزواتهم^(٣).

وعلى أية حال، إن القلة النسبية للتدوين التاريخي بالهند قد دفعت بعض الناس إلى القول بأن الهندوس ليس لديهم «إحساس بالتاريخ». وربما أعوزهم ذلك الإحساس بمعنى تلك العبارة عند أهل الغرب الأوربي. ولكن

(١) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ١٨.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) ويدجري: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١، ص ٦٨.

ربما كان كل ما فى الأمر أن الناس أساءوا فهم ذلك القول. إذ كانت لهم اتجاهات من التاريخ، وأنهم فى أغلب شأنهم لا يزالون يحتفظون باتجاهات محددة من التاريخ يعبرون عنها فى كتاباتهم الفلسفية والدينية، كما يعبرون فى ديانتهم العملية وحياتهم اليومية^(١).

كتابة التاريخ عند اليونان:

الرأى القائل إن أول كتابة تاريخية ذات شأن ظهرت عند اليونان كانت فى الأشعار المنسوبة إلى هوميروس صاحب الملحمتين الخالديتين الإلياذة والأوديسا له أساس من الواقع. وفى أشعار هوميروس معلومات وافرة عن المجتمع اليونانى والثقافة اليونانية، ويمكن تكوين صورة واضحة لحضارة عصره من الإطلاع على أشعاره. ولكن ميلاد الكتابة التاريخية الحقيقية عند الإغريق كان يستلزم خلفية تاريخية لم يتيسر ظهورها عند اليونان إلا فى القرن السادس قبل الميلاد، وهذه الخلفية هى ظهور الكتابة النثرية والنظرة الناقدة إلى الأساطير الشائعة، وبواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ونشأة النظم والقوانين والعادات والتقاليد^(٢).

ويعتبر هيكاتيوس Hecataeus الذى ولد فى مدينة ملطية حوالى عام ٥٥٠ ق.م وكان رحالة، أول مؤرخ إغريقى. وقد كتب فى أصل الشعب الإغريقى، واتخذت كتاباته التاريخية إتجاهاً نقدياً صريحاً تجاه الأساطير اليونانية التقليدية التى دارت حوله نشأة الخلق، وهو يقول: «لست أدون هنا إلا الرواية التى أعتقد صحتها وصدقها، فإن أساطير اليونان كثيرة، وفى رأى أنها تدعو إلى السخرية^(٣)». وقد زار هيكاتيوس مصر فى

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٦٩.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١، ص ٤٧، على زدهم: تاريخ التاريخ، ص ٢٢.

(٣) هرنشو: علم التاريخ، ص ١٨.

القرن السادس قبل الميلاد، وسجل في كتابه الذى فقد الكثير من المعلومات التاريخية التى أمده بها الكهنة، ولو أنه اهتم بفيضان النيل وتكوين الدلتا وحيوانات مصر أكثر من اهتمامه بسكان البلاد وتاريخهم.

وجاء من بعد هيكاتيوس مؤرخ كبير هو هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م)، واختلف الناس فى أمره والحكم على كتاباته، على أن اختلافهم هذا لم يغض مطلقاً من شهرته، فهو بين الناس دائماً «أبو التاريخ»، وبين المؤرخين إمام خالد، ومثل غير مسبوق^(١). ولقد فطن هيرودوت - عن إدراك وتقدير دقيق - أن التاريخ علم، أو من الممكن أن يكون علماً، ومن ثم لا بد أن يعرض لأعمال الإنسان، وأدرك هيرودوت أن التاريخ ليس من قبيل الأساطير، وإنما هو من قبيل البحث العلمى. إن كلمة «تاريخ يونانية فى الأصل ومعناها بحث أو استقصاء، التى اتخذها هيرودوت عنواناً لكتابه قد «استحدثت بهذا ثورة فى التأليف». إن تحويل الأساطير إلى تاريخ «علمى، لم يكن بالأمر المألوف عند العقلية الإغريقية، وإنما كان فتحاً جديداً فى القرن الخامس قبل الميلاد أتى به هيرودوت^(٢).

وقد ولد هيرودوت فى هاليكارناسوس إحدى مدن الركن الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى التى كانت تتبع آنذاك دولة فارس، وزار كثيراً من أقاليم الدنيا فى قارتى آسيا وأفريقية، ثم فى أوربا أيضاً. ويهمنى أنه قام بزيارة مصر التى كانت خاضعة للحكم الفارسى، وقد تمت تلك الزيارة ما بين عامى ٤٤٨، ٤٤٥ ق.م.، وزار خلالها الكثير من مدن الدلتا، كما تجول فى الصعيد حتى الجندل الأول، وشاهد إقليم الفيوم. وقد خصص هيرودوت الجزء الثانى من كتابه الشهير لمصر فتحدث فيه عن

(١) محمد صقر خفاجة: هيرودوت يتحدث عن مصر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ٩ - ١١.

(٢) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٥٦ - ٥٨.

جغرافيا ومدنها، والحوادث التي مرت بها، وأعمال ملوكها ومظاهر حضارتها. ومن الغريب أنه قد أسهب في الحديث عن أهرام الجيزة ولكنه لم يشر مطلقاً إلى تمثال أبي الهول، كما أوجز هيرودوت إيجازاً مخلاً حينما تحدث عن طيبة، ولجأ إلى تدوين كل ماسمعه أو رآه أثناء إقامته بمصر دون تدقيق أو تمحيص، فجاء كتابه جامعاً الثمين والغث، حاوياً الكثير من الحقائق والأنباء الصادقة بجانب الكثير من المفتريات والأكاذيب والمزاعم التي لاتستحق ذرة من الثقة^(١).

وعلى الرغم من ذلك كان هيرودوت رحالة مطبوعاً على حب الاستطلاع والحرص على التزود من المعرفة، وكان يسأل ويستسفر ويجمع المعلومات والأخبار بمختلف الوسائل والطرق، ويحاول أن يتعرف على العادات والتقاليد والعقائد والأديان والقوانين والنظم، ولايكاد يفلت من اهتمامه الفاحص ونظرته الشاملة شيء، ويقوة عبقريته استطاع أن يضمن كتابه كل ما رآه بعينه وسمعه بأذنيه، في أسلوب جذاب، وعرض شائق، مما جعل كتابه من طرائف كتب التاريخ الخالدة^(٢).

وقد انتهز هيرودوت فرصة الصراع بين الفرس واليونان، وبين أوروبا وآسيا، أو بين الشرق والغرب، فأمكنه تدوين هذا الصراع في كتاب تجرد فيه عن الهوى والتعصب الجنسي. وفي هذا الكتاب تصدى هيرودوت لوصف الحضارات الشرقية، ولكم يكن معنيا بتاريخ الأقاليم المتحضرين فحسب، بل كان كذلك حريصاً على الوقوف على أخبار الأقاليم المتخلفين وعاداتهم وتقاليدهم، وهو لذلك لا يعد أباً للتاريخ فحسب، بل يعد كذلك أباً لعلم التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية (الأنثروبولوجي)^(٣).

(١) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٢٦. (٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ص ٤٩.

ومن معاصري هيرودوت ثيوكديدس (٤٥٦-٣٩٦ ق.م) الذي ركز كتابته حول موضوع واحد هو موضوع الحروب البلوونيزية، التي قامت بين أثينا وإسبرطة في الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، وبذلك جاءت كتابته ملمة بكل تفاصيل الموضوع، وفي أنه كان معاصراً معاصرة كاملة لما يكتب منه، بل إنه اشترك في بعض مراحل هذه الحرب كقائد من القواد الأثينيين اشتراكا مباشرا، كما كان على صلة بالأساسة الكبار الذين كانوا على رأس الفئات السياسية المتعارضة في أثينا، وعلى هذا جاءت معلوماته مباشرة إلى أبعد حد ممكن. وقد امتاز ثيوكديدس بأنه حلل الحوادث والمواقف والشخصيات تحليلا اجتماعيا ونفسيا عميقا، فكان بذلك أول مؤرخ يتبع المنهج العلمي التحليلي في كتابة التاريخ (١).

كان ثيوكديدس أقرب إلى روح المؤرخ الحديث من هيرودوت بتحرره من سرد القصص والاستطراد وتشدده في استبعاد الأساطير والخرافات وسخريته من التنبؤات والغيبيات حتى جاء عرضه علميا في غير جفاف، إذ استطاع أن يعوض عن الخيال دقة تصوير الواقع وما فيه من مآسى، وبذلك استبقى عنصر التشويق بعد أن احتفظ بالحقيقة المجردة الخالدة على مدى العصور، وبذلك لم يكن مجرد راوية وإنما يعد مبتكر التاريخ النقدي (٢). فقد كان لا يقبل الأخبار والروايات التي تصل إليه على علاتها، بل يخضعها لمقاييس النقد والموازنة ويستخلص منها ما يعتقد أنه أقرب إلى الصدق من غيره، وقد استعمل هذه الطريقة النقدية في جميع ما كتب فجاءت كتاباته، ومنها موضوعه عن حرب البلوونيز أقرب ما تكون إلى الطريقة الحديثة في التأليف التاريخي، بعكس أسلافه الذين كانوا أدباء أكثر منهم مؤرخين (٣).

(١) لطفى عبدالوهاب: اليونان، مقدمة التاريخ الحضاري (بيروت ١٩٧٩)، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) أحمد صبحي: في فلسفة الحضارة. الحضارة الإغريقية (الإسكندرية بدون تاريخ)، ص ١٢٤.

(٣) نور الدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ٩٨ - ٩٩.

أما آخر كبار المؤرخين اليونانيين فقد كان بوليبيوس (١٩٨ - ١١٧ ق.م) وهو نظير ثيوكديدس في تحرى الدقة العلمية، ولكن أسلوبه ليس سلساً مثل أسلوب هيرودوت أو ثيوكديدس، وكان ذلك من أسباب أن القراء لم يقبلوا على قراءته إقبالهم على قراءة الاثنيين الآخرين، وتاريخه محاولة لتناول امتداد الجمهورية الرومانية وتطور نظامها السياسى حتى سنة ١٤٦ ق.م. وكان أكثر تأكيداً من ثيوكديدس لمسألة أن المؤرخ المؤهل لكتابة التاريخ لابد أن يكون من كبار رجال الأعمال، ويفضل أن يكون قائداً سياسياً^(١).

وبوليبيوس يونانى الأصل والنشأة والثقافة، ولكنه قضى معظم حياته فى روما. ولد فى مدينة ميغالوبوليس بمقاطعة أركاديا، وبدأ حياته مجاهداً ضد سيادة روما على بلاده، ودعا إلى الاتحاد ضدها مخالفاً ما ذهب إليه معظم الزعماء من الرغبة فى الاندماج فى الدولة الرومانية. ولكنه سرعان ما خضع لمنطق الحوادث بعد أن انتصرت روما واستقرت فى يديها مقاليد الأمور، وانتقل إلى روما وشغل وظائف هامة، لاسيما أنه كان رجل حرب، كما هو رجل سياسة وتاريخ. وقام وهو فى روما بتثقيف طائفة من أبناء الأسر الحكمة. وقد أتاحت لهذه الصلة التعرف إلى كثير من رجال الدولة وكبار ساستها. وشغل فيما شغل وظائف التمثيل السياسى، فكثيراً ما كان يقوم بدور المبعوث السياسى إلى بلاد الإغريق، وإلى كثير من بلاد العالم المتمدين فى أوربا وأفريقية كمصر وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا). وقد أفادته هذه الأسفار فائدة محققة، وأتاحت له الوقوف على طائفة من نظمها السياسية وأخبارها وتقاليدها الاجتماعية. وكان يسترشد وهو يكتب بما شاهده من تجارب وحوادث، لاسيما وقد لمس بنفسه أهوال الحروب ومشاقها. وكانت حياته مليئة بالعبر والعظات،

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١، ص ٥٤، على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٣١.

فما كان يقنع بسرد الأخبار، ولكنه كان يتعمق في تحليلها، ويستنتج منها ما تنطوى عليه من علل وأسباب أصيلة. ويبدو أنه كان من أنصار النظرية القائلة بأن «التاريخ هو المدرسة الحقيقية للنظريات السياسية»^(١).

وكان بوليبيوس أقرب ما يكون إلى النزاهة في كتابة تاريخ الرومان واليونان. وبعد الجزء السادس من كتابه خير تحليل للمثل العليا السياسية الرومانية وأساليب الرومان في الحرب، وقد رأى أن العبقرية السياسية الرومانية قد تجلت في اتخاذ نظام للحكم يجمع بين النظام الملكي والنظام الديمقراطي. وكان بوليبيوس نافذ الرأي في الحكم على السياسات ودارساً متعمقاً للأحداث والشخصيات، وكان يؤكد قيمة المعرفة الجغرافية في استجلاء حقائق التاريخ وتقلباته، والتاريخ في نظره من الدراسات النافعة، ومعرفة الحقائق التاريخية المؤكدة قد تعين في تنظيم إدارة الحكم وتوجيه الأحوال العامة، وحل المشكلات العارضة، وتفريغ الأزمات المفاجئة^(٢).

وكان بوليبيوس أثناء سعيه جاهداً إلى البحث عن علل الحوادث وترابطها، قد تكشف له عدة نظريات في العلة التاريخية، مما حمله تدريجياً على أن يعدل تفسيره لسيادة روما على العالم. ففي أول الأمر بدا له أن الحظ أو الصدفة - وهي قوة علوية لا سبيل إلى التنبؤ بها - هي القوة الرئيسية الدافعة أو المحركة في التاريخ. فلما ازداد إعجابه بالرومان على مر الزمان، بدأ يعلل سيطرتهم العالمية بعوامل إنسانية كخصالهم القومية ونظمهم السياسية. وفي هذه المرحلة من تفكيره أشاد بالتوسع الاستعماري الروماني باعتباره نعمة على العالم، وتراءى له أن يشرح لبني قومه اليونان تفوق روما السريع وتبوأها مركز السيادة في العالم في غضون

(١) مصطفى الخشاب: تاريخ الفلاسفة والنظريات الساسية (القاهرة ١٩٥٣) م ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) بارنز: المرجع السابق، ج ١ ص ٥٤ - ٥٥، على أدم: المرجع السابق، ص ٣٢ - ٣٣.

مدة لاتزيد كثيراً عن نصف قرن (٢٢٠ - ١٦٨ ق.م)، وهو أمر لانظير له في التاريخ، وأن ينصحهم بعدم جدوى الاستمرار في مقاومة مثل هذه الدولة القوية^(١). وأخيراً امتد به الأجل ليرى بعينيه تفشى الفساد بين الطبقة الارستقراطية وتدهور هيئة السناتو، مما زعزع إيمانه باستقرار روما الدستوري. ومن ثم أصبح أقل محاياة للرومان، وعدل آراءه السابقة وارتد إلى نظرية الحظ أو القدر الآلية. ونجد ما يوحى باعتناقه فكرة الدورات التاريخية المتكررة فيما يتصل بحلقات التدهور في روما من حكم الارستقراطية إلى حكم الدهماء أو الرعاع^(٢).

وعلى أية حال، يعتبر بوليبيوس فريداً بين المؤرخين القدامى، لم يهدف إلى إنتاج مؤلف ذي صبغة أدبية، فاستبعد الصور البلاغية، ولم يدمج في تاريخه إلا عدداً قليلاً من الخطب. وقد عالج مادته التاريخية بطريقة علمية لانتقى بمثلها في ميدان التاريخ حتى القرن التاسع عشر الميلادي. وحلل أسباب الأحداث السياسية تحليلاً موضوعياً يدل على نظرته الواقعية، وخبرته العسكرية، وإمامه بجغرافية الأقاليم وتخطيط البلدان، واعتقاده بوحدة التاريخ المتكاملة، غير أنه كان كأغلب المؤرخين القداماء، يأخذ بنظرية نفعية التاريخ باعتباره سجلاً حاقلاً بالدروس العملية لرجال الحكم والساسة، وقد عنى مثلهم بإبراز دور الفرد في التاريخ.

كتابة التاريخ عند الرومان:

تأثرت كتابة التاريخ عند الرومان أثناء بلوغها مرحلة النضج تأثراً

(١) عبداللطيف أحمد على: مصادر التاريخ الروماني (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٥٧ - ٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

كبيراً بمبادئ ومناهج مؤرخى اليونان الذين كانت كتاباتهم نموذجاً حرص المؤرخون الرومان على احتذائه منذ البداية، ولذا نجد الرومان كاليونان يعتبرون التاريخ فرعاً من فروع الأدب. ولم يكن المؤرخون اليونان ومقلدوهم من الرومان - باستثناء عدد قليل منهم - علماء بقدر ما كانوا أدباء فنانين. ولم يخضعوا لمناهج البحث العلمى، بل لمعايير الذوق الفنى، وتصوروا التاريخ كأنه فرع من علوم البلاغة كالخطابة أو شيء من هذا القبيل. وكان صقل الأسلوب وتجانس العبارة عند كبار المؤرخين من أمثال سلوستيوس وليفيوس وتاكيوس غاية أسمى من تحرى الحقيقة، وفى ذلك يقول الخطيب الرومانى شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م): «نحن نسلم للبلاغيين بحق تشويه التاريخ حتى تكون روايتهم أشد وقعا فى النفس» (١). وقد ظهر بين الرومان مؤرخون لهم مكانتهم، ولكنهم لم يبلغوا مستوى ثيوكديدس أو بوليبيوس فى تحرى الدقة، وإخضاع المراجع للنقد الصارم والنظر الفاحص، ولم يستطع الوصول إلى أعظم المؤرخين اليونان أسلوباً سوى المؤرخين الرومانيين ليفيوس وتاكيوس (٢).

وأقدم المؤرخين الرومان الذين نسمع عنهم هو بكتور حوالى عام ٢٠٠ ق.م، وكتب حولياته عن روما باللغة اليونانية. وقد حذا حذوه كل المؤرخين الذين جاءوا بعده مباشرة ما عدا كاتو Cato (٢٣٤ - ١٤٩ ق.م) الذى ولد فى أسرة من العامة، وقد عرف بصراحته فى الرأى وجرأته فى الحق، وصلابته وصرامته وتزاهته وتطرف وطنيته. وأقد وضع تاريخاً باللاتينية فى سبعة كتب بدأه مثل بكتور من أسطورة أينياس الطروادى، وتأسس روما الذى يؤرخه كاتو بعام ٧٥١ ق.م.، بينما يؤرخه بكتور بعام ٧٤٧ ق.م (٣). وتلى ذلك العديد من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ روما

(١) المرجع السابق، ص ١١.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١، ص ٥٩، على أدم: تاريخ التاريخ، ص ٣٤.

(٣) عبداللطيف أحمد على: مصادر التاريخ الرومانى، ص ٦ - ٧.

المبكر حتى ظهر أساطين المؤرخين الرومان فى القرن الأول قبل الميلاد.

وكان أول مؤرخ كبير يبرز من صفوف الرومان هو يوليوس قيصر (١٠١-٤٤ ق.م) أبرز شخصية سياسية وعسكرية فى منتصف القرن الأول. فقد كتب أثناء حملاته مذكرات تعد خير ما كتب عن المذكرات فى العالم القديم، منها «مذكرات فى الحرب الغالية»، وهى عن سياسته وحملاته فى إقليم الغال (فرنسا الحالية)، وقد تضمنت تلك المذكرات وصفاً موجزاً عن أصل سلالات الجرمان وثقافتهم^(١). ولم يقصد قيصر بهذه المذكرات أن تكون تاريخاً للأحداث، بل مقالات سياسية للدعاية. وقد حاول أن ينشرها بسرعة لى يوطد بها نفوذه السياسى فى روما أثناء غيابه عنها، ويدافع عن سياسته العدوانية ضد الشعوب القاطنة وراء الألب. ويمتاز أسلوب قيصر بالرشاقة والوضوح والإيجاز، والبساطة والبعد عن التكلف والزخرف والتنميق، فهو من النوع السهل الممتع^(٢).

ويتصدر المؤرخ سلوستيوس (٣٤٨٦ ق.م) الكتاب الذين أرخوا لعصر الجمهورية الرومانية (٥٠٩-٥٧ ق.م). وقد ألف العديد من الكتب التاريخية أشهرها وأهمها كتابه فى التاريخ، وهو عبارة عن سجل لتاريخ روما فى الفترة بين سنتى ٧٨ و٦٧ ق.م، ولم يصلنا هذا الكتاب كاملاً بل وصلتنا بعض أجزائه. أما مؤلفاته التى وصلتنا كاملة فأهمها مؤامرة كاتيلينا، وهو كتاب يشرح فيه سلوستيوس المؤامرة التى دبرها كاتيلينا أحد النبلاء الرومان، عاش بين سنتى ١٠٩ و٦١ ق.م، ضد مجلس الشيوخ الرومانى والتي فضحها شيشرون. أما الكتاب الاخر من كتب

(١) Tayler (H.O.), The Mediaeval Mind _Vol. I. London, 1936, pp. 138-139;

محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ص ٨٤.

(٢) عبداللطيف أحمد على: مصادر التاريخ الرومانى، ص ٢٢.

سلوستيوس التي وصلتنا كاملة فهي كتابة عن الحرب ضد جوغورتا ملك نوميديا وهي مقاطعة رومانية في شمال أفريقية، الذي ثار ضد روما وتمكن القائد الروماني ماريوس القضاء عليه في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد^(١).

ويعتبر سلوستيوس فريداً بين المؤرخين الرومان الذين وصلتنا مؤلفاتهم في عزوفه عن طريقة الحوليات وإقباله على كتابة بحث مطول في موضوع واحد، وفي أخذه بمذهب ثيوكيديدس الواقعي ومقاييس بوليبيوس في معالجة مادته التاريخية. ومما يعاب على سلوستيوس عدم مراعاته التسلسل الزمني للحوادث، وعدم دقة معلوماته الجغرافية، وولعه بالموازنة بين الشخصيات^(٢).

وجاء مؤرخ تاريخ روما العظيم تيتوس ليفيوس (٥٩ ق.م - ١٧ م) Livius بعد سلوستيوس في فترة الانتقال من الجمهورية إلى الإمبراطورية. وقد ولد ليفيوس في بتافيوم (وهي بادوا الحالية)، ويعتبر من أعظم كتاب الحوليات الرومان إن لم يكن أعظمهم، وكتب تاريخ روما منذ تأسيس المدينة حتى سنة ٩ م، وهي مدة طويلة من الزمن عالجه بتفصيل وإسهاب. وتغلب على ليفيوس النزعة الأدبية، فهو أديب كبير قبل أن يكون مؤرخاً كبيراً. ولا يباريه أحد في تصوير الوقائع والأشخاص، وأسلوبه فخم رائع ويكشف عن دراية بالحيل البلاغية ويعتبر تاريخ ليفيوس ملحمة تشيد بأمجاد روما نثراً. وهو لا يهدف إلى التحري العلمي أو الاستقصاء الدقيق، بل إلى الإصلاح الخلقى عن طريق العبر المستخلصة من الماضي، وعن طريق إبراز الفضائل القديمة والبطولة

(١) نور الدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ١٢٦.

(٢) عبداللطيف أحمد علي: المرجع السابق، ص ١٤.

والتضحية الوطنية، والورع الدينى . ويؤخذ عليه عدم فهمه العميق للظروف الجغرافية والعلوم العسكرية والتيارات السياسية، ويعوزه قدر كبير من ملكة النقد، وفي كتبه الأولى يروى بإسهاب كثيراً من الأساطير الرومانية القديمة . ومهما وجه إلى ليفيوس من نقد، فإنه مصدرنا الوحيد عن كثير من الفترات في عصر الجمهورية، وهو الذى حدد إطار تاريخ الجمهورية الرومانية بالشكل الذى ظل محتفظاً به حتى بداية حركة النقد الحديث فى القرن التاسع عشر^(١) .

أما آخر المؤرخين الرومان الكبار فهو بوليوس كورنيليوس تاكيتوس (٥٥ - ١٢٠ تقريباً) Tacitus الذى رسم صورة رائعة عن حياة الشعوب الجرمانية وعاداتها وتقاليدها فى كتابه «جرمانيا، Germania» . وقد ألف تاكيتوس كتابه زمن الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) ، وهو أعظم وصف قام به مؤرخ قديم، تناول حياة الجرمان . والجدير بالذكر أن تاكيتوس لم يزر الجرمان فى مناطقهم الأصلية على حدود الإمبراطورية الشمالية، ولكن بوصفه من الطبقة الأرستقراطية، كان باستطاعته التحدث مع الجند العائدين من الجبهة، والاطلاع فى حرية على الوثائق الحمومية . وقد وضع كتابه بهدف عقد مقارنة بين البساطة المثالية فى المجتمع الجرمانى التى ذكرته بفضائل روما القديمة من ناحية، والتدهور والانحطاط الذى وصل إليه المجتمع الرومانى من ناحية أخرى، وحث مواطنيه الرومان على أن ينهجوا نهج الفضائل الجرمانية، وأن ينفذوا ما علق بحياتهم من مظاهر الانحلال والترف من ناحية ثالثة^(٢) . وقد عرف تاكيتوس بمتانة أسلوبه وبلاغته وقدرته الفائقة فى تصوير

(١) عبداللطيف أحمد على: مصادر التاريخ الرومانى، ص ١٥ - ١٦ .

(٢) إبراهيم طرخان: تاكيتوس والشعوب الجرمانية (القاهرة ١٩٥٩)، ص ١١ - ١٥، محمود

العورى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٨٤ - ٨٥ .

الشخصيات، وكانت تغلب عليه مراعاة الدقة في تحرى ما يروى من الأحداث، ولكن تغلب على كتاباته الدعاية الأخلاقية، والاكتفاء في تعليل الأحداث بالأسباب الداخلية.

ومن الجدير بالذكر أن اليونان القدماء والرومان قد نظروا إلى الزمان من خلال النظرية الدورية القائلة بأن الزمن يتجدد على دورات يحدث في كل منها ما سبق حدوثه من قبل (إعادة التاريخ نفسه كما يقال أحياناً). ووفقاً لوجهة النظر الدورية تحدث كل الحوادث الإنسانية في دورات. وقد تتغير الأسماء والتواريخ والأشخاص، ولكن في كل دورة يحدث ما سبق حدوثه في الدورة السابقة ولنفس الغرض (١).

وعلى أية حال، لم يكن للمؤرخين الرومان بوجه عام أصالة المؤرخين اليونان، وقد عالجوا الكتابة التاريخية متأثرين بطريقة المؤرخين اليونان في كتابة التاريخ ومتخذين قدوة ومثلاً. ومهما يكن في كتابة المؤرخين الرومان من عيوب، فإن كتاباتهم التاريخية أصبحت منهجا وأجدر بالثقة وأقل تأثراً بالأساطير والتعصب الديني من الكتابات التاريخية التي ظهرت خلال العصور الوسطى (٢).

(١) قاسم عبده قاسم: الروية الحضارية للتاريخ، ص ٣١.

(٢) بارنز: كتابة الكتابة التاريخية، ج١، ص ٦٣؛ على أدم: تاريخ التاريخ، ص ٣٨.

الفصل الثالث

كتابة التاريخ فى العصور الأوربية

كتابة التاريخ بعد ظهور المسيحية

كتابة التاريخ فى العصور الوسطى الأوربية الباكرة

تدوين التاريخ فى العصور الوسطى الأوربية فيما بين سنتى
٩٥٠ و١١٥٠م

تأثير الحروب الصليبية فى التدوين التاريخى فى العصر
الوسيط الأوربى

ظل اصطلاح العصور الوسطى يطلق على الفترة الممتدة بين سنة ٤٧٦م وهي السنة التي سقطت فيها الإمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى، وسنة ١٤٥٣م وهي السنة التي سقطت فيها القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فى أيدي المسلمين الأتراك، وهي فترة طولها ألف عام تقريبا. والواقع أننا لا نستطيع على وجه الدقة أن نضع حداً فصلا أو تاريخاً معيناً يؤكد نهاية عصر وبداية عصر آخر، لأن الأحداث التاريخية متداخلة بطبيعتها، وإن كانت هناك خصائص عامة لفترة الانتقال التي انسلخت خلالها ملامح العصور الوسطى من العصور القديمة، أبرزها انحلال المجتمع الرومانى، وتأسيس الممالك الجرمانية، واعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية واتخاذها ديانة رسمية، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠م. ويمكننا أن نلمس فترة الانتقال وتتبعها برجوعنا إلى الوراء عندمستهل القرن الرابع، دون أن نرتبط خلاله بسنة معينة نحدد بها مطلع العصور الوسطى. فالقرن الرابع يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التي كونت تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، وهي المسيحية والجرمان والإمبراطورية^(١).

كتابة التاريخ بعد ظهور المسيحية:

رغم أن الإمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع قد أصابها التفكك والانحلال فى جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، حتى بات من الواضح أنها تسير فى طريق الأفول، إلا أنها من ناحية العقيدة والحياة الروحية قد سلكت طريقاً مغايراً لذلك تماماً، فقد ازدهرت الحياة الدينية بأرجائها فى نشاط وحيوية بالغين، بشكل يطابق الحقيقة المعروفة فى التاريخ، من أن الناس فى أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية، يتجهون دوماً نحو القوى الروحية ويتعلقون بها، أملاً فى

(١) محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٤٩.

الخلاص والنجاة. ومن المعروف أن هذين القرنين شهدا انتشاراً سريعاً للديانة المسيحية، إلى جانب ما كان موجوداً من العبادات الوثنية.

وقد انتصرت الديانة المسيحية على الوثنية عندمات غيرت الإمبراطورية الرومانية موقفها من الديانة المسيحية تغييراً جذرياً باعتلاء قنسطنطين العرش، فقد أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م Edict of Milan اعترف فيه بوضع المسيحية على قدم المساواة مع بقية الديانات الأخرى المعترف بها داخل الإمبراطورية، وبذلك وضع مبدأ التسامح الدولي للأديان من الناحية الرسمية في التاريخ^(١). وعندما اعتلى ثيودسيوس الكبير عرش الإمبراطورية الرومانية (٣٧٨ - ٣٩٥م) جعل المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية.

وكان لانتصار الديانة المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى في كتابة التاريخ وفي الأفكار التي كان يسترشد بها المؤرخون، فقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان، واعتبرت الكتابات التاريخية التي أنتجها العصر الوثني أقل مستوى من الكتابات التاريخية المقدسة التي في التوراة، وحامت الشكوك حول قيمة التفكير العقلي الذي كانت له المكانة العليا عند اليونان، وأصبح للإيمان الديني المحل الأعلى، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محك الفضائل، ونبذت منجزات الفنانين والفلاسفة والشعراء والساسة والحكماء، وأخذت كتب اليهود المقدسة مكانة الأدب القديم، وأعرض عن شعر هوميروس ومؤلفات ثيوكديدس وبوليبيوس وغيرهم من مؤرخي العصر الوثني وكتابه وشعرائه. وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعاق تقدمها، وعلى الرغم من ذلك فإنه من غير الممكن التغلب على تأثير الثقافة الوثنية، وكثير من رجال الدين الأوائل كانوا يستعملون اللغة الوثنية، وقد تلقوا ثقافة وثنية قبل دخولهم في الديانة

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

الجديدة، ولذلك تأثرت مثلهم العليا السياسية وممارساتهم للشئون العملية
بالعناصر الوثنية^(١).

وأول طراز مسيحي واسع النطاق في التدوين التاريخي، فهو ذلك
الذي كتبه إيوسيبوس (حوالي ٢٦٠-٣٤٠م) أسقف قيصرية. وقد فرغ
من تأليف كتابه «التاريخ الكنسي، بالإغريقية سنة ٣٢٥م، ولم يلبث أن
ترجم إلى اللاتينية. وليس هناك مسيحي قبله تمكن من تطويع التاريخ
العالمي واستغلاله في الجدل مع الوثنيين، كما أن إيوسيبوس أطلق لنفسه
العنان لكي يروي قصة العناية الإلهية^(٢). ذلك أن النشاط الإنساني وفق
المفهوم الكنسي المبكر، تسييره دوماً «العناية الإلهية»، وما جميع أعمال
الإنسان إلا أدوات في تنفيذ المشيئة العلوية. هذا المفهوم عن العناية
الإلهية وثيق الصلة بمفهوم كاثوليكي آخر هو مفهوم «الإثم الأول،
لل بشرية، فمنذ أن سقط آدم في الجنة سقطته الكبرى، تولت عناية الله عن
بنى آدم توجيه كافة نشاطاتهم وأعمالهم. وعليه فإن عقلية العصور
الوسطى الكهنوتية قد أعفت الإنسان من مهمة صنع تاريخه، وترك الأمر
كلية للسماء، وذلك توافقاً مع التسليم الكاثوليكي «بالمقدر والمكتوب». .
ويجتهد كتاب العصور الوسطى في التذليل بحجج غريبة على أن
الإمبراطورية الرومانية ذاتها قد خلقت لتحقيق غاية علوية، وعندما
تؤدى الغرض الذي كان عليها أن تقوم به، تؤذن السماء بزوالها^(٣).

ومن المعروف أن إيوسيبوس كان صديقاً مقرباً إلى الإمبراطور

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ص ٦٦؛ على آدم: تاريخ التاريخ، ص ٣٩ - ٤٠.
(٢) بيريل سمالي: المورخون في العصور الوسطى، ترجمة د. قاسم عبده قاسم (القاهرة
١٩٨٤)، ص ٤٤ - ٤٥.
(٣) إسحق عبيد: معرفة الماضي من هيرودوت إلى تويلبي، ص ١٨.

قنسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧)، ولذلك أسرف في كتاباته عن الإمبراطور، ووضع كتاباً عنه سماه «حياة قنسطنطين»، عرض لمآثره وأباده البيضاء على الكنيسة، واعتبره مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ المسيحية من محنتها، ومن ثم أضفى على أعماله وسياساته وصراعاته مسحة من تأييد مقدس يلهمه الرشاد ويكتب له الظفر والنجاح.

وكان لفلسفة التاريخ التي أوردها القديس أوغسطين (١) (٣٥٤-٤٣٠) في كتابه «مدينة الله»، أثر كبير في تاريخ الفكر المسيحي، ولم يكن أوغسطين يهدف إلى كتابة رسالة أكاديمية عن فن تدوين التاريخ. وإنما قصد بالأحرى تفسيراً من وجهة النظر المسيحية لسقوط الإمبراطورية

(١) القديس أوغسطين آخر آباء الكنيسة العظام، بل وأعظم مفكري عصره على وجه الإطلاق، الذي لازال ظله يخيم على الكيستين الكاثوليكية والبروتستانتية. ولد سنة ٣٦٥م في تاجستا شرقي نوميديا (سوق الأخرس في الجزائر حالياً)، من أب وثني، وأم مسيحية، ونال قسطاً وافراً من التعليم، وأجاد اللغة اللاتينية، ودرس القانون في قرطاجنة، ثم تركه بعد ذلك إلى البلاغة، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره، غادر قرطاجنة إلى روما، وهناك تلوث بشبابه بالزنازل التي تحدث عنها في صراحة تامة، حتى أنه رفض اختيار زوجة له، وفضل أن يتخذ له عشيقاً، عاش وفيها لها حتى افترقا في عام ٣٨٥م، وقد أنجبت منه طفلاً. وإذا كانت حياته الخاصة سارت على هذا المنوال، إلا أن حياته العقلية كانت على النقيض تماماً، فقد ساقته تلك الحياة إلى الفلسفة الوثنية ولكنها لم تشبع حاجته، فتحول عنها إلى الأفلاطونية المحدثة، ثم استهوته تعاليم المانوية، ويلاحظ أن رحلة الشك هذه لم تصل به إلى الحقيقة المنشودة. وفي عام ٣٨٣م استمع أوغسطين لعظات القديس إمبروز كبير أساقفة ميلان، فأثار اهتمامه شرح العهد القديم، واشتد تأثره بالمسيحية تأثراً أرضى عاطفته الدينية، وخلصه من موجة الشك العارم التي كانت تجثم على صدره. وفي عام ٣٨٧ عمده إمبروز، وعزم العقد على تكريس حياته لخدمة الدين المسيحي، فلما وصل إلى أفريقية باع ما تركه له أبوه من ميراث صغير، ووزع ثمنه على الفقراء. وفي عام ٣٩١ اختير أسقفاً لمدينة هبو (بونا الحالية في الجزائر)، وظل يشغل ذلك المنصب، في الوقت الذي واصل فيه كتاباته اللاهوتية حتى توفي سنة ٤٣٠ أثناء الحصار الذي فرضته جماعات الوندال الجرمانية على تلك المدينة. وقد وصلتنا من أوغسطين كتب ومقالات كثيرة في مختلف الموضوعات الدينية والسياسية من أهمها كتاب «الاعتراف». أنظر محمود الحويري: سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٧٦.

الرومانية في الغرب^(١). وقد دفعته الكارثة التي حلت بمدينة روما على يد القوط الغربيين بقيادة ملكهم أاريك سنة ٤١٠م إلى تأليف هذا الكتاب، فقد أذاع الوثنيون في كل مكان من الإمبراطورية أن المسيحية هي سبب ما حل بالمدينة من تخريب ودمار. وأحس أوغسطين بتزعزع الثقة في قلوب الناس من جراء تلك الكارثة، فذكر أن ما حل بروما لم يكن إلا عقاباً لها على ما ارتكبه من آثام وشرور كامنة في ثنايا الآلهة وتقاليدها. ولم يجد صعوبة في إثبات أن كثيراً من المدن والإمبراطوريات قد انحلت وسقطت قبل مجيء المسيحية بزمن طويل. وقد ذكر أوغسطين في كتابه أن هناك مدينتين موجودتين معا: مدينة الأرض ومدينة الله، الأولى من صنع البشر تفنى كما يفنى جسم الإنسان، أما مدينة الله فإنها أبدية تدوم مع الروح، وإذا جاز أن تتحطم مدينة الإنسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لا تزال بخير، أضف إلى هذا أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة، على حين أن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه، وفي وسع الكنيسة أن تكون هي بعينها مدينة الله^(٢).

وقد يمكن تبعاً للنظرة الكلاسيكية (الإنسانية القديمة) في تدوين التاريخ تطبيق النظرية الدورية، على مشكلة اضمحلال الإمبراطورية وإقامة البرهان على أن الطور المنحدر للدورة قد جاء، وأن العالم سيشهد تصدعاً وانهياراً عن كثر، وأن التاريخ سيبدأ من ثم بعد ذلك دورة جديدة، وقد يقنع هذا التفسير بعض الوثنيين^(٣). والجدير بالذكر أن علماء اللاهوت المسيحيين قبل أوغسطين لم يستطيعوا التحرر من ريقه النظرية

(١) على الغمراوي: موضوعات في الثقافة الأوربية في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٢)، ص ١٩.

(٢) أنظر محمود الحويدي: المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) على الغمراوي: موضوعات في الثقافة الأوربية في العصور الوسطى، ص ٢٠.

الدورية اليونانية في التاريخ، حتى أن أوريجين السكندري (حوالي ١٨٥ - ٢٥٤) أكبر علماء اللاهوت بين آباء الكنيسة الشرقية قد أحرز مكانته هذه بفضل صياغته لهذه النظرية في ثوب مسيحي، اعتماداً على العبارة القائلة «فليس تحت الشمس بجديد»^(١). وقد سبقت الإشارة إلى أن أوغسطين هو أول من أدرك بوضوح خطورة النظرية الدورية ورفض الأخذ بها، فالمسيح شخص تاريخي مات مرة واحدة، وقام مرة واحدة، وهل يمكن لأحد أن يتصور أشخاصاً لامتناهين من المسيح يموتون ويقومون خلال كل دورات الزمن، فالإيمان المسيحي لا يقدم أمثلة متكررة، وإنما تطوراً أكيداً غير مطرد إلى هدف واحد نهائي. فالتاريخ له بداية محددة هي خلق العالم ونهاية محددة بيوم الدينونة ويشمل الجنس البشري أجمع. فوجهة النظر المسيحية تتطلب إذاً تاريخاً عالمياً يكشف عن العناية الإلهية Providentia فيما يتعلق بمصير البشرية^(٢). ولاشك أن أسئلة كثيرة هامة واجهت أوغسطين في «مدينة الله»، ولم يقتنع هو نفسه بما أورده من حجة الرد على الوثنيين، وأسلم لمساعدته القس أوريوس الأسباني (٣٨٠-٤٢٠) Orosius Hispanus مهمة كتابة تاريخ مفصل عن الكوارث التي حلت بالعالم الروماني في ظل الوثنية ليدحض به مزاعم الوثنيين. وبناءً على ذلك ألف أوريوس تاريخه الذي أسماه «سبعة كتب ضد الوثنيين، ضمنه نظرية أوغسطين عن العناية الإلهية في التاريخ»^(٣).

وعلى أية حال، لم يتبع المؤرخون المسيحيون القواعد التي سار عليها ثيوكلدس وبوليبوس في التحقيق والتثبيت، وظهر تعصبهم الشديد ضد الوثنية، وهو أمر أدى إلى إغراءهم عن الموضوعية، ورأوا أن تناول

(١) المرجع السابق، ص ٢١، قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٣٤.

(٢) على الغمراوي: موضوعات في الثقافة الأوربية، ص ٢١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠.

المسائل الخاصة بالخلق كما وردت في التوراة واتخاذ موقف الناقد فيها كما حدث إزاء الأساطير اليونانية يعد خروجها على العقيدة. ولذلك كانت الكتب الدينية تفسر تفسيرات تتضمن الإشارة إلى المعانى الخفية التي تشتمل عليها تلك الكتب الملهمة، وكان هذا الاتجاه بديلا عن التحليل النقدي السابق اتباعه في المنهج التاريخي، واتبعت هذه الطريقة في تفسير الوثائق التاريخية، وقسم التاريخ قسمين هما: تاريخ ديني مقدس وتاريخ دنيوي، وتتبع في تفسير التاريخ المقدس طريقة التفسير الرمزي لما يصعب تصديقه أو يتعذر فهمه..على أنه من الإنصاف هنا أن نشير إلى أن أسباب تأخر التفكير التاريخي لا يرجع إلى تمكن السيطرة الدينية فحسب، فإن عصر الإمبراطورية الرومانية المتأخرة كان عصر تخلف فكري عام، وقد كان لهذا التخلف تأثيره في الكتاب الوثنيين والكتاب المسيحيين على السواء (١).

كتابة التاريخ في العصور الوسطى الباكورة:

قامت حضارة أوروبا في العصور الوسطى على ثلاث قواعد هامة: أولها الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، وثانيها نمو الديانة وسرعة انتشارها، وثالثها الشعوب الجرمانية المتأخرة.

وكانت الكتابة التاريخية في العصور الوسطى الأوربية في أيدي رجال الدين، ويغلب عليها السمات الدينية، وكان الكثيرون من كتاب التاريخ في تلك العصور ينتقصون سعة الإطلاع الكلاسيكي أو اللاهوتي التي كانت طابع المؤرخين في العهد المسيحي المتقدم، وكان هؤلاء المؤرخون أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحرى والتدقيق

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ٦٨ - ٦٩، على أدم: تاريخ التاريخ، ص ٤٠.

فى قبول الأخبار ورواية الأحداث، ولم يكن هناك ما يحول دون تزييف الحقائق وإزهاق الأباطيل مادامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر، وتؤيد معتقداً من المعتقدات الشائعة^(١)، كما سدرى فيما بعد. وفى تفسير الأحداث التى وقعت أو كانت تقع فى العصر الأوربى الوسيط نجد دائماً التفسير الرمزى والمجازى، فكل الأحداث إنما هى من فوق، والكوارث إن هى إلا شرور لتقديم الموعدة والدرس، والهزيمة سببها البعد عن الله، كما وأن القديسين ينزلون من السماء للحرب فى صف الصليبيين، والسماء تسخر لخدمة الفرنجة، إلى آخره من التصورات الغيبية^(٢).

ومن المناسب هنا أن نبين الصعاب التى اعترضت الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى. فقد عمت الفوضى وخيم الظلام بعد انهيار الحضارة الرومانية، وخمدت الحركة الفكرية، وساد الجهل والتخلف، وكان التعصب الدينى الضيق من دواعى ضياع كثير من الكنوز الأدبية التى خلفها العصر الوثنى، وهو الأمر الذى يظهر واضحاً فى حريق مكتبة الإسكندرية الشهيرة^(٣). وكان السفر باهظ التكاليف وغير مأمون العواقب، ولذلك صارت الثقافات محلية ضحلة، وأصبح الرهبان هم الطبقة المتعلمة الوحيدة فى أوربا العصور الوسطى، أما العلمانيون فكانوا

(١) بارنز: المرجع السابق، ج ١ - ٨٣ - ٨٤، على أدهم: المرجع السابق، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ٤٢.

(٣) ارتبط باستيلاء العرب على الإسكندرية سنة ٦٤١ م موضوع حريق مكتبة الإسكندرية الذى نسبه بعض المؤرخين إلى عمرو بن العاص. وقد وضع نواة تلك المكتبة بطليموس الأول مؤسس دولة البطالمة، ثم تعهدا برعايته بطليموس الثانى حتى غدت أعظم المكتبات فى العالم القديم. ومن المؤرخين من أيد اتهام عمرو بن العاص بإحراق المكتبة وحشد الأدلة الخاطئة بغرض تشويه سمعه الإسلام وحضارته، ومنهم من أنكرها تماماً مثل المؤرخ بتلر. أنظر: محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٩٦) ص ٦٨٦٥.

أميين لا يعرفون القراءة والكتابة. وكان حرص بعض المؤرخين على الولاء لبعض الأسر والأمراء أصحاب السيطرة والنفوذ يجعلهم أكثر اهتماما باسترضاء السادة حماتهم والذين يتفيتون ظل رعايتهم منهم بالحرص على الحق التاريخي، والمؤرخون في العصر الحديث يكتبون للرأى العام، ولكن في العصر الوسيط كانت معظم الكتابة التاريخية للإشادة بتاريخ أنصار الأدب وحماته من الأمراء والأعيان، أو لنصرة جماعة من الجماعات، أو تأييد مذهب من المذاهب الرائجة (١).

وانعكست هذه الاتجاهات في الكتابة التاريخية في الفترة الممتدة من عصر ثيودوريك العظيم ملك القوط الشرقيين في إيطاليا (٤٨٩-٥٢٦) إلى عهد الإمبراطور شارلمان (٧٦٨-٨١٤)، وظهر مؤرخون عبروا في كتاباتهم عن بقايا الطابع الكلاسيكي والآخذ في الزوال، مثلما عبروا عن الاتجاهات الدينية والسياسية التي سادت مجتمع العصور الوسطى المبكر (٢).

وأول هؤلاء المؤرخين كاسيودورس (٤٩٠-٥٨٥) Cossiodoras، وقد تمتع بمكانة عالية عند ثيودوريك ملك القوط الشرقيين، وشغل منصباً هاماً في بلاطه. وقد عالج كاسيودورس في كتاباته التاريخ والسياسة واللاهوت والنحو، على أن أكثر أعماله التاريخية أهمية وذيوعاً بين الناس، هو كتابته «تاريخ القوط» Historia Gothorum، لأنه يعالج تاريخ القوط منذ البداية حتى موت الملك ثيودوريك سنة ٥٢٦م، ويقع في إثني عشر جزءاً، وليست هناك نسخة أصلية كاملة باقية من هذا الكتاب، وكل

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١، ٦٥ - ٨٦، على أدم: تاريخ التاريخ، ص ٤٢ - ٤٤.

(٢) بارنز: المرجع السابق، ج ص ٨٧.

ما نعرفه من معلومات مستمد من الملخص الذى وضعه المؤرخ المرموق جوردان^(١) فى القرن السادس الميلادى .

فإذا ما إنتقلنا للحديث عن المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس (٥٠٠-٥٦٥) الذى سجل حروب الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥) ، نجد أنه فى سنة ٥٢٧ عين سكرتيراً للقائد الشاب القدير بليزارىوس، ورافقه فى حملاته العسكرية ضد الفرس، والوندال فى أفريقيا، والقوط الشرقيين فى إيطاليا، ومن ثم فإن كتاباته جاءت كتابات شاهد عيان . هذا إلى أنه فى كتاباته كان متحيزاً للإمبراطورية البيزنطية، كما كان شديد الإعجاب بالقائد بليزارىوس، ومؤمناً برسالة روما الجضارية، ويأن الإمبراطورية البيزنطية هى التى تنهض بمهمة إتمام هذه الرسالة^(٢) . وتعتبر كتب بروكوبيوس عن الحروب هى أروع أعماله بلا جدال، ومن بين الخصائص التى ساهمت فى علو مكانة كتبه عن الحروب، كانت الطريقة الموضوعية التى عرض بها مادته التاريخية . فقد أظهر قدراته على الملاحظة، ومعرفته لأنواع الأسلحة والنظم والترتيبات الحربية، ومهارته فى وصف مظاهر الطبوغرافيا، والأحوال المشابهة التى مكنت القارئ من متابعة قراءة سرده للأحداث التاريخية . بذهن متقد^(٣) . ولكن بروكوبيوس فى كتابه المشهور الذى سماه «التاريخ السرى» الذى دون فيه مذكراته وملاحظاته، عما كان يراه، قد جبل على التهويل والمبالغة أكثر مما جبل على تقرير الحقيقة والواقع . فقد وصف جستنيان بأنه رجل نهم ينقاد إلى شهواته وملذاته الخاصة، ويعيش فى حفلات مستمرة يملؤها الفسق والدعارة . ولم تكن ثيودورا - زوجة جستنيان - أكثر من امرأة

(١) على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الوسيط، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ٨٩ .

(٣) جوزيف داهموس: سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى، ص ٣٢ - ٣٣ .

عاهرة، وأمدنا في ملفه بكثير من التفاصيل المخزية من سلوكها. وقد ظل هذا التاريخ مصدراً رئيسياً لعصر جستنيان إلى أن وفق المؤرخون أخيراً إلى المقارنة بين ما يقوله بروكوبيوس وما ذكره غيره من الكتاب، وما هو موجود في الوثائق والنصوص التاريخية، وبالتحليل التاريخي الدقيق أمكن إثبات بطلان معظم التهم التي وجهها بروكوبيوس إلى جستنيان وثيودورا وغيرهما من أولى الأمر في عصره^(١).

ومن المؤرخين الهاميين في تلك الفترة جريجوري أسقف مدينة تور (٥٣٨-٥٩٤) الذي ينتمي من ناحية أبويه إلى إحدى العائلات النبيلة المتميزة التي كان لها تقاليد قديمة في خدمة الكنيسة والدولة، وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين في عام ٥٧٣ أصبح أسقفاً لمدينة تور، وظل في منصبه حتى وفاته في سن الخامسة والخمسين في ١٧ نوفمبر ٥٩٤م^(٢). وقد كتب جريجوري أهم مؤلف عن تاريخ الفرنجة في ذلك الدور الحاسم الذي غزوا فيه غاليا (فرنسا الحالية)، وسماه «تاريخ الفرنجة». وعندما يقرأ المرء تاريخ الفرنجة تتضح شخصية جريجوري، فقد كان فخوراً بأقاربه المميزين أصحاب النفوذ، ولكنه كان أعظم الرجال تواضعاً، فمن النادر ما كان يشير إلى نفسه. ونلاحظ أنه عندما شرع في الحديث عن ملوك الفرنجة الأوائل، رجع إلى مصادر كانت مفقودة لدينا، فأخذ مادة وفيرة من أورسيوس وأبوليناريس (٤٣٠-٤٨٨ تقريباً) وغيرهما^(٣). وقد اعتمد جريجوري في معظم ما كتب على مصادر أصلى، استطاع بحكم مركزه أن يطلع عليها لأنه كان من رجال الكنيسة ذوى المكانة والنفوذ. كما كان صديقاً لكبار رجال الدولة من غير رجال الدين. وعلى الرغم

(١) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٧٢-٧٣.

(٢) Gregory of Tours The Hist. o the Franks, tr. by Le-wis Thorpe, (London, 1974), PP 7-9.

Ibid., PP. 14-28.

(٣)

من أن كتاب جريجورى التورى جاء مليئا بالخرافات والمعجزات والكرامات المقدسة، إلا أنه يعطينا الصورة الوحيدة والكاملة تقريبا عن أصل الثقافة الميروفنجية، التى جاءت نتيجة للمزج بين الثقافات الغالية الرومانية من ناحية، والفرنجية من ناحية أخرى (١).

أما إيزيدور الإشبيلي (حوالى ٥٧٠-٦٣٦) Isidorus Hispalensis فقد كان ينتمى إلى عائلة رومانية عريقة رحلت من شمال أفريقية إلى أسبانيا فى أوائل القرن السادس. والحقيقة أن إيزيدور يعد واحداً من أهم الرجال الذين يمثلون حلقة الوصل بين الثقافة القديمة وثقافة العصور الوسطى، بل إن المستوى المتدنى الذى كتب به إيزيدور مؤلفاته يعتبر من المؤشرات التى تشير إلى البداية الحقيقية للعصور الوسطى، وله مؤلفات كثيرة منها المؤرخات الكبيرة، وتاريخ القوط الغربيين، وتاريخ الوندال (٢).

وفى خلال تلك الفترة الانتقالية - من ثيودوريك إلى شارلمان - ظهر كتاب المؤرخ «بيده» (٦٧٢-٧٣٥) Bede وعنوانه «التاريخ الكنسى فى إنجلترا»، ويحوى هذا الكتاب معلومات قيمة حول تاريخ وانتشار المسيحية فى إنجلترا، وانتشار الثقافة الأنجلو ساكسونية فيها. واعتمد «بيده» على البحث الدقيق، فقرأ معظم المصادر الهامة المكتوبة، وكان أميناً فى كلامه عن طبيعة المصادر التى رجع إليها (٣). ولازال هذا الكتاب يحتفظ بقيمته وحيويته لقراء العصر الحالى، رغم مرور فترة تزيد عن إثني عشر قرناً على تأليفه، واكتسب به «بيده» شهرة واسعة ولقب

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ٨٩ - ٩٠.

(٢) على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبى الوسيط، ص ١١١ - ١١٢.

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ٩١ - ٩٢.

أبو التاريخ الإنجليزي،^(١). وقد تأثرت كثير من كتب التاريخ التي دونت بعد ذلك في العصور الوسطى تأثراً كبيراً بكتاب «بيده»، وإسمه «تقييم العصور»، وهو الكتاب الذي قسم فيه تاريخ العالم إلى ستة عصور تبدأ بخلق الكون، وتستمر حتى سنة ٧٢٩ ق.م.^(٢).

على أن الصورة الوضاعة للكتابة التاريخية في إيطاليا اللومباردية، تتمثل في شخصية بولس الشماس، المعروف بهذا الإسم، هو بولس بن وارنفرد Warnefrid+ لومباردى الأصل، ولد في أسرة عريقة حوالى عام ٧٣٠م، ونال قسطاً طيباً من العلم والثقافة في البلاط الملكى فى باثيا على أيدي أستاذه النحوى فلافيانوس، ودرس الآداب اللاتينية واليونانية التي أهله لشغل المناصب العلمانية السامية^(٣). ولما بلغ حوالى منتصف عمره ارتدى مسوح الرهبان، فالتحق أولاً بدير كيفاتى بالقرب من ميلان، ثم تحول عنه حوالى سنة ٧٧٩م، أى بعد أن شهد سقوط دولته بخمس سنوات، إلى دير مونت كاسينو الشهير على النظام البندكتى^(٤). وبعد أن

(١) Rede, A Hist, of the English Church and People (London. 1968). tr. by Leo Sherley- Price, PP. 24 - 25.

(٢) بارنز: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٣) Paul the Deacon, Hist. of the Lombords, tr. by William Dudley Foulk, ed. by Edward Peters (U.S.A, 1974), PP. XI - XII:

محمود الحويرى: اللومبارديون فى التاريخ والحضارة (القاهرة ١٩٨٦) ص ٢٢٧ - ٢٢٨. (٤) يلاحظ أن الحركة الديرية فى إيطاليا لم تتقدم فيها حتى القرن السادس الميلادى، ولكن الوضع أخذ يتغير فى هذا القرن نتيجة لجهود ثلاثة رجال أعطوا الحركة الديرية بإيطاليا روحاً جديدة، وطابعاً غربياً. ومن بين هؤلاء القديس بندكت (حوالى ٤٨٠ - ٤٥٣)، فهو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى الذى عرف باسمه والذى جعل الديرية الإيطالية تحتل مكان الصدارة فى الغرب الأوربى، كما تمتع النظام البندكتى لأول مرة فى تاريخ المنظمات الديرية بتأييد البابوية وعطفها. وقد اختار بندكت مكاناً مناسباً فى مونت كاسينو فى منتصف الطريق بين روما وناپولى، واتخذ موطناً لإقامة ديره. وكان النظام البندكتى يقوم على ثلاثة أركان أساسية هى إنكار الذات والطاعة والعمل. وإذا كانت العبادة هى الركن الأول من أركان الحياة الديرية، إلا أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركان هذه الحياة. أنظر: سعيد عبدالفتاح عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، ج ١ (القاهرة ١٩٧٥)، ص ١٦٥ - ١٦٩.

قضى به بضع سنوات، وكان قد أصبح وقتئذ عالماً مرموقاً، قام بزيارة إلى مملكة الفرنجة في عام ٧٨٣، ليستعطف شارلمان من أجل أخيه الذي اشترك في ثورة ضد العاهل الفرنجي، وقد جرى استقباله في البلاط الفرنجي بمظاهر الود والحفاوة، وأجابته شارلمان إلى طلبه. ولاشك أن خبرة بولس بمراسيم البلاط في باثيا وبنفنتوم فضلاً عن مواهبه الأدبية المتميزة، قد تركا انطباعاً رائعاً في نفس شارلمان، الذي كان محاطاً آنذاك بمجموعة من العلماء والباحثين من داخل مملكته وخارجها، ومن هؤلاء بطرس البيزى، الذي قدم إلى بلاط شارلمان من إيطاليا، وألكوين من إنجلترا، وثيودلف القوطى الغربى من أسبانيا، وديكويل من إيرلندا، وغيرهم، وذلك في الفترة الواقعة بين سنتى ٧٧٥ و٨٠٥ (١). على أن بولس الشمس لم يمكث طويلاً في مملكة الفرنجة، إذ بعد أن قضى بها خمس سنوات رغب في العودة إلى وطنه، فغادرها عائداً إلى دير مونت كاسينو في سنة ٧٨٦، حيث ظل مقيماً به إلى أن توفى حوالي سنة ٧٩٩. ولاشك أن أعظم أعماله التي تبقت لنا مع الأيام، هو كتاب «تاريخ اللومبارديين» *Historia Langobardroum* الذى لولاه لما وقفنا إلا على القليل من أحداث اللومبارديين، ولانبالغ إنه لولاه أيضاً، لما عرفنا عن أحداث مراحل تاريخهم إلا أقل القليل. وقد عكف بولس على تدوين تاريخ قومه في أخريات سنى حياته بدير مونت كاسينو، حيث عالج فيه أحوالهم منذ رحيلهم من ساحل البحر البلى حتى وفاة الملك لبوتبراند سنة ٧٤٤م، ولو كان قد أعطى فسحة طويلة من العمر، لأمكنه أن يواصل كتابة قومه، ذلك أنه للأسف، وقف عند نقطة صارت الأحداث عندها معاصرة له (٢).

Paul the Deacon, Op. Cit., p. xii.

(١)

(٢) محمود الحويرى: اللومبارديون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٢٨ - ٢٣٠.

ومن أبرز مؤرخى فترة العصر الوسيط الأوربي الباكر الكوين (٧٣٥ - ٨٠٤) Alcuin، ولد فى مدينة يورك فى إنجلترا، وتلقى تعليمه فى مدرستها الشهيرة، عن الأساتذة الذين تتلمذوا على «بيده» الجليل. وارتحل مرات إلى الغال (فرنسا) ولومبارديا للحصول على الكتب والمدرسين، وظهر فى بلاط شارلمان فى إحدى سفراته، ولا بد أنه حدث هذا فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٦٠ و ٧٨٠. وفى سنة ٧٨١م اجتمع الكوين مع شارلمان مرة أخرى فى بارما، وفى هذه المرة انتزع شارلمان من الكوين وعداً بأن يحصل على إذن من رؤسائه، كيما يقوم بزيارة طويلة إلى بلاطه فى آخن. وفى سنة ٧٨٢م وفى الكوين بوعدده، ففارق موطنه الأصلي، ولم يزره بعدئذ إلا مرات قليلة (١). وعلى الرغم من أن شارلمان غمر الكوين بالضياح الوفيرة، فإنه لم يرغب أو يقبل أن يشغل وظيفة رسمية، وبقي شماساً حتى وفاته، وانصرفت جهوده إلى أعمال الكتابة والتشريع والتعليم. وفى سنة ٧٨٦م انسحب الكوين من البلاط إلى دير القديس مارتن فى تور، ولم تجد المساعى فى إغرائه بالعودة إلى القصر، ومنذ ذلك الحين حتى سنة ٨٠٤ عندما أصابه الشلل، عاش حياة شديدة الزهد والتأمل (٢). وتكمن أهمية الكوين فى أنه نقل النهضة العلمية المزدهرة فى إنجلترا إلى القارة الأوربية.

ومن أبرز المؤرخين فى تلك الفترة إينهارد (حوالى ٧٧٠ - ٨٤٠) Egnihard، ولد فى وادى نهر المين، وتلقى تعليمه فى دير فولدا الذى كان المركز الرئيسى للتعليم فى الأراضى الفرنجية. وفى سنة ٧٩١ أو ٧٩٢ أقنع رئيس دير شارلمان بإحاقه ببلاطه، وكان شارلمان قد شيد مدرسة القصر وأسند رئاستها إلى العلامة الكوين. وبعد وصول إينهارد

(١) ديفز (هـ. و. كارلس): شارلمان، ترجمة د. الباز العرينى (القاهرة ١٩٥٩)، ص ١٤٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٢.

إلى بلاط شارلمان تقاعد ألكوين في دير القديس مارتن في تور كما ذكرنا، ومما يدل على أهمية إينهارد أن شارلمان طلب إلى ألكوين أن يلقي الضوء على سؤال حول الكلاسيكيات، فأشار عليه ألكوين بالرجوع إلى إينهارد في هذا الصدد. وعلى الرغم من أن إينهارد كان مستشارا وصديقا لشارلمان وعلى علاقات طيبة معه، بدليل أنه أرسله سفيراً في بعض الأمور المتعلقة بالدولة، إلا أنه لم يحتل منصباً عالياً في حياة شارلمان^(١). ولكن بعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤، صار إينهارد مقرباً إلى ابنه لويس التقى، وعينه سكرتيراً خاصاً له، وأسبغ عليه ألقاب الشرف والتكريم. وفي سنة ٨٢٨ انسحب إينهارد من البلاط عندما اشتد النزاع بين لويس وأبنائه وعاش في هدوء حتى وفاته سنة ٨٤٠م. وقد كتب إينهارد بعض الأعمال يأتي على رأسها كتاب «حياة شارلمان»، وضعه في أسلوب لاتيني منمق، وعلى الرغم من أنه لا يخلو من عيوب في تفسير مصادره، إلا أنه يعتبر وثيقة تاريخية هامة لاغنى عنها لمن يتناول سيرة شارلمان وتاريخه^(٢). فقد كشف ذلك الكتاب الكثير من جوانب حياة شارلمان الشخصية، من ذلك أن إينهارد روى أن سيده اعتاد أن يستمع إلى الموسيقى أو القراءات التاريخية أثناء تناول الطعام، ومن أنه عرف القراءة، ولكنه لم يتعلم الكتابة ولم يتقدم فيها بدرجة محسوسة، لأنه بدأ يتعلمها في وقت متأخر. ويبدو من كتاب إينهارد أنه لم يقتصر على معالجة جانب دون آخر من عصر شارلمان وشخصيته مثل غيره من كتب السير القديمة، وإنما كان عرضاً طريفاً جامعاً لشتى المعلومات عن النظم الإدارية والحكومية والأحوال الاجتماعية.

(١) Einhard, The life of Charlemagne, with a farward by sidney pinter (U.S.A., 1959), pp. 9 -10.

Ibid., p. 10.

(٢)

تدوين التاريخ فى العصور الوسطى الأوربية فيما بين سنتى ٩٥٠ و١١٥٠م:

توقف التدوين التاريخى، باستثناء الحوليات، فى أوربا فيما بين
أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى. ويرجع السبب فى ذلك
إلى الحروب التى مزقت الإمبراطورية الكارولنجية، وغارات الفيكنج (١)
والهنغاريين والمسلمى، جعلت التأليف الأدبى أمراً صعباً (٢).

وظهرت أنماط جديدة من التدوين التاريخى تلبية للاحتياجات
الجديدة. وكانت الحوليات Annals هى أكثر أشكال التدوين التاريخى فى
العصور الوسطى بدائية (٣). وطريقة الحوليات هذه كانت الطريقة المتبعة
فى مصر القديمة وبابل، وقد ظهر هذا النمط من الكتابة التاريخية فى
أوائل العصر الكارولنجى - الذى بدأ سنة ٧٥٢ بعد القضاء على الأسرة
الميروفنجية من سلالة كلوفيس - وليداً للدافع الدينى فيما يتعلق بتحديد
عيد الفصح تحديداً دقيقاً. ومن الواضح أن افتقار عامة رجال الدين يومئذ
إلى المعرفة الدقيقة بعلم الفلك أو حساب الزمن جعل ذوى رجال العلم
منهم يوزعون على الرهبان والقساوسة جداول زمنية تحوى بياناً بموعد
عيد الفصح لعدة سنوات تالية. وقد أدى الخوف من أن يخطأ القساوسة -
بسبب قلة حظهم من العلم - فى تحديد موعد هذا العيد، مما يترتب عليه

(١) نقصد بالفيكنج العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكندياوة وشبه جزيرة
الدنمارك، والتى اتخذت إغاراتها على أوربا شكلاً خطيراً فى القرن التاسع.

وقد أطلق المعاصرون على تلك العناصر اسم الفيكنج Vikings، بمعنى سكان الفيودرات
والخلجان، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية
من أوربا. وقد اتخذت إغارات الفيكنج شكلاً بحرياً أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف
البرى الذى اتصفت به هجمات بقية الشعوب الجرمانية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة.
انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ (القاهرة ١٩٧٥)، ص ٢٠٦ - ٢٣٤.

(٢) سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى، ص ٨٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٩.

تغيير مواعيد الأعياد التالية، إلى تقرير مواعيد ثابتة لعيد الفصح^(١). وقد احتكر الرهبان كتابة الحوليات، وقد فرصت عليهم الحياة الديرية الانعزال عن الحياة الاجتماعية النشطة، والأصل في هذا اللون من الكتابة التاريخية أن يعيش المؤرخ وسط تيار الأحداث لا أن يعزل، ومن هنا جاءت كتابتهم ساذجة قليلة القيمة.

وقد امتازت الحوليات في العصور الوسطى بالاقتراب الشديد بحيث لا تتعدى الحولية ذكر السنة وأهم ما حدث فيها، فسنة ٧٠٩ شتاء قارص البرد، وسنة ٧١٠ قحط ونقص في المحصول، وسنة ٧٢٢ فيضان مرتفع، وهكذا حتى تشمل الصفحة الواحدة تاريخ عشرين سنة تقريبا. وربما أضعف من قيمة تلك الحوليات أن كتابها كثيرا ما حصلوا على تدوين بعض الخوارق غير الطبيعية، فضلا عن الاهتمام البالغ بأحداث - هي في نظرهم ذات أهمية كبيرة - مثل نقل رفات قديس أو وفاة بعض كبار رجال الدين، وكل هذه معلومات ذات قيمة ضئيلة للباحث الحديث المشتغل بالتاريخ، اللهم سوى أنها تكشف النقاب عن المستوى الفكرى لمؤرخ العصور الوسطى، وتعطينا فكرة عن ضعف الحاسة التاريخية عنده^(٢). ولكن بمرور الزمن نمت تلك الحوليات بانتقالها من دير إلى آخر، مما أدى إلى زيادة الحواشى وتعدد التعليقات على حوادث كل سنة. ونلاحظ على الحوليات التى دونت فى الأديرة والكاتدرائيات أن كلا منها يحمل الطابع المحلى الخاص الذى يعطى صورة صادقة للحياة فى المكان والزمان الذى كتبت فيه الحولية. كذلك نلاحظ أنه كلما تقدم الزمن بالقرن الثانى عشر الميلادى أخذ التاريخ يخلع عن نفسه الصفة المحلية

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١، ص ٩٥.

(٢) المرجع السابق، ج١ ص ٩٥-٩٦.

الضيقة لتزداد صفته العالمية، وذلك نتيجة لنشاط الاتصال التجارى من ناحية، ولازدياد أهمية بلاط الملوك من ناحية أخرى(١).

أما المدونات التاريخية Chronicles فتشمل كتب الوقائع والحوادث التي تعتبر الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخي في القرن الثاني عشر عندما أخذت كتابة التاريخ تجنح نحو الطابع العالمي، وتخلع عن نفسها صفتها المحلية التي لازمتها في العصور الوسطى السابقة(٢). والمدونات التاريخية تلخيص لأحداث تاريخية لفترة من الفترات، يقوم على أساس حولية أو أكثر، مع الاحتفاظ بالتنظيم والترتيب الزمني للأحداث، على نحو ما هو متبع في الحوليات التي نقل عنها. وقد يكون بعض ما ورد في هذه المدونات التاريخية من أحداث قد وقع قبل عصر المؤرخ، ومن ثم فإنه يجمع المادة الخاصة بها الرجوع إلى عدد من الحوليات، حتى يحقق في كتابة سرداً متكاملاً شاملاً. وهناك تباين كبير بين المدونات التاريخية بعضها وبعض في العصور الوسطى، وذلك من ناحية طبيعتها أو من ناحية التأليف، فبعضها كان روايات شخصية عن تجارب المؤلف الخاصة، والبعض الآخر تناول تاريخ البيئة المحلية، في حين أن بعضها كان سجلاً لأحد الأديرة والحياة فيه، وما كان بينه وبين العالم الخارجى من علاقات واتصالات. وهناك من المدونات التاريخية في العصور الوسطى ما اقتص بعلاج تاريخ مدينة معينة وما تعرضت له من أحداث، مثل تلك الحوليات الشهيرة عن لندن وقلورنسة وچنوه وكولونيا، هذا في حين اقتص البعض الآخر بحدث ضخم مثل الحروب الصليبية(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الاتجاه العام نحو استخدام اللغات القومية

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج ٢ (القاهرة ١٩٧٦)، ص ١٣١.

(٢) المرجع السابق، ج ٢ ص ١٣١،

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ٩٦ - ٩٧.

الناشئة فى كتابة التاريخ ظهر قويا فى القرن الثانى عشر فصاعداً فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا. ولم يكد يختتم القرن الثانى عشر إلا وكانت كتابة التاريخ باللغات القومية قد أصبحت شيئا مألوفاً. وترجع أهمية هذه المسألة إلى أن عدم كتابة التاريخ باللاتينية التى ظلت لغة الكنيسة، وكتابتها باللغات القومية، ساعد على الحيلولة دون احتكار رجال الدين للكتابات التاريخية، وجعل هذا النوع من الكتابات أمراً دنيوياً. وهكذا أخذ المؤرخون يخاطبون الشعوب بلغاتها ويكتبون لها بالسنتها، وبالتالي أصبحوا يهتمون بالأمر والمسائل والأخبار التى تهتم الشعوب وتعنى الرأى العام^(١).

تأثير الحروب الصليبية فى التدوين التاريخى فى العصر الوسط الأوروبى:

تعد الحروب الصليبية من أهم الحركات الكبرى التى أثرت فى مجرى تاريخ البشرية، بحيث لا يمكننا تتبع التاريخ السياسى لعالم العصور الوسطى دون الإشارة إليها. وقد انبعثت تلك الحروب من الغرب الأوروبى المسيحى، باعتبارها المخطط والمنفذ لها، واتخذت من الدين ستاراً لتخفى أطماعها الاستعمارية الرامية إلى الإستيلاء على أراضى وثروات المسلمين والعبث بمقدساتهم فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى.

وقد اعتاد الباحثون عند تناولهم لأحداث الدعوة إلى الحروب الصليبية أن يبدأوا بمجمع كليرمونت بإقليم أو فيرن بفرنسا، الذى عقده البابا أوربان الثانى فى نوفمبر سنة ١٠٩٥ م، وإن كانت جذور هذه الدعوة ترجع إلى ما قبل ذلك بنحو قرن، عندما أسبغت البابوية على الحروب التى شنها الغرب الأوروبى على المسلمين فى أسبانيا وجزيرة صقلية لونا بغىضا من التعصب الدينى. وكانت البابوية فى الغرب الأوروبى قد ارتفع

(١) حسنين ربيع: محاضرات فى علم التاريخ، ص ١٣٨ - ١٣٩.

شأنها، وصار لها السيادة على كل الكنائس الأوربية بفضل سلسلة من البابوات الأقوياء، فأخذت تشجع أمراء الإقطاع على نبذ حروبهم الداخلية، وتوجيهها ضد المسلمين، بغية إشباع نزعتهم القتالية، ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب.

وفي منطقة الشرق الأدنى تحقق حلم البابوية، بخروج أعداد ضخمة من أهالي غرب أوربا في سنة ١٠٩٦ عرفوا بالصلبيين Crusaders على حد تعريف المؤرخين الغربيين بهم، أو الفرنجة وفقا لما جاء في المصادر العربية، تحت شعار تحرير الأراضي المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين. وفي فورة من الحماس الديني المتقد المشوب بالأغراض الدنيوية، اخترق الصليبيون آسيا الصغرى، ومنها زحفوا جنوبا نحو مدينة بيت المقدس، فسقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩ م، بعد حصار استمر شهرين، وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع أعمال الوحشية، فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالا ونساء ورجالا وشيوخا. ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانئه لتأمين الاتصال البحري بغرب أوربا، واستمر وجودهم نحو قرنين من الزمان، وكان ذلك على وجه التحديد من سنة ١٠٩٧ إلى سنة ١٢٩١ م.

وكان للحروب الصليبية أثرها على التدوين التاريخي من حيث تحريره من ريقه الأطر القديمة وإيجاد الحافز إلى الكتابة. ذلك أن ما يتسم به موضوع الحروب الصليبية من جدة، وما يحفل به من إثارة، حرر المؤرخين من الاعتماد على النماذج القديمة. ولم يكن ثمة شيء في الحروب التي شهدتها العصور الوسطى الباكورة يمكن مقارنته بالحروب الصليبية. وكان على مؤرخ الحروب الصليبية أن يكتب بطريقته الخاصة، كما صارت الكتابة التاريخية أقل نمطية، وأكثر تلقائية. كذلك وجد الحافز

إلى الكتابة بفضل اتساع مجال هذه الكتابة وآفاقها. فقد اكتسب المؤرخون الذين كانوا يعيشون في المناطق العسكرية خبرات جديدة، ذلك أنهم كانوا يتعرفون على حضارتين. ولأن الحروب كانت متداخلة وطويلة الأمد، فقد قامت بين المستوطنين وأعدائهم اتصالات سليمة، وهو الأمر الذي يعنى أن عيونهم قد تفتحت على حقيقة أن أولئك الأعداء بشر وليسوا من الشياطين^(١).

لقد أنتجت الحروب الصليبية كتاباً علمانيين ومؤلفات تاريخية وطنية، كما تطور الأدب العلماني بفضلها. وكان النمط الجديد من التدوين التاريخي مناقضاً للتدوين التاريخي اللاتيني الكنسي التقليدي من عدة وجوه، في الوقت الذي كان هذا النمط الجديد أبعد ما يكون عن الملحمة الوطنية أو ما يعرف باسم «أغاني المآثر» Chansons de Geste، لأن الملاحم الوطنية كانت تعالج القصص الخيالية والخرافات، بينما كان على تاريخ الحروب الصليبية أن يبدأ بتناول الحقائق^(٢).

وعلى أية حال، كانت الحروب الصليبية بمثابة دفعة وحافز للتدوين التاريخي، ومن بين العديد من مؤرخي الحروب الصليبية اخترنا ثلاثة هم، الكاتب المجهول صاحب كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس»، ووليم الصوري William of Tyre، وجيوفري من قبلهاردوين Geoffrey of Villehardouin، وبعد الثلاثة من أحسن الأسماء المعروفة، كما يتمتعون بأنهم محل اهتمام لأسباب متناقضة، فمنهم من يمثل طرازاً جديداً من المؤرخين ومنهم من يقدم معالجة أصلية لنمط قديم من الكتابة التاريخية^(٣).

(١) سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ص ١٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٧.

كان الكاتب المجهول صاحب كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس»، وهو أحد شهود العيان للحملة الصليبية الأولى، ولانعرف على وجه التحقيق اسمه رغم كثرة الإشارة إليه في الدراسات الصليبية. ومنذ وصفه للحملة الصليبية الأولى، ومن مركزه الذي حارب خلاله في جميع المعارك حتى يونيو سنة ١٠٩٨ م، يتضح أنه كان تابعاً لبوهيموند النورمانى، وأنه جاء من جنوب إيطاليا، وعلى وجه التحديد من أبوليا^(١). ويختص صاحب «أعمال الفرنجة، بوهيموند النورمانى دون بقية الأمراء الصليبيين بكلمة «الرئيس، Dominus، مما يدل على أنه كان في جيشه ومن أتباعه. وعندما استقر يوهيموند في أنطاكية سنة ١٠٩٨ بعد أن أسس إمارة لنفسه فيها، ورفض أن ينضم إلى الجيش الصليبي الزاحف على بيت المقدس انفصل الكاتب المجهول عن سيده وانضم إلى ريموند كونت تولوز للمشاركة في الاستيلاء على بيت المقدس، وقد كتب «أعمال الفرنجة، بلغة لاتينية سهلة فصيحة، واحتوى على اقتباسات من الكتاب المقدس، وربما يكون الكاتب المجهول قد ألحق بالكنيسة وهو صغير، ثم تركها ليشق لنفسه طريقاً علمانياً. والواقع أن هذا المؤرخ قد أعطانا صورة صادقة عن الحملة الصليبية الأولى التي شارك فيها، وساهم في تحقيق انتصاراتها^(٢).

وإذا انتقلنا من المؤلف المجهول إلى المؤرخ وليم الصورى (حوالى ١١٣٠ - ١١٨٥)، نلاحظ أن قصة الصليبيين في فلسطين كان قد مر عليها ثمانون عاماً، ولم تستطع الحملات الصليبية التالية أن تفعل شيئاً لتدعيم الوجود الصليبي ببيت المقدس، ولذلك فإن قصة الصليبيين كانت

(١) Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum Ed. by Rosalind Russel

(London, 1962), pp. xi - xii.

Ibid., pp. xiii - xvi.

(٢)

تموج بمشاعر الحزن أكثر مما تحمل من علامات النصر. ويرى البعض أن كتاب وليم الصوري «تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار» ليس عملاً أصيلاً في صياغته مثل كتاب «أعمال الفرنجة، الفذ الفريد»، فهو كتاب تاريخ أدبي كتبه أحد كبار الأساقفة بلغة المثقفين، وهو لافت للنظر من حيث أنه حقق أقصى ما يمكن لهذا النمط من الكتابة أن يحققه، ويبرز وليم الصوري كأكثر مؤرخي العصور الوسطى عذوبة ورقة (١). والواقع أن تاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام رواه ما يقرب من إثني عشر مؤرخ معاصر، وأمع أولئك المؤرخين قاطبة وليم الصوري، فأعماله التاريخية عظيمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وإذا كان قد أطلق على هيرودوت أب التاريخ، فإن وليم الصوري يعتبر أب التاريخ في عصره، وهو جدير بذلك اللقب لحسن نظامه وتنسيقه، ومعالجته الفنية للموضوع، وتمتعه بفن السرد الحيوي للحوادث (٢).

والراجح أن وليم الصوري ولد في بيت المقدس حوالي سنة ١١٣٠م، من أبوين ينتسبان إلى أسرة إيطالية، اشترك رجالها في الحملة الصليبية الأولى، ونشأ في الشرق، وأجاد العربية واليونانية. وتوجه إلى الغرب الأوربي للتعليم، فأمضى ستة عشر عاماً (١١٤٥ - ١١٦١) في باريس درس خلالها الفنون الحرة واللاهوت، ثم توجه إلى بولونا في إيطاليا، حيث درس القانون مدة أربع سنوات (١١٦١ - ١١٦٥م) (٣). وعند عودته إلى فلسطين اتصل بالملك الصليبي عموري الأول (١١٦٣ - ١١٧٤)، وأمده عموري بتواريخ عربية، وطلب إليه أن يكتب تاريخ

(١) سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ص ١٤٢.

(٢) محمود العويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) Davis (R.H.), William of Tyre, in Relations between East and West in the Middle Ages, ed., by Dereke Baper (London, 1973), P. 64.

عصره، وتاريخ مملكة بيت المقدس منذ عام ١٠٩٤، وفي سنة ١١٦٥ عيّن الملك قسيساً في كاتدرائية صور، ثم رئيساً لشمامستها في سنة ١١٦٧، وترقى وليم في البلاط الملكي، وعهد إليه عموري بتربية ابنه بلدوين الرابع في سنة ١١٧٠، وفي سنة ١١٧٤ عيّن عموري مستشاراً للمملكة ورئيساً لأساقفة صور، وبعث به في سفارات إلى روما وبيزنطة^(١). وبعد موت عموري فقد وليم مكانته في البلاط، ونتيجة لذلك لم يرق إلى منصب بطريرك بيت المقدس، وهي الوظيفة التي كان يتحرق شوقاً في الحصول عليها منذ زمن طويل، فانسحب إلى صور سنة ١١٨٠م، وصار مراقباً للأحداث، ولا يشترك فيها، وتوقفت طموحاته في الحياة وتبعثرت آماله، ومات سنة ١١٨٥م^(٢)، قبل أن يشهد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على بيت المقدس.

وتنقسم المصادر التي اعتمد عليها وليم الصوري في كتابة تاريخه إلى قسمين، بعضها مكتوب، وبعضها حفظ عن طريق التواتر الشفهي. فقد أفاد من مؤلفات من سبقه من المؤرخين الصليبيين، وكانت طريقته في إيراد الحادث أن يذكر الرواية الوحيدة إذا كان ليس هناك غيرها، أما إذا تعددت الروايات فكان يلجأ للمفاضلة بينها وينتقى منها الأفضل في رأيه، أو يسرد جميع الروايات ويترك للقارئ أمر المفاضلة بينها. وهناك فارق كبير بين المعلومات التي يوردها في تاريخه عن الفترات التي سبقت عصره والمعلومات المتعلقة بعصره، ففي الأخيرة نراه يتناول الأحداث بكثير من الإسهاب والتفصيل، ففي أخبار فترة حكم عموري الأول نلاحظ أنه يسهب في وصف أحوال مصر والخلفاء الفاطميين

Ibid., PP. 64 - 65.

(١)

©≤©†Krey (A.C.), William of Tyre, The Making of an Historian in the Middle Ages, in Speculum.A Journal of Mediaeval Studies. Vol. xvi,

وأصلهم وأخبارهم، ويولى أمر جغرافية مصر والنيل وبرزخ السويس
عناية خاصة (١).

وتخللت مراحل نشاط وليم الصورى فى ميادين الوظائف الدينية
والسياسية نشاط فى كتابة التاريخ، وأعدته شخصيته ومواهبه وثقافته
والمناصب الدينية والسياسية التى تولاها، والمصادر التى استقامت له بهذا
العمل، كأحسن ما يقوم به المؤرخ المدقق (٢). ومما يستوجب الالتفات فى
كتاب وليم «تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار»، أنه صور عماد
الدين زكى، ونور الدين محمود، وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين
الأيوبي تصويراً يدعو إلى الإعجاب، على حين نعى على زعماء
الصليبيين تدهور صفاتهم الحربية والخلقية على قوله، وعجزهم عن
مقاومة نور الدين وصلاح الدين، لانتشار الرذيلة والخيانة والفرقة
والمنافسة. والغدر بين صفوفهم (٣). ويبدو من أسلوب وليم السلس الذى
كتب به تاريخه، أنه كان يجيد اللغة اللاتينية التى كتب بها، واتسم فى
كتابه بطبيعة هادئة، واشتهر بالنزاهة والحياد والموضوعية بصورة قلما
ضارعه فيها غيره من المؤرخون، مما جعل كتابته تقترب من معايير
ومقاييس الدراسة التاريخية الحديثة. وقال عنه آرشر T.A. Archer وهو
أحد الباحثين المحدثين، أنه «كان يفوق سائر مؤلفى العصور الوسطى، لما
اتسم به كتابه من التناسق الفنى، ولما انطوى عليه موضوعه من اهتمام
بالغ واكتمال رائع»، وقال عنه المؤرخ ستانلى لين بول: «لايستطيع أحد
أن يقارن رئيس أساقفة صور وليم الصورى فى «تاريخه»، فهو كتاب
مفعم بالحيوية، ويدل على دراية صاحبه بكل الحوايلات اللاتينية
والعربية، (٤).

(١) نورالدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٢) نظير حسان سعداوى: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٤) Krey, Op. Cit., p. 149.

ومهما يكن من أمر، فقد أثر وليم الصوري، تأثيراً كبيراً على المؤرخين المتأخرين، واعتبر بحق المصدر الأصلي الكامل لكل ما وقع في زمنه من أحداث. كما أن الأحداث التي لم يعاصرها اعتمد في تدوينها على المحفوظات الملكية والكنيسة، فضلاً عن شهود العيان وبعض المراجع الأخرى، الأمر الذي يضفي أهمية كبرى على كتابه.

أما جيوفري من فيلهارودين - أو جيوفري الفيهاروديني - مؤلف كتاب «غزو القسطنطينية»، فقد ولد بين سنتي ١١٥٠ و ١١٥٤م، وكان والده نبيلاً من شامبني، ولم يكن جيوفري فارساً عادياً، بل نال ثقة الجميع واحترامهم، وصار مارشال شامبني Marshal of Champagne سنة ١١٨٥م. وكان واجب المارشال أن يمنع قيام أية حروب بين النبلاء المتجاورين، ويعيد الأمور إلى نصابها، وإذا ما حدث أن نشبت الحرب بين فريقين من النبلاء، فعلى المارشال أن يجهز حملة، وفي غياب سيده يقود تلك الحملة، بالإضافة إلى أنه كان ينوب عن سيده في إدارة شئون الولاية. ومن خلال الواجبات التي قام بها جيوفري صار معروفاً لكثير من الشخصيات النبيلة، وأهله منصبه لاكتساب خبرة مارسها بعد ذلك بشكل أوسع (١).

وقد قدم لنا جيوفري في كتابه «غزو القسطنطينية» صورة واقية عن الأسباب التي أدت إلى انحراف الحلة الصليبية الرابعة عن هدفها وهو توجيه ضربة ضد مصر بوصفها مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين بالشام، لكي تحاصر عاصمة مسيحية آمنة هي القسطنطينية وتستولي عليها عام ١٢٠٤م. وما زال هذا الكتاب يعطينا خير وصف عن الصراع الطويل بين المسيحيين في الشرق والغرب، كتب باللغة الفرنسية، ولعله

(١) Jainville & Villehardouin, Chronicles of the Crusades (U.S.A., 1977), pp. 10-11.

أول كتاب تاريخي هام في العصور الوسطى يكتب باللغة المحلية. ويعتبر كتاب «غزو القسطنطينية»، أحد المصادر الرئيسية التي تناول أحداث الحملة الصليبية الرابعة، وقد كتبه علماني بأسلوب واضح يجمع بين الموضوع والإيجاز، ولكنه مليء بالحقائق، ويفيض بالإحساسات الشخصية والمهارة في تصوير الشخصيات^(١). ولم يطلق جيوفري لنفسه العنان في إبراز شخصه بتواضع زائف أو بعرض متكبر، بل كان سلوكه يمتاز بكل كرامة وعظمة، ويظهره زعيما حقيقيا في السلم والحرب يسدى النصيح ويسوى النزاع بين الكبار والقادة، ويتحمل المسؤولية في أوقات الخطر والهزيمة ليعيد الأمور إلى نصابها، ومات جيوفري عام ١٢١٢م في الشرق^(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد شهدت السنوات التي تلت سنة ١٣٠٠ تطورات جديدة في كتابة التاريخ، كما شهدت مولد أفكار جديدة عن الطريقة التي ينبغي أن يكتب بها. فقد استمر الرهبان والقساوسة يكتبون التاريخ باللغة اللاتينية. ولكن القرن الرابع عشر يشتهر أكثر بمدوناته المكتوبة باللغات القومية؛ ويأتي المؤرخ العلماني - جنديا كان أو موظفا مدنيا - في المقدمة، لأنه يروي الأحداث التي شاهدها وشارك فيها. وعلى سبيل المثال «حياة القديس لويس»، التي كتبها جوانفيل^(٣) (١٢٢٤ - ١٣١٩) الذي كان صديقا ومستشارا للملك لويس التاسع وموضع ثقته. ومن المحتمل أن جوانفيل شرع في تدوين أو إملاء كتابه بعد أن تقدم به العمر، وتكاد الحملة الصليبية السابعة التي قام بها لويس التاسع هي محور

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ١١١.

(٢) نورالدين حاطوم: المدخل إلى التاريخ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٣) سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ص ١٨٧.

كتابہ «حياة القديس لويس» والإطار الأساسي لأحداثه، حيث إنه ركز على أحداث الفترة من سنة ١٢٤٨ إلى ١٢٥٤. وقد استهدفت المادة التاريخية، مع كونها سليمة ويمكن الاعتماد عليها نسبياً، تأكيد ما للملك لويس التاسع من صفات القداسة^(١) التي رآها جوانفيل.

(١) بارنز: المرجع السابق، ج١، ١٢٨.

الفصل الرابع

كتابة التاريخ فى عصر النهضة وما بعده

كتابة التاريخ فى عصر النهضة
حركة الاستنارة أو التنوير فى القرن الثامن عشر

عصر النهضة Renaissance مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في الفترة بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر. ويبدل المصطلح على التيارات الفنية والثقافية والفكرية والعلمية التي بدأت في إيطاليا منذ القرن الرابع عشر، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وأسبانيا وألمانيا وهولندا وإنجلترا وإلى سائر أنحاء أوروبا.

وقد تميزت فترة الانتقال هذه بقيام حركة واسعة من أجل إحياء العلوم والمعارف على أساس الرجوع إلى مخلفات وآثار الإغريق والرومان القديمة ودراستها. ويفضل هذه الدراسة تحرر الإنسان من القيود التي عطلت تفكيره ونشاطه في العصور الوسطى، فحدث في عصر النهضة إنتعاش ذهني شامل لم تلبث أن ظهرت آثاره واضحة في القرن السادس عشر. وكان من أهم مآثر عصر النهضة اكتشاف أراض وشعوب جديدة وظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين، وكذلك إتمام إنجازات عظيمة في ميادين عديدة ومختلفة. ومن أعظم شخصيات عصر النهضة ليوناردو دافينشي ومايكل أنجلو في مجال الفنون، وكريستوفر كولومبس وفاسكوداجاما في مجال الاستكشافات الجغرافية، وجوتنبرج مخترع الطباعة، وإسحق نيوتن صاحب نظرية الجاذبية، وديكارت الفيلسوف وعالم الرياضيات الشهير، وكوبرنيكوس وجاليليو الفلكيان الشهيران، وغير هؤلاء كثيرون، فهذا العصر بحق هو عصر انبعاث وولادة جديدة، كما يدل إسمه الأجنبي.

ويميل بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين عام ١٤٥٣ قد أدى إلى فرار علماء القسطنطينية من المهمتين بالدراسات اليونانية القديمة إلى إيطاليا، وأن نشاط هؤلاء العلماء في

المهجر قد أدى إلى ظهور حركة الإحياء أو البعث هناك. والواقع أن هذا التفسير لظهور حركة الإحياء في إيطاليا لم يعد مقبولاً الآن، فمن المسلم به أن حركة التنقيب عن المخلفات القديمة قد ظهرت في إيطاليا قبل سقوط القسطنطينية بخمسين عاماً على الأقل. ثم إن النهضة التي شهدتها إيطاليا وانتشرت منها إلى أوروبا لاتحدد بانتعاش الدراسات اليونانية فحسب. فهذا الانتعاش الخاص بالآداب اليونانية القديمة كان عنصراً واحداً من عناصر هذه النهضة، وما حدث بالفعل هو أن عدداً كبيراً من علماء القسطنطينية كان قد جذبهم إلى إيطاليا بوادر النهضة الأدبية هناك، فرحلوا إليها منذ أوائل القرن الخامس عشر، أي قبل سقوط القسطنطينية بحوالى نصف قرن. ولهذا ليس صحيحاً أن سقوط القسطنطينية هو السبب الأساسي في ظهور حركة الإحياء في إيطاليا وإن كان بالتأكيد من العوامل التي ساعدت على نموها (١).

ومن العوامل المساعدة التي أدت إلى نمو حركة النهضة في إيطاليا، ما تمتعت به الأخيرة من هدوء وسلام نسبيين إبان النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي حتى الغزو الفرنسي على يد شارل الثامن في سنة ١٤٩٤م، وهذا الهدوء النسبي ساعد على نمو حركة النهضة في جو بعيد عن الإضطراب (٢). ومن الأسباب التي أدت إلى ازدهار شأن النهضة الإيطالية، أنها وجدت لها أنصاراً أقوياء يقدمون لرجالها المال الوفير مثل أسرة ميديتشي في فلورنسه والبابوات في روما، وكذلك الحال في ميلانو والبندقية التي بلغت ذروة عظمتها الثقافية في أواخر السادس عشر.

(١) محمد فؤاد شكرى، محمد أنيس: أوروبا في العصور الحديثة، ج ١ (القاهرة ١٩٦٦)، ص ١٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

وفى عام ١٨٧٩ أصدر أميل جبهارات وهو كاتب مقالة ممتازة ومؤرخ مبدع للثقافة كتابه «أصول عصر النهضة فى إيطاليا»، وقال عن طبيعة «عصر النهضة»: «لم تكن النهضة فى إيطاليا فحسب تجديداً للأدب والفنون ناتجا عن عودة العقول المثقفة إلى الأدب الكلاسيكى إحياء وانتهاء، وعن تهيئة السبل لتدريب أفضل للفنانين الذين عادوا إلى استشفاف ما بالمدرسة اليونانية من إحساس بالجمال، وإنما هى جماع الحصيلة المركبة للحضارة الإيطالية، هى التعبير الصحيح لعبقرية إيطاليا وحياتها الخلقية» (١).

كتابة التاريخ فى عصر النهضة:

صار متفقاً عليه أن يطلق إسم «الحركة الإنسانية» على الجانب الأدبى من حركة النهضة، وليس معنى ذلك إحياء الاهتمام بالأدب القديم فحسب، بل أيضاً تذوق ما فى الأدب الوثنى من اهتمامات إنسانية عريضة ونظرة علمانية إلى الحياة. وبعبارة أخرى جاءت الحركة الإنسانية رد فعل عاطفى وشعرى للاتجاهات الروحانية المتزمتة التى تمسك بها علماء اللاهوت، دون أن تكون ثورة حقيقية أو ملموسة على اللاهوت نفسه أو الفلسفة الاجتماعية (٢).

ولقد جاء تأثير الحركة الإنسانية على الكتابة التاريخية متمشياً تماماً مع المظاهر الرئيسية لتلك الحركة بوجه عام. فهذه الحركة بالنسبة للتاريخ كانت تعنى البحث عن النصوص القديمة ثم مقارنة ونقد وتصحيح ما تم الوقوف عليه منها. وقد كان للحركة الإنسانية أثر هائل

(١) هويزنجا (يوهان): أعلام وأفكار: نظرات فى التاريخ الثقافى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مراجعة د. زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٣٠٥.
(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١، ص ١٤٥.

في تناوُل عنصر المعجزات والكرامات في عملية تفسير أحداث التاريخ، ومع ذلك لا ينبغي أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين أو المتشككين في الديانة المسيحية، وإنما الغالب أنهم تجاهلوا ولم ينكروا مزاعم اللاهوت والجدل الديني. وهناك حقيقة هامة هي أنه لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي سنة ٤٧٦م، صار معظم المؤرخين البارزين من العلمانيين وعامة الناس بعد أن كانوا من رجال الكنيسة واللاهوت (١).

وعلى أية حال، لم يحظ علم بالازدهار في حركة النهضة الإيطالية بقدر ما حظى التاريخ. فلم تعد الفكرة التي تجعل التاريخ يعتمد على السماع والرواية مقبولة، وحل محلها دراسة التاريخ على أساس المادة العلمية الموثوق بها، الأمر الذي أدى إلى ظهور مدرسة في النقد التاريخي كان من أبرزها لورنزو فاللا (١٤٠٦ - ١٤٥٧) Lorenzo Valla، فقد تصدى في سنة ١٤٤٠ للرواية التاريخية التي تحمل اسم «هبة قسطنطين»، وتتلخص في أن الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) قد عهد للبابوات بحكم روما وإيطاليا كلها، ولكن لورنزو برهن على أن هذه الوثيقة زائفة. وكان البابا في ذلك الوقت هو نيقولا الخامس، فأعجب ببحث لورنزو وعينه موظفا في الحكومة البابوية، ويعتبر ذلك الحادث نقطة تحول في موقف البابوية من الحركة الإنسانية، إذا أضحت البابوية من ذلك الوقت وحتى ظهور حركة الإصلاح الديني - باستثناء فترات قصيرة - نصيرة الدراسات الإنسانية (٢).

وتكونت مدرسة تاريخية في إيطاليا لها طابعها المميز والتي تعتبر

(١) نفس المرجع، ج١ ص ١٤٦.

(٢) محمد فؤاد شكرى، محمد زئيس: أوروبا في العصور الحديثة، ج١ ص ٣٥. وأنظر ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

كتابتها بداية للكتابة التاريخية الحديثة ذات الطابع السياسى والقومى .
وكان من أعلام هذه المدرسة المؤرخان الفلورنسيان البارزان نيقولا
مكيافيللى (١٤٦٨ - ١٥٢٧) Machiavelli ، وفرانسسكو جويتشاردينى
(١٤٨٣ - ١٥٤٠) Guiccardini .

ولدنيقولا ميكافيللى بمدينة فلورنسه عام ١٤٦٩ من أسرة نبيلة،
واهتم منذ نعومة أظفاره بالأمور السياسية وساهم فيها بنصيب كبير، فقد
انتظم فى السلك السياسى فى سن مبكرة، وشاهد ما آل إليه أمر إيطاليا،
فقد انقسمت إلى مدن مستقلة تشبه مدن الولايات الإغريقية . وكانت هذه
المدن الإيطالية متنازعة وفى حروب مستمرة، وتستبيح فى خصوماتها كل
ألوان الدسيسة والغدر، فتأثر ميكافيللى بهذه الأمور وما إليها (١) . وعلى
أثر الغزو الفرنسى لفلورنسه فى عام ١٤٩٤ ، عين مستشاراً وسكرتيراً فى
«الجمهورية الفلورنسية»، واستمر فى هذا المنصب حتى عام ١٥١٢ ،
وسافر فى بعثات إلى الإمارات الإيطالية المختلفة فى إيطاليا وإلى بلاط
فرنسا، وهذه البعثات هى المدرسة التى كون فيها ميكافيللى خبرته
السياسية، غير أنه حوّل هذه الخبرة الذاتية والمشاهدة الخاصة إلى دراسة
تاريخية عامة، بل لم يقتصر على دراسة القرن الذى عاش فيه، إنما
شملت دراسته تاريخ الإنسان عامة فى عصوره المختلفة (٢) .

والحق أن ميكافيللى أوتى من نفاذ البصيرة بالعوامل التاريخية
المستمرة التى تحرك التطورات السياسية ما لم يتوافق لأى مؤرخ آخر من
المدرسة الإنسانية حتى عهده . ذلك أنه تحمس للفكرة المثالية الخاصة
بتحقيق الوحدة الإيطالية وقيام دولة إيطالية متحدة، ووقف موقفاً معادياً
من البابوية التى اعتبرها عقبة كئودا فى طريق الوحدة الإيطالية (٣) .

(١) مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، ص ٢٨٨ .

(٢) فؤاد شكرى، محمدأنيس: أوربا فى العصور الحديثة، ج١ ص ٣٦ .

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

وتمثلت أفكار مكيا فيللي في عدة نظريات سياسية ودينية، وحول الحرية والحكومة، وكان يرى أن الرجوع إلى التاريخ هو أفضل طرق البحث العلمي، وأن دراسة الماضي هي الدعامة التي يرتكز عليها الباحث في الوصول إلى هدفه، فهو إذاً من أصحاب النظرية القائلة بأن التاريخ هو المدرسة الحقة لدراسة النظريات السياسية، ومن المفكرين السياسيين القلائل الذين أدركوا العلاقة الوثيقة التي تربط التاريخ بالبحث السياسي^(١).

ومن أهم أعمال مكيا فيللي كتابه «الأمير» الذي كتبه عام ١٥١٣، وأهداه إلى الأمير لورنزو دي ميديتشي، وختمه ببناء حار أهاب فيه بهذا الأمير أن يأخذ على عاتقه مهمة إنقاذ إيطاليا من البرابرة ومن النفوذ الأجنبي^(٢). وفي هذا الكتاب يرى ميكافيللي أنه لا ينبغي أن يكون للحاكم من غاية سوى الحرب فهي الحرفة الوحيدة لمن يحكم، إنها تحفظ الملك لمن ولد ملكاً، وترفع إلى مرتبة الملوك من ليس ملكاً، والحاكم الذي يفكر في رفاهية شعبه أكثر من التفكير في الحرب يفقد ملكه، والذي يخاف الحرب يحتقره الناس، فلا يستوى المسلحون وغير المسلحين، ولا الذين يحاربون والذين لا يحاربون، ولن يخضع مسلح لأعزل، كما لن يعيش آمنة أعزل بين قوم مسلحين، فالمسلح دائماً سيد الموقف بينما الأعزل خائف، وعلى الحكام أن يدرسوا دائماً سير الأبطال والمحاربين وبناء الدول والعظماء، وأن يتعرفوا على أسباب النصر والهزيمة^(٣). ومن المعروف أن ميكافيللي يرى أن الغاية تبرر الوسيلة، ومن ثم فإنه ينبغي المحافظة على الدولة بأي ثمن، وأية مسائل تعد مشروعة، والحاكم من

(١) مصطفى الخشاب: المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(٢) مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات الساسية، ص ٢٩٨.

(٣) أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ٩٧.

أجل الاحتفاظ بالسلطة في الدولة مضطر أن يتصرف بدون رحمة وبغير إخلاص، وإن يتجرد من الإنسانية بل من تعاليم الدين، فكل شيء مشروع بالنسبة لأخلاق الدولة، لأن كسب السلطة أو الاحتفاظ بها هو الهدف^(١). وجاءت مواصفات «الأمير» - كما ذكرها ميكافيللي - بأنه ليس حاكما مشرعا ولكنه رجل حرب وسياسة، رجل قوة ومكر، ولا بد أن يتقن أساليب الغدر والخيانة، ولا يخشى في هذا الصدد مبادئ الدين أو الفضائل الإنسانية، أو قواعد العرف والتقاليد، إن الحكم لا يريد إلا رجلا متلونا ملتويا، يداهن ويحسن أساليب النفاق والخداع، ويغرر ويرسم الخطط، يظهر الاستقامة والتعاطف والتراحم أمام الناس وهو في دخيلة نفسه يحيك الدسائس، وينكل بمن يقف في سبيله، والحاكم الذي لا يريد أن يسير هذه السيرة ويهمل اللجوء إلى هذه الأساليب، عليه أن يبتعد عن الحكم ومظاهره، ويحيا حياة خاصة^(٢).

وفي أوائل القرن السابع عشر كانت أعمال فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) حريا على وجهة النظر المسيحية، وإن لم يقصد ذلك قصدا شعوريا. ومع ذلك، فإنه تقام باتخاذ الخطوات الرئيسية لتجاوز الحركة الإنسانية الإيطالية، في إشارته إلى المستقبل. وقد كتب بيكون كتابا في تاريخ ملك إنجلترا هنري السابع سنة ١٦٢٢ وترك جذازات من مشروع كتاب في التاريخ العام لإنجلترا. ولكن بيكون وإن لم يمنح أهمية كبيرة كمؤرخ، إلا أن عمله كانت له آثار هامة ودائمة في التاريخ الواقعي. فقد كان له بصورة غير مباشرة أثر قوي في «علم التاريخ» يتمثل في إصراره على فحص الحقائق والبحث في العلاقات العلية (أى السببية). وقد نادى بدعوة الناس إلى التحول عما غلب عليهم من انشغال بأفكار الماضي إلى

(١) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٢) مصطفى الخشاب: المرجع السابق، ص ٢٩٢.

بحث الحقائق والأشياء المادية والعقول وطرائفها. وقد خصص شطراً كبيراً من كتابه «تقدم العلوم، لوصف ما يعوق نمو المعرفة من عوائق، كما أنه في كتابه «العمل الجديد، اقترح استخدام مناهج الدراسة العلمية»^(١). ولم تقم أهمية بكون بصفة خاصة في تلك المناهج، ولكن في إيقاظه الناس إلى الانشغال «بالطبيعة»، وبذلك دفع الناس إلى نطاق تاريخ واقعي أرحب، وإلى تصورات عن ذلك التاريخ تختلف عما ألفوه من التصورات المسيحية في العصر الوسيط. وقد توقع بكون التقدم في التاريخ، ولكنه لم يتوقعه شيئاً لا مفر منه، إذ قدم الأسباب المؤدية إلى وجود «أمل، معقول في ظهور ذلك التقدم. ولاشك أن ما ظهر في غضون القرون الثلاثة الأخيرة من ضروب التقدم في إحراز القيم العلمانية وتقديرها يمكن اعتبارها راجعاً إلى حد كبير إلى الاتجاهات التي أثارها بكون»^(٢).

حركة الاستنارة أو التنوير في القرن الثامن عشر:

يقصد بكلمة الاستنارة Enlightenment تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر، التي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميدان من ميادين الحياة الإنسانية والتفكير، ولم تكن هذه الحركة ثورة ضد سلطان الديانة النظامية فحسب، ولكن ضد الدين كيفما كان^(٣). وقد أخذت حركة الاستنارة في الانتشار في أوروبا وبين طبقات المجتمع بطرق متعددة كان من أهمها الأكاديميات العلمية التي أنشئت تحت رعاية الحكومات لتبادل وجهات النظر بين العلماء ونشر أبحاثهم، ومن أوائل وأشهر الأكاديميات الأوربية الأكاديمية الملكية الفرنسية في عام ١٦٦٦م، وعمد أصحاب حركة الاستنارة بين المفكرين والعلماء إلى

(١) ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢ ص ١٥ - ١٦.

(٢) المرجع السابق، ج٢ ص ١٦ - ١٧.

(٣) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ١٤٨ - ١٤٩.

فحص كل النظم الموروثة السياسية والثقافية والاقتصادية والكنسية في ضوء العقل والمنفعة^(١). والاهتمام بالتاريخ في القرن الثامن عشر مظهر من مظاهر الاهتمام بالإنسان، لا بمجرد الإنسان الماضي، بل لأن دراسة الماضي تزيدنا خبرة وتجربة بالحاضر، فضلا عما في دراسة التاريخ من إشباع النزعة العقلية في إصدار أحكام متحررة عن آراء الكنيسة ورجال السياسة، ومن ثم فإنه يقال أن ما كتب في قرن يفوق ما كتب في التاريخ في القرون السابقة عليه. على أن الأمر لا يتعلق بالكم فحسب، بل إن تغييراً جذرياً قد حدث بالفعل في التاريخ، فلم يصبح مجرد سرد لأحداث المعارك وسير الملوك وأخبار البلاط، وإنما شمل التاريخ شتى مظاهر النشاط الإنساني ممثلاً في الجوانب المختلفة للحضارة من عادات ومعتقدات وتشريع وعلم وفلسفة وفن وتكنولوجيا وتجارة وصناعة، وفي ذلك يقول فولتير: «لو سئلت أي هؤلاء أعظم: الإسكندر الأكبر أم يوليوس قيصر أم تيمور لذك أم كرومويل؟ لأجبت: إن إسحق نيوتن هو أعظمهم جميعاً»^(٢).

ويعتبر فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) مؤسس المدرسة العقلانية في علم التاريخ لإيمانه العميق بالعلم والعقل. كان فولتير فرنسياً، بدأ حياته برغبة أدبية لكسب الشهرة كمؤلف للملحمة والدراما، وفي سن الثلاثين، وبسبب حبسه في سجن الباستيل، طرأ تغيير روحي جعل من فولتير رجلاً جديداً، فأخذ يهتم اهتماماً بالغاً بدراسة المجتمع المعاصر، وراعه الظلم والقسوة والسخرية التي تنتاب كل جوانب الحياة في المجتمع الذي عاش فيه، ثم قاده هذا إلى دراسة تاريخ المجتمعات البشرية ليرى إن كان الإنسان في

(١) فؤاد شكرى، محمد أنيس: أوربا في العصور الحديثة، ج ١ ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢) أحمد صبحى: في فلسفة التاريخ، ص ٨٢ - ٨٣.

الأزمة السابقة وفي البلاد الأخرى أكثر سعادة منه في المجتمع الذي عاش فيه فولتير، ولقد أثمرت دراسة فولتير، إذ أخرجت التاريخ عن كونه سرد للحوادث والأسر المالكة إلى حقائق اجتماعية وثقافية^(١).

ويعد إنتاج فولتير الأدبي أكبر إنتاج في تاريخ الإنسانية، فقد شغل طوال حياته بكتابة المقالات والقصص والأبحاث والرسائل (بلغ عدد رسائله وحدها عشرة آلاف)^(٢). أما أروع أعمال فولتير التاريخية فهو كتابه الذي صدر سنة ١٧٥١م بعنوان: «عصر الملك لويس الرابع عشر»، ويصف البعض هذا الكتاب بأنه «أول كتاب تاريخي بالمعنى الحديث»، ففي هذا الكتاب نجد فولتير قد تخلى نهائياً عن طريقة الكتابة على منهج الحوليات، أو حتى الالتزام بتتابع زمني معين، بل نظم كتابه تنظيمًا موضوعيًا، أما كتابه «مقالة في سلوك الأمم وروحها» الذي صدر في عام ١٧٥٦م، فهو لا يقل أهمية عن الكتاب السابق، ذلك أنه يعتبر أول تاريخ عالمي بالمعنى الحقيقي للعبارة، ووضعت خطته على أساس أن يكون تاريخاً شاملاً لثقافة كل العصور وكل الشعوب. كما يعتبر هذا الكتاب أهم العلامات على طريق تطور الكتابة التاريخية، وأساس تاريخ الحضارة بمعناه الحديث، فضلاً عن أنه أول عمل ينصف غير المسيحيين وخاصة الشرقيين والمسلمين، ويقر بدورهم الذي أسهموا به في تطور الحضارة الأوربية^(٣).

ويرجع الفضل إلى فولتير في أنه أول من استخدم مصطلح «فلسفة التاريخ»، وقد قصد به رفض التاريخ المليء بالخرافات وكتابة الحوليات،

(١) فؤاد شكرى، محمد أنيس: أوروبا في العصور الحديثة، ج ١ ص ٣٣١، أولست كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ص ٦٨.

(٢) فؤاد شكرى، محمد أنيس: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ٢١٧.

وتنقيح التاريخ من المبالغات، وتخليصه من الأساطير^(١). ولذلك نجده يرفض الأخذ بفكرة العنلية الإلهية التي كانت تدور حولها تفسيرات التاريخ في العصور الوسطى من البحث في طبيعة المسيح وشخصه وما إلى ذلك. وهو خصم صريح للكنيسة الكاثوليكية، ولكنه يؤمن بالله على طريقة الدين الطبيعي، لأن الديانات التاريخية في رأيه ليست إلا صيغا خرافية للدين الطبيعي، فقد منح الله الناس العقل الشامل، ولا بد أن ينوطوا به إيمانهم. وهكذا أخذ فولتير نفسه بنمط فلسفي من مذاهب الألوهية يعادى المسيحية من جهة، ويعادى الإلحاد من جهة أخرى في وقت واحد، فهو معتنق للألوهية ومعاد للوحى الخارق للطبيعة، ومعارض في الوقت نفسه لأية محاولة ترد معتقاته إلى نزعة ملحدة^(٢).

وكان العالم دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) من أقطاب المدرسة العقلانية في القرن الثامن عشر. وقد اعتبر هيوم التاريخ سجلا لأفكار البشر من الناحيتين الثقافية والأخلاقية، ولكنه أثر في الوقت نفسه أن يكتب تاريخا سياسيا، ولذلك سارت كتاباته على نهج ثابت يستهدف إبراز الحقيقة الخاصة بأن الأفكار والدين هي التي تشكل السياسة، ولم تكن لديه الرغبة في تهيئة أذهان الناس للثورة، إذ استهدف من كتاباته أن تكون شيقة وممتعة وذات قيمة ثقافية فقط. وكان عداؤه للخرافات والأساطير وتزمت المسيحية مبعث احتقاره للعصور الوسطى التي اعتبرها ألف سنة من الركود والفراغ الثقافى أو منخفض هائل في الخط البياني للتقدم البشرى^(٣).

(١) Stern, The Varieties of History, p. 35;

أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ١٢٣.

(٢) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢ ص ٣٢ - ٣٣، عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، ج١ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ٢١٩.

أما مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) Montesquieu ، فقد أطلق البعض عليه إسم مؤسس فلسفة التاريخ، كما سماه آخرون باسم رائد المنهج العلمي فى التاريخ (١). وقد وجد مونتسكيو فى دراسة التاريخ خير سند له فى دراساته الأخلاقية والقانونية والاقتصادية، ووجد أنه لكى يدرس القوانين والظواهر الاجتماعية دراسة علمية صحيحة، لابد أن يلجأ لتاريخ الأمم والمجتمعات، فيدرس فيها هذه الظواهر وتطورها والأسباب أو العال التي تخضع لها، ومن هنا يستطيع أن يستنتج القواعد والمبادئ التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية (٢).

وفى كتابه «روح القوانين» الذى نشره بمدينة جنيف عام ١٧٤٨ عرض مونتسكيو للعوامل التي تحدد نظام الحكم فى مجتمع ما بعد أن قسم أنظمة الحكم إلى استبدادية أو أرستقراطية وديمقراطية، وقد حمل مونتسكيو حملة شعواء على الحكومات الاستبدادية واعتبرها حكومات قد تجردت من الشرف والفضيلة (٣). ويحدد مونتسكيو العوامل التي تشكل شخصية الأمم المختلفة وحضارتها، فيردها إلى عوامل طبيعية أو معنوية. أما العوامل الطبيعية فهي عوامل جغرافية، بمعنى أن الناس فى مختلف الأقاليم يختلفون تبعاً لعوامل المناخ وطبيعة الأرض والموقع، ذلك أن للمناخ أثراً على كل أجزاء الجسم الإنسانى، ومن ثم يتشكل مزاج الإنسان وأخلاقه وعاداته، فحيوية الناس فى المناطق الباردة غيرها فى المناطق الحارة. أما العوامل المعنوية التي تشكل بدورها قوانين الدولة ونظام الحكومة فأهمها المسائل الاقتصادية وأمور الدين، أما المسائل الاقتصادية فيعرض مونتسكيو لأنظمة التجارة والضرائب فى بعض المجتمعات

(١) المرجع السابق، ج٢ ص ٣١.

(٢) رأفت الشيخ: فى فلسفة التاريخ، ص ١٢٢.

(٣) أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ٨٤.

القديمة خصوصا الإمبراطورية الرومانية، وانعكاس ذلك على عدد السكان وحركتهم ونموهم أو تدهورهم، أما بالنسبة للدين فيرى مونتسكيو أن الإسلام أكثر ملاءمة لشعوب الشرق، بينما المسيحية تناسب الأوربيين لأسباب جغرافية من جهة، ومتعلقة بشكل الحكومة من جهة أخرى^(١).

والواقع أنه لا يمكن بطبيعة الحال إنكار الصلة القائمة بين الحضارة والظروف الطبيعية مثل المناخ والأحوال الجغرافية الأخرى، التي تنشأ بين حضارة ما، ولكن الذي يحدد شخصية تلك الحضارة ليست عوامل الطبيعة في حد ذاتها، وإنما هو الإنسان الذي في استطاعته أن يتمرد ضد الظروف الطبيعية ويتحداها بل ويسخرها، وهذا يعتمد على نوعية ذلك الإنسان^(٢).

وينتمي جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٩) إلى عصر الاستنارة، وهو فرنسي من مدينة جنيف، وكان يكره جميع القيود من أى نوع، ويجد السعادة الكبرى في الإنطلاق الحر لانفعالاته. ويرى روسو أن الإنسان يولد طبيبا بطبعه، حراً، وأن التنظيم الاجتماعي قد وضع الأغلال في يديه، وأن قدرة الإنسان على حرية الاختيار وقدرته على بلوغ الكمال بنفسه، هما الخلتان اللتان تميزانه قطعاً عما دون الإنسان من حيوانات، وإذا كان عليه أن يحتفظ بمكانته الحقة كإنسان، فلا بد له من الاحتفاظ بتلك الحرية. وقد سلم روسو بأن الناس بينهم «تفاوت طبيعي»، ولكن هذا التفاوت غير بالغ الضخامة، ولا هو من بالغ النفوذ ما يدعى له كثيراً^(٣). ويعتبر كتاب روسو «العقد الاجتماعي» Contract Sociale أبعد مؤلفاته شهرة وأكثرها انتشاراً، وقد خلع عليه مؤرخو الفلسفة إسم «إنجيل الثورة

(١) المرجع السابق، ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضي، ص ٥٤.

(٣) ويجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج ٢ ص ٣٥.

الفرنسية، وسماه آخرن «دستور الثورة»، وذلك لما يتضمنه من آراء واتجاهات سياسية ساعدت على انفجار مراحل الثورة الفرنسية التي كانت تغلى فى قلوب المجتمع الفرنسى (١).

أما أبرز الكتاب بين مؤرخى المدرسة العقلانية فهو المؤرخ والكاتب إدوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) Edward Gibbon. ومن المعروف أن جيبون قد أصدر بين عامى ١٧٧٦ و ١٧٨٨ كتابه الشهير «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها». واختلفت الآراء اختلافاً بالغاً حول جيبون، فمن الناس من اعتبره أعظم المؤرخين الإنجليز. ومن حسن الحظ أنه كان رجلاً بليغاً فخم العبارة، وقد نجح إلى حد كبير فى أن يضع قارئه فى العصر الذى يتحدث عنه، حتى أنك لتسمع وأنت تقرأ وصف خروج جيش قيصر من روما للحرب، وقعقة العجلات، وصلصلة السيوف، وصهيل الخيل. ويلاحظ أن كتاب جيبون لا يتميز بفلسفة خاصة للتاريخ، بل إن الدقة والاستفادة الكاملة من المراجع تنقصه فى أحيان كثيرة، ولكنه كان أول غربي كتب فى العصر الحديث دراسة تاريخية لدولة كبرى وهى الإمبراطورية الرومانية، قص فيها تاريخها كاملاً، وكان إقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم إياه كافياً لرفع قدر التاريخ إلى مستوى أهم فروع العلم وأجدرها بالعناية (٢). ويقول الأستاذ بارنز (٣): «ومع أن جيبون كان أقل ابتكاراً وتأثيراً من فولتير على مجرى الكتابة التاريخية فى العصور التالية، إلا أن شهرته بين جماهير المثقفين - غير المؤرخين المحترفين - فاقت شهرة فولتير، ويرجع ذلك إلى أن موضوع بحثه الخاص بانهيار الحضارة الرومانية كان مقصوداً به أن يأخذ بالباب

(١) رأفت الشيخ: فى فلسفة التاريخ، ص ١٢٧.

(٢) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٧١ - ٧٢.

(٣) تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ٢٢٣.

الجماهير، ولهذا فإن كتابته عن هذا الموضوع أخذت شكل الملاحم. ثم إن جيبون نظم عمله بطريقة فذة، وكان أسلوبه رقيقاً ومؤثراً يدخل البهجة على نفس قارئه، فضلاً عن أن عمله تميز بدقة متناهية، وهو أمر مدهش بالنسبة لعصر جيبون. ولقد ظل كتابه «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» مرجعاً يهتدى به ومصدراً لا يرقى إليه الشك طوال قرن ونصف. وعلى هذا فإن هذا الكتاب لم يكن كتاباً رائعاً مشهوراً فحسب بل وعملاً خالداً.

ويرى جيبون أن الديانة المسيحية كانت من أهم عوامل سقوط الإمبراطورية الرومانية، لأنها - على حد قوله - قد قضت على العبادات القديمة التي كانت الدعامة الخلقية للرومان، كما أنها ناصبت الثقافة القديمة العداء، فحاربت العلم والفلسفة والأدب والفن، وأتت بالتصوف الشرقي الواهن بدلاً من الفلسفة الرواقية التي كانت متغلغلة بواقعيتها في الحياة الرومانية، وحولت أفكار الرومان عن واجباتهم، وأغرثهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة، وشجعت أتباعها على الامتناع عن أداء الخدمة العسكرية، وبهذا كله كان انتصار المسيحية إيذاناً بالقضاء على روما^(١).

وعلى أية حال، فقد تغيرت الأوضاع في القرن التاسع عشر الميلادي وخاصة النصف الأخير منه الذي اتصف بأنه عصر الكتابات التاريخية المرموقة ذات النظرة الدنيوية السليمة، بعد أن ضعف الاهتمام بمسائل الغيبيات والقوى الخارقة للطبيعة والأساطير. ولاشك أن اكتشافات العلم الحديث والنقد الموجه إلى المعتقدات الدينية القديمة قد أضعف من شأنها. ولم تعد الأفكار التي سيطرت على فكر المؤرخ التقليدي وهي اهتمامه

(١) أنظر محمود الحويضي: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٨٢ - ١٨٤.

الفصل الخامس

كتابة التاريخ عند المسلمين

المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام
التدوين التاريخي عند المسلمين
ابن خلدون وكتابة التاريخ

المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام:

كان لعرب الشمال قبل ظهور الاسلام نصيبهم من الأخبار التاريخية التي تختلط فيها الحقائق والأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينهما من الأمور الصعبة لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتمحيص، والموازنة والتحقيق، وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى «أيام العرب». وقد سميت بذلك الاسم لأن العرب كانوا يتحاربون نهاراً، فإذا أتى عليهم الليل أوقفوا القتال حتى الصباح. وتدور مادة «أيام العرب» حول الحروب والوقائع العظيمة والمعارك التي وقعت بين القبائل العربية كحرب البسوس وداحس والغبراء وذى قار وغيرها. ومما يميز «أيام العرب» هو استشهادها بالشعر الذي يعتبر سناً للأخبار المروية، ولكن يؤخذ عليها أنها معلومات متفرقة لم تكن تعدو قصصاً خرافية تخلو من الصفة التاريخية، ويعوزها الربط والحبكة التاريخية، وينقصها التاريخ الثابت المعين، بالإضافة إلى أنها لاتخلو من التعصب والتحيز لبعض القبائل.

وعلى الرغم من المسحة الخيالية والأسطورية لأيام العرب، فلاشك في أنها قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية الحقيقية، بحيث يمكن الاعتماد عليها باعتبارها مصدراً هاماً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، بل إنها سبيل لفهم ما وقع بين العرب قبل الإسلام من حروب شجرت بين القبائل، ووقائع كانت بين البطون والأفخاذ والقبائل، كما كان لها تأثير في نشأة علم التاريخ بعد الإسلام^(١).

والواقع أنه إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية فى العصر الجاهلى، لم نكد نظفر بشيء، حتى البلدان

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٧٠ - ٧١.

المتحضرة التي كما نظن أنها تعرض على تسجيل حياتها وحضارها، مثل اليمن والحيرة وغانان، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا. وكان تاريخها منسيا لدى العرب، سكانها أو غير سكانها، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام، وطاف بهم الخيال، حتى أننا لم نستطيع أن نتثبت من حقيقة ما يقولون، أو نركن إليه، على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية في اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوبي الشام، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميري والخطوط الأخرى في بلاد العرب القديمة. والشيء الوحيد الذي نسمع عنه هو تلك المدونات التاريخية المودعة في أديرة الحيرة وكنائسها، وإن كنا لانعرف عنها شيئا فيما عدا ذلك^(١).

ولم تكن الكتابة في العصر الجاهلي واسعة الانتشار، ولكنها مع ذلك لم تكن مجهولة ما، بل كانت شائعة الاستعمال في كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل، ولكن العقلية الجاهلية كانت أقدر على قرض الشعر منها على معالجة كتابة التاريخ، كانت عقلية شديدة التعصب للقبيلة، نزاعة إلى الأسطورة والخرافة، قليلة الصبر على المراجعة والتحقيق، متشعبة بروح عصرها وتقاليدها، ومثل هذه الحالة لاتعوق قرض الشعر، بل قد تكون من بواعث التشجيع على نظمها، لأن فيها ما يحفز الخيال ويثير العاطفة، ولكنها عقبة في طريق النضج الذي تستلزمه الكتابة التاريخية^(٢).

ولما كان عرب الشمال شديدي العناية بأنسابهم، كثيرون الفخر والاعتزاز بأقار أسلافهم، فقد حفظت الأنساب عنصراً أساسياً من كيان

(١) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب (القاهرة بدون تاريخ، ص ٥.

(٢) علي أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٥.

المجتمع القبلى باعتبارها مادة تاريخية من الدرجة الأولى تفيد فى الحفاظ على مقومات هذا المجتمع. وظلت الأنساب باعتبارها نمطاً من أنماط المعرفة التاريخية تؤدي دورها بعد الإسلام فى خدمة المجتمع العربى (١). وقد تطورت الأنساب فى صدر الإسلام، حيث جرى تكريس النسب لخدمة الأهداف السياسية، بل إن الاهتمام بالأنساب صار من مشاغل الحكومة التى استخدمت الأنساب فى عدد من النواحي الإدارية، حيث تم تنظيم العمل فى ديوان العطاء، واختطاط المدن وسكانها على أساس النسب، كما لعبت الأنساب دوراً أساسياً فى الشؤون العسكرية إبان حركة الفتوحات العربية. ومن المعروف أن كثير من الناس فى عصور الثقافة العربية كانوا ينتحلون نسباً يصلهم بالنبي ﷺ، أو آل البيت، أو لقريش على الأقل (٢). وعلى أية حال، اهتم العرب فى العصر الجاهلى بالاحتفاظ بأنسابهم وشجرات أنسابهم. ولما جاء الإسلام بمبدأ «إن أكرمكم عند الله أتقاكم، خبا هذا الحماس لفترة محدودة فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، ثم أخذ فى الظهور فى عصر الدولة الأموية لاعتبارات سياسية.

استمر تداول «أيام العرب» شقاًها إلى أن بدىء فى تدوينها فى العصر الأموى. ومن المؤرخين العرب الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الإسلام عبيد بن شربة الجرهمى اليمنى (المتوفى عام ٥٧٠هـ تقريباتاً)، ووهب بن منبه (ت ١١٠هـ)، ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ)، وابنه هشام الكلبي (ت ٢٠٤هـ)، وأبى مخنف الأزدي (ت ١٥٧هـ)، وسيف بن عمر الكوفي الأسدي (ت ١٧٠هـ)، والمدائني (ت ٢٢٥هـ)، والزبير بن بكار (ت ٢٥٩هـ).

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٨.

وكان عبيد بن شرية الجرهمي اليمنى قصاصاً أخبارياً، اتخذه معاوية ابن أبي سفيان سميراً ومحدثاً يروي طرائف الأخبار المتقدمة وغرائب الأحاديث والسير، وقد دونت أحاديثه في كتاب عنوانه «كتاب الملوك وأخبار الماضين»^(١). ويتناول عبيد في هذا الكتاب تاريخ موطنه اليمن، بادئاً باجتماع البشر في بابل، ثم تفرقهم شيعا، وخروج بعض بني سام إلى اليمن، ثم يأخذ في سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين، معتنياً بمن أرسل إليهم من أنبياء. وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة، لافي تطور حركة التأليف فحسب، وإنما لأنه يكشف النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الإسلام، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية وخاصة في اليمن، وتظهر الثقافة الإسرائيلية بارزة في الكتاب كله^(٢).

أما وهب بن منبه، فقد كان يمنياً من أهل ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن، وقيل إنه كان يهودياً وأسلم، وينسبون إليه معظم الإسرائيليات الواردة في المصادر العربية، وقد ركز وهب بن منبه على أخبار اليمن في الجاهلية. ومن الكتب المنسوبة إليه كتاب «الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»، ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا الكتاب. ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي الخرافي، وقد حمل ذلك المؤرخ هاملتون جب إلى القول بأن كتابي وهب بن منبه وعبيد بن شرية يمداننا ببرهان ساطع على أن العرب الأول كانوا يفتقرون إلى الحس والمنظور التاريخيين، حتى عندما يتطرقان إلى ذكر أحداث تكاد تكون معاصرة لهما^(٣).

(١) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٩.

(٢) حسين نصار: نشأة الكتابة القلبية في الأدب العربي (القاهرة ١٩٥٤)، ص ١٨١ - ١٨٧.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب (الإسكندرية ١٩٨٧)، ص ٤٦-٤٧؛ على أدهم: بعض مؤرخي الإسلام، ص ٩ - ١٠.

أما هشام بن محمد بن السائب الكلبى، فقد كان أبوه محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ) غزير العلم بالأنساب واللغة والتاريخ، وخلفه إبنه فى علم الأنساب، فتنبع دراسات أبيه فى الأنساب وتقدم بها. وكتب هشام فى أخبار الأوائل، وفيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية، وفى أخبار الشعراء وأيام العرب والأخبار والأشعار. ويعتبر ابن هشام من أعظم الإخباريين فى تاريخ العرب فى الجاهلية، وكان يعتمد على الأصول والمصادر التاريخية التى تتعلق بموضوع دراسته (١).

التدوين التاريخى عند المسلمين:

وفى أوائل عهد الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب والغزوات حتى توطدت مكانة الإسلام، ورست قواعده، وعلت مكانته. ولما هدأت فورة الفتوحات، وحدث الاستقرار، وقامت مراكز علمية هامة فى الأمصار الإسلامية، بدأ المسلمون يتجهون إلى إثبات الأخبار، وتسجيل الأحداث، وأقبلوا على جمع الأحاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم. وقد عنى المسلمون ولاسيما الصحابة منهم بحفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

أما القرآن الكريم فهو كتاب الله تعالى أنزله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. وفى القرآن الكريم شىء من أخبار العرب قبل الإسلام ولاسيما ذكر بعض القبائل العربية القديمة مثل عاد وثمود، فضلا عن قصص الأنبياء وموضوع سيل العرم وقصة لقمان وأصحاب الفيل وبعض أخبار ملوك اليمن. ومن سور القرآن الكريم التى جاء فيها بعض أخبار العرب القدماء سورة البقرة وآل عمران والنساء والكهف والحاقة (٢).

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٣٤٨، السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢) سيدة إسماعيل كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه (القاهرة ١٩٧٦)، ص ١٦-١٥.

وعلى الرغم من أن الكشوف الأثرية قد أيدت صحة ما جاء في الكتب المقدسة - ولاسيما القرآن الكريم - عن بعض أخبار العرب القدماء، فإن المستشرقين لا يميلون إلى الاعتماد على الكتب المقدسة في ميدان التاريخ، إذ أنهم يرون أن ما جاء فيها سرد بأسلوب مختصر وأنه كان يهدف - وخاصة القرآن الكريم - إلى عبرة أخلاقية، فضلا عن أن بعض أخبارها لا يزال غير واضح، وينقصه التحديد الزماني - المكاني (١).

وبعد وفاة الرسول ﷺ كان لابد من حفظ كلام الله، ويظهر أن الجمع الأول للقرآن الكريم بعد الرسول الكريم كان في حياة أبي بكر الصديق، إذ يروى أن عمر بن الخطاب خشى بعد مقتل عدد كبير من القراء في الحرب مع مسليمة الكذاب، أن يقتل قراء آخرون في معارك أخرى فيضيع شيء من القرآن، ولذا اقترح علي أبي بكر الصديق جمع القرآن وأقنعه بوجهة نظره. وتروى أغلب الروايات أن أبا بكر عهد إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي للرسول الكريم بجمع القرآن، وقد أتم زيد هذا الجمع، وأعطى نسخته لأبي بكر، وقد خلفها أبو بكر لعمر بن الخطاب الذي تركها بدوره عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ، أما جمع القرآن النهائي فقد تم في عهد عثمان بن عفان (٢).

أما الأحاديث فتتصل اتصالا وثيقا بنشأة التاريخ عند المسلمين بعد القرآن الكريم وتعنى كلمة «حديث» في الأصل «الخبر» أو «الرواية الشفوية» في موضوع ديني أو دنيوي. ثم اتخذت معنى خاصا في الإسلام فصارت تعنى أقوال الرسول ﷺ. أما كلمة «سنة» فتعنى طريقة التصرف العادي في النواحي الاجتماعية والدينية والقانونية. فالحديث يشير للقول، والسنة تشير للعمل (٣).

(٢) نفس المرجع، ص ١٧.

(١) نفس المرجع ص ١٦.

(٣) نفس المرجع، ص ١٩.

وفى البداية كان الصحابة أى الذين عاشوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وصحبوه خير مصدر للمعلومات عن الحديث، فقد سمعوا الرسول الكريم نفسه يتكلم وشاهدوا أعماله، وبعد ذلك أخذ الناس الأحاديث والسنة عن «التابعين» أى الجيل التالى لعصر النبوة الذين سمعوا الحديث عن الصحابة، ثم أخذ بعد ذلك عن التابعين «تابعوا التابعين»^(١). ولذا نرى أن كل حديث كامل يتألف من قسمين: القسم الأول هو سلسلة رواة الحديث على التوالى ويسمى «الإسناد» أو «السند» لأنه يثبت صحة الخبر، ويبدأ السند بآخر راو للحديث ويتدرج إلى الشخص الذى صدر عنه الحديث، والقسم الثانى للحديث «المتن» أو محتويات الحديث^(٢).

وقد كان علم التاريخ عند المسلمين فى البداية وثيق الصلة برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم، وذلك لأن المسلمين عندما اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره ودراسة الأحاديث النبوية، احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات والمشاهد التى وردت فيها الأحاديث، ولذا عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية وأخبار الغزوات ومن ساهم فيها. وقد حوى القرآن الشرائع والأحكام والأخبار، وكان هم المسلمين تلاوته وتفهم أحكامه وإشاراته لأنه وضع أسساً للحياة والدين، وقد شكل عليهم فهم بعض أحكامه وتفسير جانب من معانيه، فعمدوا إلى الأحاديث ليستعينوا بها على توضيح المشكل وجلاء الغامض، وصار شغلهم جمع الأحاديث ممن سمعوها أو رواها أحد سامعيها بالإسناد المسلسل، أى الإسناد المتصل من الرواة الموثوق بهم، وقد وجدوا تبايناً ولونا من ألوان التناقض فى الروايات، فبذلوا جهداً فى التفريق بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

الزائفة المدسوسة، وقد جرهم ذلك إلى دراسة طبقات المحدثين، والوصول إلى درجة تدقيق كل منهم في نقل الأحاديث^(١).

وأقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين الحديث والتاريخ هي كتب المغازى والسير، وتعنى المغازى غزوات الرسول ﷺ وحروبه التي قام بها لقتال المشركين والدفاع عن الدين الجديد. وكان من الطبيعي أن تكون نشأة المغازى والسير في المدينة المنورة بوصفها دار السنة التي عاش فيها الصحابة وشاهدوا الرسول الكريم وسمعوا أحاديثه ورووها إلى التابعين، ولم تنتشر الكتابة في تاريخ المغازى والسير من المدينة إلى غيرها من الأمصار إلا في القرن الثاني للهجرة^(٢). وكانت كتب المغازى والسير تعتمد على الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، والتي يتحرى في جمعها الصحة وتلتزم الدقة، وكان لذلك فضل كبير في رفع مستوى الكتابة التاريخية والاتجاه بها إلى الطريق السوي، وقد كان لهذا الاتصال بين رواية الأحاديث وكتابة التاريخ تأثير بالغ في الطريقة التي سار عليها مؤرخو الإسلام في كتابة التاريخ^(٣).

وكانت أخبار المغازى والسير مبعثرة في داخل الأحاديث من غير تبويب يؤلف بينها أو يجمعها في باب واحد، فلما رتب الأحاديث في أبواب وكتب، استقلت السيرة والمغازى بأبواب مستقلة في كتب الحديث ذاتها، ثم لم نلبث أن وجدناها - أي المغازى والسير - مستقلة قائمة بذاتها في كتب مستقلة منفصلة عن كتب الحديث^(٤). وقد توسعت دراسة

(١) مارغوليفوت: دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة د. حسين نصار (بيروت بدون تاريخ)، ص ٣٠ - ٣٣، على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٦ - ٤٧، بعض مؤرخي الإسلام (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٥ - ٦.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٢٦.

(٣) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٩.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٣١٩-٣٢٠، محمد عبدالغنى حسن: التاريخ عند المسلمين (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١٥-١٦.

المغازى فيما بعد، فأصبحت تشمل الوقائع والحروب التى خاضها العرب بعد وفاة الرسول الكريم، ضد غيرهم من الأمم الأخرى فى سبيل نشر الإسلام، ويلاحظ ذلك فى الكتابات التى وردت عن القادسية واليرموك ونهاوند وذات الصوارى وغير ذلك. كما أنها شملت الوقائع والحروب الأهلية التى نشبت بين العرب كالجمل وصفين والحرّة وغيرها.

وظهر بجانب مؤرخى المغازى والسير طائفة أخرى من الإخباريين، الذين اهتموا بالأخبار القديمة والقصص اهتماماً طغى على المغازى والسير. ويبدو أنهم وجدوا فى هذا اللون من الأخبار والحكايات والنوادر والأشعار تسلية للسامع قبل التدوين، وللقارىء بعد عصر التدوين، كما وجدوا فيها ملء مجالس السمر عند الأمراء. ومما يذكر أن المساجد اتسعت للإخباريين الذين كانت أخبارهم تحتوى على كثير من التواريخ المزدحمة بالقصص والأساطير والبطولات المبالغ فيها، والأشعار المثيرة للانفعالات، وأخبار القبائل وما كان يدور بينها. وهذا اللون من الأخبار كان مزيجاً اختلط فيه الواقع بالخيال، والحقائق بالأوهام، ويروى صاحبه خبراً صحيحاً ويمزجه بأخبار مخرعة، ويرويها كلها على أنها وقائع ثابتة، وأحداث صادقة فهو يرويها كما يروى التاريخ، ولكن لا يدقق فيها كما يدقق المؤرخ. ولا شك أن هؤلاء الإخباريين كانوا يرواياتهم النواة الأولى للرسائل التاريخية التى أخذت بعد ذلك تظهر وتؤرخ لأحداث بزغت منذ العهد الإسلامى، كحوادث الردة، وفتوح الشام والعراق، ومصارع الخلفاء، والخلاف بين الأمويين والعلويين، وقيام الدولة العباسية، وغير ذلك من الأحداث التاريخية التى أخذت تظهر بكثرة فى العالم الإسلامى، ومن المؤكد أن هذه الرسائل المدونة كانت النواة الأولى للمؤرخين الذين اعتمدوا عليها فى تدوين تواريخهم العامة، كالذى نجده فى كتاب الطبرى (١).

(١) أحمد أمين: منحة الإسلام، ج ٢، ص ٣٥٦، محمد عبدالغنى حسن: التاريخ عند المسلمين، ص ٢٢٠١٩.

وعلى أية حال، ألف في سيرة الرسول ﷺ ومغازيه جماعة من المؤلفين والرواة والمحدثين، جاءوا على طبقات. وأول من عرف بالتأليف أبان بن الخليفة عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ، وقد كان والياً على المدينة للخليفة الأموي عبدالملك بن مروان سبع سنين، وعرف بالحديث والفقہ. ويقول ابن سعد أثناء حديثه عن المغيرة بن عبدالرحمن: «وكان ثقة قليلة الحديث، إلا مغازي رسول ﷺ، أخذها عن أبان بن عثمان، فكان كثيراً ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها،(١)».

أما عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ فهو من معاصري أبان بن عثمان، ومن أشرف البيوت وأنبها، أخو عبدالله بن الزبير ومصعب بن الزبير، أبوهم الزبير بن العام. ولم يقتصر عروة على الروايات الشفوية، بل دون بعض الأحداث طلبها منه عبدالملك بن مروان. وتمثل كتابات عروة أقدم المدونات التي وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة في حياة النبي ﷺ، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية. وقد مكنته نسبه من أن يروي الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبي ﷺ وحياة صدر الإسلام، فروى عن أبيه الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر، وروى الكثير عن خالته عائشة(٢).

ومن أشهر مؤرخي السيرة أيضاً شرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣ هـ (٧٤٠ م)، كان مولى من موالى الأنصار، روى كثيراً عن زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة. وقد أسهم شرحبيل في كتابات السيرة أثبت فيها أسماء الصحابة الذين اشتركوا في غزوة بدر، وأسماء

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١، حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص ١٩٣.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٢١-٣٢٢، حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص ١٩٤-١٩٥.

الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة أحد، كما أورد أسماء المهاجرين إلى الحبشة، وأسماء من هاجر من مكة إلى المدينة^(١).

واشتهر محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) من بنى زهرة بسعة العلم وسعة الأنساب، ويعتبر من أعظم مؤرخى المغازى، وساعد حبه لجمع الأخبار ذاكرة قوية، وقد ألف كتابا عن القبائل العربية بأمر من خالد القسرى والى العراق، ولكنه لم يتمه، كما ألف كتابا فى سيرة النبى ﷺ، ولكن هذا الكتاب لم يصلنا^(٢). وقد عرف الزهرى بقوة أسانيده، وامتاز عن غيره فى ذلك بنوع جديد من الإسناد، هو الإسناد الجمعى، حيث يدمج عدة روايات فى خبر متسلسل، وقد سار بذلك خطوة هامة نحو الكتابة التاريخية المتصلة^(٣).

وهناك كاتب آخر بين كتاب المغازى القدامى وهو عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى المتوفى سنة ١٣٥ هـ (٧٥٣ م)، كان من أهل المدينة، وكان جده الأعلى عمرو بن حزم من كبار الصحابة، بعثه رسول الله إلى أهل اليمن ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام. وأما أبوه أبو بكر فقد ولى قضاء المدينة فى ولاية عمر بن عبدالعزيز، ثم ولى أمر المدينة فى خلافة سليمان بن عبدالمالك وعمر بن عبدالعزيز، وعرف أبو بكر بمقدرته فى رواية الحديث، ولذلك عهد إليه عمر بن عبدالعزيز بجمع الحديث. وورث إبنه عبدالله بن أبى

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٣؛ السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٥٧.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٢٨ - ٢٩؛ حسين نصار: نشأة التدوين التاريخى عند العرب، ص ٦.

(٣) عبدالعزيز الدورى: بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت ١٩٦٠) ص ٩٤؛ السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥٩.

بكر هذه المواهب، فاختص برواية الحديث المتصل بالمغازي، فكان حجة في ذلك، وعنه روى ابن إسحاق والواقدي وابن سعد والطبري، فرويت له أخبار تتعلق ببداية حياة النبي ﷺ، ووفود القبائل إلى رسول الله، وأخبار في حروب الردة وغيرها^(١).

ويظهر محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥١هـ (٧٦٨م) تقريبا وقد نشأ بالمدينة، ولقى كثيراً من علماء المدينة وأخذ عنهم الحديث، وكان يجمع الأحاديث وخاصة ما اتصل منها بالمغازي حتى اشتهر بها، وروى عن الشافعي أنه قال: «من أراد أن يتجر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق». ولابن إسحاق فضل جمع الأحاديث وترتيبها وتبويبها وسلسلتها، وربما كان هو أول من فعل ذلك، وحذا حذوه من بعده^(٢). وقد ألف ابن إسحاق كتاباً غطى به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين، وجذب أنظار المتأخرين على الدوام، ويسمى كتاب ابن إسحاق هذا «كتاب المغازي»، ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية، ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه في سيرة بن هشام^(٣). وقد أشار ابن النديم في كتاب الفهرست إلى كتاب لابن إسحاق سماه «كتاب الخلفاء»، ولنا نعرف شيئاً عن مادة هذا الكتاب، ولكن الراجح أنه كان موجزاً وأن ابن إسحاق تناول فيه المغازي خاصة، وإن كان الطبري قد ذكره بين رواة في تاريخ الخلفاء الراشدين^(٤). وكان ابن إسحاق غاية في النزاهة في تاريخه، بدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تحيز، حتى لقد روى أشعار المشركين

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٢٤ - ٣٢٥، السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٥٧.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٢٨ - ٣٣٢.

(٣) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب، ص ٥٨ - ٥٩.

(٤) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٣٠، حسين نصار: المرجع السابق، ص ٧٣.

فى هجاء الرسول ﷺ وأصحابه، وحتى اضطر ابن هشام أن يلفظ من حدة بعض عبارات هذه الأشعار أو أن يحذفها (١).

ومن المؤرخين الذين حازوا شهرة واسعة فى القرن الثانى الهجرى محمد بن عمر الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧هـ (٨٢٣م)، وكان من أهل المدينة. ويعد الواقدى أعلى منزلة من المدائنى والكلبى كليهما، ويقال إنه سمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى، وكلاهما من أسمى الفقهاء منزلة، ويقال أيضا إنه لقى ابن جريج الذى يرتبط إسمه بمبتدأ دراسة الحديث. وكان الواقدى حجة فى الحديث والفقہ والتاريخ، وقد ولاه هارون الرشيد القضاء بشرقى بغداد، ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي (٢). وله مؤلفات عديدة فى القرآن والحديث والفقہ والتاريخ، ومن بين الأخيرة كتاب «التاريخ الكبير»، وكتاب «الطبقات»، وكتاب «السيرة»، وكتاب «المغازى»، وكتاب «أخبار مكة»، وكتاب «فتوح الشام» (٣)؛ ولا شك أن جميع هذه الكتب لو بقيت، لكان لها قيمة تاريخية كبيرة. وقد كانت كتب الواقدى عمدة للمؤرخين بعده اقتبسوا منها ووصلت إلينا مقتبساتهم. وأياما كان، فقد كان الواقدى من أوسع الناس علما فى عصره بالمغازى والسير، كما كان واسع العلم بالحديث والتفسير والفقہ، وكان من أكبر المصادر التى عول عليها الطبرى فى تاريخه (٤).

ومن أوسع كتاب القرن الثانى الهجرى علما وأكثرهم مؤلفات فى التاريخ والسير على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥هـ (٨٤٠م)،

(١) حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى، ص ٢٢٩.

(٢) مارجوليوت: دراسات عن المؤرخين العرب، ص ١٠٥.

(٣) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٣٠ - ٣١؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٣٣.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٣٥ - ٣٣٧.

وهو عراقي من أهل البصرة، سكن المدائن، ومنها انتقل إلى بغداد. وقد ذكر ياقوت الحموي من مؤلفات المدائني عدداً كبيراً من الكتب، منها كتاب عن أمهات النبي ﷺ، أي جداته، وآخر عن صفته، وكتاب عن أخبار المنافقين، وكتاب عن عهود النبي الكريم، ومنها كتاب عن أخبار قريش، ومجموعة أخرى من الكتب في أخبار الخلفاء، وأخبار النساء، وكتب أخرى في الأحداث منها كتاب «الزدة»، وكتاب «الجمل»، وسلسلة أخرى من الكتب عن الفتوح، منها كتاب «فتوح الشام»، وكتاب «فتوح العراق»، ومنها كتب في أخبار العرب وأخرى في أخبار الشعراء وأخبار الخيل. ومن الواضح أن المدائني كان جهده ضخماً، وقد انتفع مما كتبه المؤلفون الذين جاءوا بعده فأكثرُوا من النقل عنه^(١).

والحقيقة أن أكثر ما كتبه المؤرخون المتقدمون قد فقد وضاع، أو لحقه التحريف وأضيف إليه ما لم يكن به، ولم يصل إلينا منها كاملاً سوى سيرة عبدالمالك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م)، والمعروفة بسيرة ابن هشام، وهي مختصرة من سيرة ابن إسحاق. ولكن جهد هؤلاء المؤرخين لم يذهب عبثاً، فقد مهدوا السبيل لظهور كبار المؤرخين المسلمين الذين لا يتسع المجال لذكرهم، أمثال الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، واليعقوبي (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، والمسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، ومسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وابن الأثير (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) وغيرهم من المؤرخين البارزين الذين أفادوا مما جمعه رواد المؤرخين، واستهدفوا الاستقلال في الرأي وتوخوا الصدق في الرواية.

وتدل أكثر القرائن على أن التاريخ الإسلامي نشأ نشأة مستقلة غير متأثرة بما كتبه المؤرخين اليونان أو الرومان أو الفرس، فلم يعرف

(١) مارجوليسوت: المرجع السابق، ص ٩٦-١٠٥، على أدم: تاريخ التاريخ، ص ٥٣، بعض مؤرخي الإسلام، ص ١٦.

العرب أمثال هيرودوت وثيوكيديدس وزيتون عند اليونان، أوليفيوس وتاكيثوس عند الرومان. وكان أوائل المؤرخين عرباً، سواء كانوا من الجنوب أو من الشمال. ولكن هذه الحركة العربية ما لبثت أن تأخرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس، بل صار جميع المؤرخين من الموالى في أواخر القرن الثاني من الهجرة^(١).

ويمتاز معظم المؤرخين المسلمين بأنهم لم يكونوا موظفين حكوميين، ولم يؤلفوا تبعاً لأمر من القائمين بالحكم، وإنما كانوا أناساً عنوا بالتاريخ وتوفروا عليه لمجرد الرغبة الشخصية، وحباً في ذلك العلم، ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلو لهم من كتب، وعما يحلو لهم من حوادث^(٢).

ويستهل الأستاذ بارنز^(٣) حديثه عن المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى بقوله: «كانت حضارة الشعوب الإسلامية لا الحضارة المسيحية هي أرقى حضارات العالم وأكثرها تقدماً في العصور الوسطى. وكذلك كان بعض أقدر مؤرخي العصور الوسطى من المسلمين، وأعظمهم ابن خلدون الذي فاق بمراحل أي مؤرخ مسيحي في العصور الوسطى في تفهمه لمبادئ التقدم الإنساني والثقافي، وحتى ظهور فولتير في القرن الثامن عشر لم يكن مؤرخ مسيحي يساميه في هذا الاعتبار، والمؤرخون المسلمون في مجموعهم إذا قارناهم بالمؤرخين المسيحيين فإنهم يمتازون باستقلال الرأي والنزاهة النسبية، كما كانوا خيراً منهم في استعمال التسلسل التقويمي، وكان تاريخهم للمواد والأحداث أدق بكثير من الكتاب المسيحيين».

(١) على أدم: بعض مؤرخي الإسلام، ص ٢٣؛ حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب، ص ٦٨.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٤٩؛ حسين نصار: المرجع السابق، ص ٧٠.

(٣) تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ١٣٧.

ابن خلدون وكتابة التاريخ:

ولد عبدالرحمن بن خلدون في مدينة تونس سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م)، وأصله من حضرموت، ونزحت أسرته إلى بلاد المغرب أثناء الفتح الإسلامي للأندلس، واستقرت أسرته في تونس في منتصف القرن السابع الهجري. وقد تنقل ابن خلدون كثيراً بدول شمال أفريقية في الفترة الواقعة بين سنتي ٧٥١ و٧٧٦هـ، وكانت هذه الفترة تشتعل بالفوضى والاضطراب السياسي، ثم انتقل إلى القاهرة، حيث عمل بها معلماً وقاضياً، واشتغل بالتأليف حتى وافته المنية في رمضان سنة ٨٠٨هـ (مارس ١٤٠٦). وكان لأسفاره ومغامراته السياسية واتصاله بكثير من ملوك النصارى بالأندلس إلى خان التتار بالشام فضل في تكوين فلسفته التاريخية.

ويعتبر ابن خلدون أهم من أرخ للحضارة الإسلامية من المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى، حتى عرف عند المؤرخين بأنه واضع أساس علم التاريخ. فبينما نرى أن غيره من المؤرخين اتجه إلى سرد الأحداث التاريخية والتأريخ للشخصيات، ولم يعنوا بدراسة العوامل الاقتصادية والاجتماعية، إذا بابن خلدون في مقدمته المشهورة في مؤلفه الضخم المسمى «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر»، فصولا طويلة للكلام على نظم الحكم والسياسة في العالم الإسلامي، ويبحث ما عرفه المسلمون من مهن وصناعات ونظم اقتصادية وعلوم وفنون، ويضع لكتابة التاريخ منهجاً جديداً من نقد الحقائق وتعليقها، ويجعل المجتمع وتكوينه ونظمه وتطورها موضوعاً للدرس العميق والتفكير الحر^(١).

(١) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ٦٠.

ويقابل ابن خلدون الحضارة،، وما يسميه الملك، ويقصد به السيادة أو الدولة، لأن الملك في رأيه ضرورة لازدهار العمران، والحضارة لا يكفي أن تكون في الحضر، ولكن يجب أن تلازمها سيادة، وبمعنى آخر نظام واستقرار، حيث تنمو وتزدهر وتتطور. ويرى ابن خلدون أن لكل حضارة عمراً معلوماً، ويجعلها تمر بأطوار في الحياة مثل الإنسان، وأنه لا بد أن ينزل بها الهرم، وأن كل حضارة تحمل في طياتها جرثومة عدم الكمال، وفي اللحظة التي تبلغ فيها الحضارة أوجها، يبدأ الانحلال والسقوط. كما يرى ابن خلدون أن أشد أعداء الحضارة الترف، فالحضارة تتدرج من الخشونة إلى الترف، وأن الخشونة وحدها هي التي تحفظ الحضارة (١).

وقد بلغت الكتابة التاريخية ذروتها بمقدمة ابن خلدون، ففي تلك المقدمة يرى ابن خلدون أنه على المؤرخ معرفة طبائع العمران (الأحوال في الاجتماع البشري أو الإنساني)، فمعرفة طبائع العمران تساعد المؤرخ في تمحيص الأخبار، وعدم التشيع، وفي تمييز الحق من الباطل في الأخبار، وفي الوقوف على الصدق من الكذب. فالتاريخ هو خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعته ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبية، وأصناف تقلبات البشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملل، والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال، (٢). ويمدنا ابن خلدون (٣) بمعيار سليم في إمكانية حدوث هذه الوقائع أو استحالتها، فالقانون في تمييز الحق في الباطل في الأخبار بالإمكانة

(١) عبدالمعظم ماجد: ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٢١.

(٢) المقدمة، تحقيق على عبدالواحد وافي (القاهرة ١٩٦٥)، ج ١ ص ٤٠٩.

(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ٤١٣.

والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشرى الذى هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته ويمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لايعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه.

ولا أدل على حصافة ابن خلدون المؤرخ وحسه المرهف نحو قيمة المصدر التاريخى، من اهتمامه بالورقة الرسمية أو المستند الرسمى، أو بمعنى آخر بالوثيقة، التى هى فى وقتنا الحاضر تعتبر من أهم مصادر التاريخ، بسبب أنها المادة الخام أو المنبع المباشر، الذى يتصل به المؤرخ. فنجد ابن خلدون يتنبه إلى أهميتها فيذكر عبارة: تصفحهم (أى المورخون) لأوراق الدواوين، ويقصد بها الأوراق الرسمية، لأن الدواوين هى المصالح الحكومية^(١).

وقد كتب ابن خلدون^(٢) عن ولع الناس بالمبالغة والغرائب ولاسيما فى إحصاء الأعداد من الأقوال والعساكر، فيقول: «وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا فى الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم أو قريبا منه، وتفاوضوا فى الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى، أو أخذوا فى إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين، توغلوا فى العدد، وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب، فإذا استشكف أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة فى نصائحهم وفوائدهم، واستجلبت عوائد المترفين فى نفقاتهم، لم تجد معشار ما يعدونه، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد».

(١) عبدالمعنى ماجد: المرجع السابق، ص ٤١.

(٢) المقدمة، ج ١ ص ٣٦٧.

كما أدرك ابن خلدون أهمية دراسة العوامل الجغرافية من أجل معرفة تأثيراتها على مسار التاريخ، إلى جانب التركيز على العوامل الاقتصادية ومسئولياتها عن الأحداث التاريخية. وشدد على دراسة التاريخ للعبارة والعظة لا للتسلية، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لتتعلم، وندرس سير الأنبياء لتتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم، ونرى ما وقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا من المزلات ومواطن الضرر، وهذه في رأينا أعظم فوائد التاريخ في نظر دارسيه من العرب، ولهذا نجد ابن خلدون، يسمى تاريخه الكبير «كتاب العبر». كما أن ابن خلدون ينصح المؤرخ بأن يفهم المجتمع الذي كتب عن أحداثه فهما حقيقيا وواقعيًا، ويلم ببعض العلوم والمعارف التي تعينه على ذلك، وتذلل له بعض الصعاب التي تقف في طريقه^(١).

ومما يؤخذ على ابن خلدون أنه نفسه لم يراع في كتابه الكبير «العبر» الدقة في تطبيق آرائه التي أوردتها في مقدمته، فوقع فيما دعا إلى تجنبه من عوامل الخطأ والخصوع للمؤثرات المختلفة كالخزعبلات والخرافات^(٢). ووجدنا كتابه لا يخرج عن كونه سرد لروايات كبار المؤرخين مثل الطبري والمسعودي واليعقوبي وابن الأثير وغيرهم. فقد أخذ ابن خلدون يروي لنا كل شيء في تاريخه دون أن يقف لحظة لاختبار أمر أو تمحيصه؛ ولا شك أن بعض العجز عن تطبيق آرائه يرجع إلى قصور الأدوات والمناهج، وضآلة المعطيات المقارنة، وندرة الوثائق في عصره^(٣). ولذلك لم يترك ابن خلدون إلا تأثيراً قليلاً على الدراسة التاريخية سواء على قومه أو الأوروبيين^(٤).

(١) رأفت الشيخ: في فلسفة التاريخ، ص ٦٩.

(٢) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبدالله عدان (بيروت ١٩٧٥)، ص ٣٩.

(٣) صلاح قنصوه: الموضوعية في العلوم الإنسانية (بيروت ١٩٨٤)، ص ٤٨.

(٤) Boyd (C. Shafer) & Others, Historical Study in the West. (U.S.A., 1969),

P. 9.

وكيفما كان الأمر، فيشير روبرت فلنت Robert Flint إلى ابن خلدون قائلًا: «كان ابن خلدون أول كاتب يعالج التاريخ بوصفه علماً له خصائصه الخاصة. وسواء أكان يمكن اعتبار ابن خلدون لهذا السبب هو المؤسس لعلم التاريخ أم لا، فإن هذا قول قد يكون محل اختلاف بين وجهات النظر، ولكن أي قارئ أمين لمقدمته لا يستطيع أن ينكر أنه أحق بهذا اللقب من أي كاتب آخر ظهر قبل باتيستافيكو» (١).

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ١٤٠.

الفصل السادس

تفسير التاريخ

التفسير الجغرافى للتاريخ

تفاضل الأجناس

التفسير الدينى للتاريخ

التفسير المادى للتاريخ

نظرية التعاقب الدورى للحضارات

المدرسة الهيجالية

نظرية البطل والبطولة

التفسير القومى للتاريخ

التفسير الحضارى للتاريخ

تطور علم التاريخ وتغير مفهومه تماماً في القرنين الأخيرين، فلم يعد يقتصر على انتصارات الملوك والحكام وأخبار القادة العسكريين وكبار رجال الدولة والسياسيين والأعيان، بل تعدى ذلك إلى الاهتمام بتاريخ الشعوب والتطورات الحضارية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والنظم السياسية، الأمر الذي جعل علم التاريخ أكثر حيوية في مضمونه. كما تطرقت إلى تفسير التاريخ ومناهجه نظريات اجتماعية وسياسية واقتصادية، وبالتالي ظهرت مدارس تاريخية عدة، كل منها له مزاياه وعيوبه، على اعتبار أنه لا يمكن لنظرية بعينها أن تفسر حركة التاريخ بصورة متكاملة وموضوعية.

وهنا ينبغي أن نفرق بين الفهم والتفسير، فإذا قلت أنني أفهم تاريخ الدولة العباسية كان معنى هذا أنني قد أصبحت على معرفة بأحداث تلك الدولة وما يفعله رجالها وتطور قوتها ومظاهرها الحضارية، ثم ما أصابها من ضعف وانهيار. وقد يمتزج الفهم هنا بمزاج من الإعجاب بهذه الشخصية أو تلك، أو الدهشة من وقوع هذه الحادثة أو تلك؛، أو الأسى على ما أصاب هذه الشخصية أو هذه الجماعة من بلاء على يد أعدائها من كبار رجال الدولة وأصحاب الجاه والسلطان. وربما شاب هذا الإعجاب رغبة في معرفة الأسباب الخفية وراء هذا الحادث أو ذلك، وربما أيضاً شابهته نزعة من الشك في صحة ما يرويه المؤرخ لما قد يدركه في أقواله من مبالغات أو لما يدركه فيها من تمويه^(١).

أما التفسير فإنه يزيد على الفهم وما يصاحبه من اتجاهات شبه فكرية وإحساسات نفسية. فالتفسير فحص وتمحيص وتحليل ثم تقييم وموازنة وتقدير، ثم استخلاص للأسباب الرئيسية وراء الظواهر والرسوم،

(١) محمد عبدالواحد حجازي: العقاد فيلسوف التاريخ (لقاهرة ١٩٨٨)، ص ٧٤.

وراء تطور المسيرة في أحداثها ووقائعها، بل وراء التكوين النفسى والعقلى للإنسان. وكما يختلف فهم هذا الفرد أو ذلك للماضى بعمامة أو للتاريخ، فكذلك يقع الاختلاف بين المؤرخين وفلاسفة التاريخ فى تفسير التاريخ من حيث المبدأ الرئيسى أو العامل المحرك لمسيرة التاريخ والباعث المحقق لظواهرها أشكالها وأنواعها(١).

وهناك وجهات نظر مختلفة فى تفسير سير الحوادث التاريخية نشير إلى أهمها وهى:

التفسير الجغرافى للتاريخ:

يرتبط التاريخ بالجغرافيا ارتباطا وثيقا، ومن الأقوال المأثورة أن التاريخ هو علم الزمان، وأن الجغرافيا فهى علم المكان الذى له أثره فى توجيه أحداث الزمان. والعوامل الجغرافية من مناخ وأمطار وموقع وجبال وأنهار وتربة وثروة معدنية ونباتية وحيوانية هى الأسباب الرئيسة فى تغيير مجرى التاريخ البشرى ونقل الحضارة الإنسانية من مكان إلى آخر(٢).

والجغرافى والمؤرخ على السواء يدركان تمام الإدراك أن الدراسات الجغرافية والدراسات التاريخية مترابطتان، وأن كلا منهما تستطيع التماس الضوء من الأخرى، بل ويتحتم أن تفعل ذلك فى مشاكل معينة. فمن ناحية يصادف المؤرخ فى محاولاته شرح موقع الأحداث الغابرة واختلاف النظم الزراعية، وهجرات الشعوب، وأصل المدن ونموها، والاستراتيجية العسكرية والبحرية، ووسائل أنماصلات والنقل من مكان إلى آخر، يصادف فى ذلك مشكلات لا مفر لحلها من معرفة الأساس

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) تورى جعفر: التاريخ مجاله وفلسفته (بغداد ١٩٥٥)، ص ٥٠ - ٥١.

الجغرافى . ومن ناحية أخرى، فإن الجغرافى الذى يعنيه الحاضر يجد نفسه بلا انقطاع أمام مشاكل يملك التاريخ حلها (١) .

والتفسير الجغرافى للتاريخ قديم قدم التاريخ نفسه، ففي القرن الرابع قبل الميلاد ألف الحكيم أبو قراط كتابا عنوانه «الأهوية والمياه والأماكن»، تكلم فيه بإيجاز عن أثر البيئة الجغرافية فى تكوين السكان الطبيعى . وعل الفيلسوف اليونانى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) تفوق الإغريق وتساميهم العقلى والفكرى والفنى إلى مناخهم المتوسط (٢) .

وأدرك هيرودوت (٤٥٦ - ٣٩٦ ق.م) أهمية البيئة كعامل أساسى فى تشكيل الفعل التاريخى . فمثلا حين يتحدث عن مصر يبدأ بوصف البيئة الطبيعية من حيث شكل الأرض وتربتها ومساحتها، ثم يتطرق إلى الحديث عن شكل الحضارة المصرية، فيتحدث عن الزراعة والنيل الذى أدرك أنه العامل الأول فى تشكيل البيئة المصرية (٣) . وقال هيرودوت عن مصر إنها «هبة النيل»، فقد علم النيل المصريين الكثير مثل فن الري وهندسة السدود وإنشاء المصارف، كما علمهم الاتحاد والتعاون، كما كان النيل طريقا ربط بين جنوب الوادى وشماله، مما ساعد على قيام أول دولة متحدة سياسيا فى العالم القديم حوالى عام ٢١٨٠ ق.م .

وكذلك فإن يوليوس قيصر (١٠١ - ٤٤ ق.م) لم ينس أن الجغرافيا عامل مهم فى تشكيل الفعل التاريخى، فتعليقاته عن الحرب الغالية (نسبة إلى بلاد الغال وهى فرنسا الحالية) والحرب الأهلية من أهم المؤلفات التاريخية عند الرومان . وكتاب «الحرب الغالية» يعطينا فكرة دقيقة

(١) ولدرج، جوردن إيست: الجغرافيا مغزاها ومرماها، ترجمة د. يوسف أبو العجاج، راجعه د. محمد محمود الصياد (القاهرة ١٩٥٨)، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
(٢) عبدالواحد حجازى: العقاد فيلسوف التاريخ، ص ٧٨ .
(٣) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٤٢ .

واضحة عن المعارك التي خاضتها الجيوش الرومانية بقيادة يوليوس قيصر في سبيل الاستيلاء على بلاد الغال، كما يقدم لنا المعلومات جغرافية صافية عن الميادين التي دارت فيها رحى هذه المعارك (١).

ولعل ابن خلدون كان أول فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع الذين فسروا التاريخ تفسيراً جغرافياً، فقد قال في مقدمته: «وقد بينا أن المعمور من هذا المنكشف عن الأرض إنما هو وسط لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي صفاً فيه من الثالث إلى الخامس أقرب إلى الاعتدال والذي يليهما... والثاني والثالث بعيداً عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد، ولهذا كانت العلوم والصناعات والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً».

ثم جاء مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) Montesquieu وتوسع في تفسير التاريخ بظواهره الحضارية من فن ودين وأخلاق وسلوك تفسيراً جغرافياً، فقال: «أعتقد أن الفوارق في الخلق والمزاج التي تؤثر أثراً عظيماً في مصير الشعوب يرجع شطر كبير منها إلى المناخ، ففي المناطق الباردة مثلاً يميل الناس إلى النشاط، على حين أنهم يميلون في المناطق الإستوائية إلى الكسل». بيد أن مونتسكيو يعود فيتراجع إلى مسافة بعيدة عن المبدأ الجغرافي في تفسير التاريخ بغير أن نفقد ظلال هذا التفسير فقداً كاملاً، فهو يقول: «لاريب أنه من الخطأ افتراض أنني أود إرجاع

(١) نفس المرجع والصفحة.

التاريخ للجغرافيا، فقد ثبت أن ثمة أسبابا متعددة تحدد الحوادث بتعداد الدول، ففي بعضها تؤثر القوانين وفي بعضها الآخر الدين، وفي بعضها الثالث التقاليد والأخلاق، وفي غيرها أيضا الطبيعة والمناخ، وهذان يتحكما فقط في الهمج على حين حكمت التقاليد الصينيين والقوانين اليابان والأخلاق أصل اسبرطة، أما مبادئ الحكم وبساطة العوائد القديمة، فقد صاغت لعدة أجيال أخلاق الرومان (١).

وما جاء في كتاب «الجغرافيا والسيادة العالمية» الذي ألفه جيمس فيرجريف لخير تأييد وتفسير لمبدأ التفسير الجغرافي للتاريخ كمبدأ مطلق، فقد قال: «والاتجاهات التاريخية الكبرى لم تتأثر إلى حد كبير بالصفات المميزة للأفراد، لأن الظروف الجغرافية على مر العصور أقوى أثرا من عبقرية الأفراد وأبعد مدى من المميزات الجنسية ما لم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جغرافية، وهكذا بدأ التاريخ حين بدأ بفضل الظروف الجغرافية» (٢).

وقد عارض المؤرخ المفكر توينبي (٣) الأسس التي يستند عليها القائلون بتفسير التاريخ تفسيراً جغرافياً وبخاصة ما يتصل بالمناخ. ذلك أنه قد تحدث في بعض الظروف البيئية المشابهة أن تقوم مجتمعات وحضارات متشابهة كحضارة وادي النيل والرافدين، ولكن في وديان أخرى مثل وادي الأردن ووادي نهر السند ووادي نهر ريوجراندى وكلورادو بالولايات المتحدة الأمريكية لانتاج فرصة قيام حضارات مشابهة. كذلك فإن الحضارة الصينية تعتبر سليفة النهر الأصفر (هوانج

(١) عبدالواحد حجازي: العقاد فيلسوف التاريخ، ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٨١.

(٣) فؤاد محمد شبل: توينبي مبتدع المنهاج التاريخي الحديث (القاهرة ١٩٧٥)، ص ٣٢ - ٣٣؛ نيفين علم الدين: فلسفة التاريخ عند توينبي (القاهرة ١٩٩١)، ص ١١٥.

هو) ، بيدأن حوض نهر الدانوب مع مشابهته العظيمة لذلك الوادى فى أحوال المناخ والتربة والسهل والجبل، قد أخفق فى إنجاب حضارة كالحضارة الصينية. وهناك حضارات أخرى قد نشأت مثلا وسط الغابات والأحراش فى أفريقية، ولكنها لم تبرز فى وسط أحراش وغابات الأمازون، وعلى هذا فإنه لا يمكن أن يرجع مولد الحضارات إلى عوامل جغرافية.

تفاضل الأجناس :

وتأخذ بعض المدارس التاريخية فى تفسيرها للتاريخ بنظرية تفاضل الأجناس. ويستخدم اصطلاح الجنس للتعبير عن توافر صفات مميزة وموروثة فى جماعات معينة من البشرية. والصفات الافتراضية للجنس التى نبحث عنها هنا، إنما هى الصفات النفسية والروحية والحضارية فى مجتمع من المجتمعات. وبعبارة أخرى تنادى تلك المدارس بتفوق جنس معين فى عقله وفكره وعقيدته وأن غيره من الأجناس أقل منه فى تلك الصفات، ويدرس التاريخ بمقتضاها.

فإذا رجعنا إلى العالم القديم، نجد أن المؤرخين الإغريق والرومان كانوا ينظرون إلى عادات وديانات وعلوم الفرس والجرمان بعين العجب والدهشة، ويروا فيها خير تعبیر عن طبائعهم وشخصياتهم الفطرية الموروثة. وقد حاول أرسطو أن يبرز طموح الإغريق لزعامة العالم، فنادى بنظرية أكد فيها التفوق الطبيعى للإغريق على تلك الشعوب التى أطلق عليها «البرابرة». وقد تضمن فكره عن «الرق الطبيعى» أن بعض الجماعات ولدت لى تكون مجرد أدوات حية مسخرة لخدمة الإغريق العباقرة^(١).

Childe (V. Gordon), History. (London, 1977), pp. 50 - 51.

(١)

وعلق بعض المفكرين الكثير من الأهمية على لون البشرة، والألوان الأقرب إلى السواد تعد نقطة ارتكاز يستند إليها البيض في دمج واحتقار كثير من المجموعات البشرية ونبذها، واتهامها بالانحطاط الاجتماعي. وعند بعض الناس تشتد عصبية اللون إلى درجة تتخذ الكراهية عندهم حالة مرضية. وهذه الحالة ليست فطرية أو غريزية، إنما هي انعكاس في صورة قوية لتحيز قيود البيئة الاجتماعية^(١). وقد كتب دافيد هيوم قائلاً: «إنني أميل إلى الاعتقاد بأن الزوج أحط بالطبيعة من العناصر البيضاء». وكان رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) Renan واحداً من الذين رفضوا التسليم بنظرية تساوي البشر^(٢). وفي سنة ١٩٠٠م نشر س. كارول C. Carrol كتاباً بعنوان: «الزنجي كحيوان أو في صورة الإله»، وفي هذا البحث كتب كارول فصلاً بعنوان «أدلة من الكتاب المقدس وأدلة علمية على أن الزوج ليسوا أعضاء في العائلة البشرية». وفي هذا الفصل يؤكد كارول أن كل الأبحاث العلمية تثبت أن طبع الزنجي من طبع القردة^(٣).

ويمكننا القول إن الأدلة البيولوجية والأنثروبولوجية والتطور والوراثة، توضح أن التمييز الجنسي على أساس اللون ليس إلا خرافة لا يدعمها أدنى دليل علمي. ومن ثم فإن افتراض «انحطاط الشعوب الملونة، غير صحيح من أساسه. ولا شك أن الظروف البيئية غير الملائمة والعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يعيش تحت ظلها الملونون هي الأسباب الوحيدة المسؤولة عن بقاء هذه الشعوب في مستواها المنخفض الحالي^(٤).

وفي منتصف القرن التاسع عشر ازداد الدافع القومي عمقا وقوة

(١) خوان كوماس: خرافات عن الأجناس، ترجمة د. محمد رياض، مراجعة د. محمد عوض محمد (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٦ - ٤٧.

نتيجة لرد الفعل لكتاب ظهر سنة ١٨٥٤ بعنوان «بحث حول عدم تكافؤ الأجناس البشرية، أوضح فيه مؤلفه الكونت آرثر جوبينو (١٨١٦ - ١٨٨٢) Gobineau تأثير السلالات على التطور التاريخي، وأكد سمو الجنس الآري على بقية الأجناس، وأعلن رأيه الخاص بأن تدهور هذه السلالة جاء نتيجة اختلاطها بسلالات أخرى أقل منها شأنا. وكان أن لقي هذا الرأي قبولا وانتشاراً في ذلك الوقت لدى جماهير المؤرخين والساسة القوميين في ألمانيا^(١).

وقد أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الناقدة الحديثة أن مفهوم الجنس مراوغ لايسهل تحديده، وثمة صعوبات في اكتشاف أى عيار طبيعى ثابت ذى أهمية كافية يمكننا من تحديد هذا المفهوم. وقد أكدت الأنثروبولوجيا أنه ليس هناك جنس آرى متفوق، فضلا عن أنه لاوجود لهذا الجنس من قبل. وعلى هذا، فإن مشكلة الجنس فى الوقت الحاضر غامضة ومشوشة وغير محددة، الأمر الذى ينبغى على المؤرخ أن يعالجها بحذر^(٢).

والى جانب ذلك، سيطرت على أذهان اليهود فى تاريخهم القومى طوال السنين فكرة أنهم شعب الله المختار وفقا للميثاق الذى قطعه يهوه Johava مع إبراهيم ونسله إلى الأبد^(٣)، أى أن الله اختص بعطفه ورعايته ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام. ويرى اليهود عن أنفسهم أنهم شعب مختار تعلم من الله بطريقة مباشرة ومنحه الله بصيرة كاملة وحكمة، ومعرفة تامة بجميع القوانين الطبيعية وبالحيقة الروحية، بل إنهم يتمادون فى رواياتهم فيزعمون أن الله تحدث إلى آدم باللغة العبرية،

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج٢ من ٦.

Barnes, A Hist. of Historical Writing., p. 340.

Childe, History., p. 51. 51.

لكى تصبح لغتهم بدورها هي لغة الله المختارة،^(١). أما بقية شعوب العالم فى نظر اليهود فليست إلا أنواع منحطة من البشر تجهل شريعة الرب ويطلقون على أفرادها لقب الأميين ازدراءً واحتقاراً.

وهكذا أخذ التراث التاريخى للغرب الأوربى فى العصر الحديث فكرة التفوق العنصرى من منبعيه الرئيسيين: أولهما من الإغريق والرومان، وثانيهما حول طبيعة اليهود بالله. وقد استخدم الأوربيون هذا المفهوم فى القرن السادس عشر لتبرير استرقاق زنج إفريقيا والإنديز Indies والهنود الحمر فى أمريكا. ولذلك - كما يذكر المؤرخ توينبى - فإن الكتاب المقدس عند الأوربيين يماثل نفسه بصورة حتمية مع إسرائيل فى طاعة يهوه وإنجاز عمل الله بامتلاك الأرض الموعودة، بينما لا يماثل الشعوب غير الأوربية والكنعانيين الذين كتب عليهم بمقتضى القرار الإلهى التدمير أو الاستعباد كحطابى خشب أو ساحبى مياه. ومن الطبيعى أن تلك الاستنتاجات الزائفة الغرض منها تهدة وخزات الضمير حول إبادة الهنود الحمر فى أمريكا، واستعباد الزنج ليحلوا محلهم، وهكذا صارت النظريات المبهمة والانتحالات المستوحاة، تأخذ شكلا فلسفيا فى المؤلفات التاريخية لكتاب القرن الثامن عشر. وتظهر نظرية التفوق العنصرى واضحة - على سبيل المثال - فى عبارة المؤرخ الألمانى هردير (١٧٤٤ - ١٨٠٣) Herder القائلة: «سوف يظل الرجال الصينيون دائما رجالا صينيين»،^(٢). Chinamen will always remain chinamen.

والواقع أنه تبين حتى الوقت الحاضر الكثير من النتائج السيئة لهذه النظرية الكريهة، مما يدعوننا إلى الحذر منها، ذلك أن نظرية التفوق

(١) هيجل: محاضرات فى فلسفة التاريخ، ج١ ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٤٤.

(٢) Childe, History., p. 51.

الحضارى التى تقتصر على جنس معين لم تعد لها أية قيمة علمية ومرفوضة رفضاً باتاً، والذى نعلمه اليوم أن هذه النظرية تبرير أجوف للإعتزاز بالقومية وإثارة البغضاء بين القوميات. والقول بوجود أى جنس أوربى يجب أن يسيطر على بقية الأجناس فى العالم بسبب فضائله الممتازة، هو قول لا سند له من جهة النظر العلمية، وينطوى على أفدح الكوارث السياسية (١).

التفسير الدينى للتاريخ:

يقصد بالتفسير الدينى، مرحلة من مراحل الفكر حاول فيها الإنسان تفسير ما يحدث حوله، على أساس أنه حوادث نتجت بفعل وإرادة قوى عليا خارجة عن إرادته. وبمرور الزمن حاول الإنسان فى المراحل الأولى من تفكيره وأطواره الحضارية، اكتشاف القدرة الخلاقة التى نظمت الكون على النحو الذى عليه، وإظهار القدرة الخلاقة التى تتحكم فيه، من أجل تفسير الظواهر الطبيعية، ولما كانت قدرات الإنسان العلمية فى تلك العهود السحيقة محدودة، فقد لجأ إلى الأساطير الدينية لتفسير الظواهر الطبيعية، كالبرق والرعد والمطر وشرق الشمس وغروبها. واستمر هذا التفسير البدائى للأشياء سائداً طوال مرحلة الحضارة الإنسانية فى العصر التاريخى، حتى ظهور الديانات الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام، والتى ألغت الفكر الوثنى القديم، وقدمت تفسيرات تقوم على أساس جديد، هو الأساس الأخلاقى، الذى يرى أن عين الله ساهرة لاتنام، تعاقب الشرير، وتكافىء الصالح، وأن المعتدى لن يهرب أبداً من قصاص الله (٢).

(١) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ١٧٤.

(٢) سيد أحمد الناصرى: فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه (القاهرة ١٩٨١)، ص ٢٤ - ٢٥.

أما أفكار اليهود حول طبيعة التاريخ وموقفهم منه، فقد كانوا ينظرون إلى الأحداث - كما سبق أن ذكرنا - من وجهة نظر دينية، وكان الله في رأيهم هو العامل المحرك الأسمى للتاريخ، وأن إرادته هي محك الحكم التاريخي، وأن مملكته هي الغاية التي يتجه إليها التطور التاريخي، وقد عرف اليهود بشدة اعتزازهم بماضيهم وإكبارهم لتاريخهم (١).

وفكرة اليهود عن التاريخ ليست ولم تكن قط في أي يوم من الأيام ذات نزعة فردية، فهي فكرة تدور حول «شعب إسرائيل أولاً، ثم حول البشرية عامة، والملوك كنواب الله في الأرض عليهم العمل على زيادة رفاهية شعب الله المختار، ودعا الأنبياء الناس إلى البر والتقوى والإخلاص لله. ولم تدع الكتب العبرانية إلى «الفرار من العالم، في أية صورة من صور حياة الدير القائمة على الزهد، وركز على الزواج تقدير كبير وعلى الوصية لهم «بالتزايد والتكاثر»، وطيبات الحياة الدنيا هبات من الله ينبغي قبولها بالشكر والاستمتاع بها» (٢).

ويعد الكاتب كلود مونتيفيوري من أشهر علماء اليهود في العصر الحديث، وقد أورد ذلك الكاتب دلائل تدل على نظرة إلى التاريخ، وهي إن كانت عصرية فإنها يهودية روحاً وأساساً، وذلك في كتابه الذي أسماه «معالم اليهودية المتحررة» Outlines of liberal Judaism (١٩١٢). وقد ذهب هذا الكاتب إلى أن الله «يتصرف في تاريخ الإنسان وله فيه هدف»، وهو يكتب أيضاً: «ونحن نعتقد أن الجنس البشري قد تقدم ولا يزال يتقدم بصورة إن كانت وثيدة فهي على كل حال أكيدة.. ومن أجل نفاذ أهدافه في التاريخ، يهب الله شعوباً وأفراداً معينة قدرات مختلفة وينوط بهم

(١) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٢١.

(٢) ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه، ج ١ ص ١٥٢.

أعمالاً مختلفة، وهكذا كان اليهود شعباً مختاراً، لم يجر اختياره ليحرز النجاح والغنى أو القوة أو وفرة العدد، ولم يجر اختياره من أجل الفن ولا العلم ولا الفلسفة، ولكن جرى اختياره ليتعلم ويساعد على نشر المبادئ والخبرة الحقة عن الله والبر، وعن علاقة الإنسان بالله وعلاقة الله بالإنسان^(١).

وتتجلى الفكرة المسيحية عن التاريخ في أنها فكرة دينية أساساً مدارها الاتصال بالله، والهدف من التاريخ قد أصبح يعتبر قبل كل شيء بلوغ حياة أخرى مستقبلة. ومما يرتبط بهذا، الأفكار المتعلقة بحدوث بعث ويوم قيامة في نهاية التاريخ. وهناك ثلاث نظريات تدور حول المصير النهائي ويؤمن بها المسيحيون: (أ) مذهب الخلاص الشامل ومفاده أن الناس جميعاً بلا استثناء سيبلغون في النهاية درجة الكمال (ب) مذهب الخلاص المشروط ومفاده أنه لن يدوم إلا من استحق استمرار بقائه، فأما جميع من عدا هؤلاء فسيبيدون، (ج) مذهب السعادة الأبدية أو الخسران المبين، وبمقتضاه تحرز الأرواح الطيبة سعادة السماء ويقاسى شراً أبدياً هو جحيم البعد عن الله. ومعنى هذا أن التاريخ الأرضي لا يحتوى على معنى كامل في حد ذاته.

ويعتبر القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٩) أهم المفكرين في تاريخ المسيحية، وأعظم مفكرى عصره على وجه الأطلاق. وأعظم مؤلفاته أهمية كتابه «مدينة الله» De Civitate Dei، ويعتبر هذا الكتاب فلسفة للتاريخ وصورة للأفكار اللاهوتية والسياسية التي سيطرت على أوروبا العصور الوسطى حتى عصر توما الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد دفعته الكارثة التي حلت بمدينة روما على يد الأريك

(١) المرجع السابق، ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩.

القوطى سنة ٤١٠م إلى تأليف هذا الكتاب، فقد أذاع الوثنيون فى كل مكان من الإمبراطورية أن المسيحية هى سبب ماحل بالمدينة من تخريب ودمار. وأحس أوغسطين بتزعزع الثقة فى قلوب الناس من جراء تلك الكارثة، فذكر أنما حل بروما لم يكن إلا عقابا لها على ما إرتكبه من آثام وشرور كامنة فى ثنايا الآلهة الوثنية وتقاليدها. وقد ذكر أوغسطين فى كتابه أن هناك مدينتين موجودتين معا: مدينة الأرض ومدينة الله، الأولى من صنع البشر تبنى كما يبنى جسم الإنسان، أما مدينة الله فإنها أبدية تدوم مع الروح، وإذا جاز أن تتحطم مدينة الانسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لاتزال بخير، أضف إلى هذا أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة، على حين أن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه، وفى وسع الكنيسة أن تكون هى بعينها مدينة الله.

ويرى أوغسطين أن العناية الإلهية تلعب دورها فى الأحداث التاريخية. فشئون التاريخ الأرضى يتولاها الله الواحد ويحكمها كما يشاء، وليس فى الإمكان مطلقا الاعتقاد بأنه ترك ممالك البشر، خارج قوانين العناية.

وقد أبى أوغسطين قبول نظرية الدورات المتكررة فى التاريخ، وذلك لأنه اعتبر أن التجسد يحدث مرة واحدة لاتتكرر. وتشبيها بما يرويه الكتاب المقدس عن خلق الله للعالم فى ستة أيام واستوائه على العرش للراحة فى السابع، قسم التاريخ إلى سبعة أقسام:

(١) من آدم إلى الطوفان زمن نوح عليهما السلام.

(١) المرجع السابق، ج١ ص ١٧٦ - ١٧٨.

(٢) أنظر محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٥)، ص ٧٦ - ٧٧.

(٣) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج١ ص ١٨٠.

(٢) من الطوفان إلى إبراهيم ﷺ .

(٣) من إبراهيم إلى داود عليهما السلام .

(٤) من داود إلى الأسر البابلي .

(٥) من الأسر البابلي إلى ميلاد المسيح ﷺ .

(٦) العصر الحاضر (١) .

وبالإضافة إلى القديس أوغسطين، هناك الأسقف الفرنسي الشهير جاك بنين بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٨٤) Jacques Benigne Bossuet الذى احتل مكانة كبيرة بين المؤرخين بكتابه المسمى «مقال عن التاريخ العالمى»، وجعل الكنيسة الكاثوليكية فيه محور التاريخ الإنسانى كله، وفسر التاريخ كله تفسيراً دينياً صرفاً، بل مسيحياً كاثوليكياً فحسب (٢) . وقد أصر بوسويه على أن شئون التاريخ تمضى فى تعاقب سببى، حيث تعتمد حوادث أحد القرون على حوادث القرن الذى سبقه، وفى ذلك يقول: «لم يعد يجوز لنا بعد الآن أن نتحدث عن الصدفة ولا الحظ، أو إن شئنا تحدثنا عنهما على أنهما وصف نغضى به جهلنا . فإن ما نعدده فى رأينا غير المتأكد منه صدفة من الصدف، يعد تصميماً قاطعاً فى رأى أعلى من رأينا، أى فى الرأى الذى يضم جميع الأسباب وكل النتائج فى نظام واحد، . ووفقاً لهذه الخطة الإلهية تقوم الدول وتسقط، وتسيطر على الناس فى التاريخ قوة فوقهم، كما أنهم بتأثيرها، إذ يعملون أكثر أو أقل مما يقصدونه هم أنفسهم، ينفذون التصميم الإلهى (٣) . ويذكر بوسويه أيضاً أنه عندما تمر الإمبراطوريات الكبرى التى هزت الكون من أمام عينيك

(١) المرجع السابق، ج١ ص ١٨٢ .

(٢) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٧٢ .

(٣) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج١ ص ١٨٧ .

فى لمح البصر، عندما ترى الآشوريين، والبابليين، والفرس، والإغريق، والرومان، يتوالون ويذهبون، فإن ذلك يجعلك تشعر بأنه لا يوجد شيء راسخ وثابت بين الناس، وإنما التقلب والاضطراب هما السمة العامة لحركة التاريخ (١).

أما الرؤية التاريخية فى الإسلام فترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم، فأى سورة قرأت، وأى صفحة شاهدت، طالعتك الإشارات المسهبة أو الموجزة إلى مواقف تاريخية، لا ريب أنها تشكل بمجموعها نسقاً متكاملًا للتفسير الإسلامى للتاريخ. والقرآن الكريم لا يقدم قصصه وصوره ومشاهداته لمجرد ترف زهنى أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات، ولكن القرآن يأتى بمعطياته التاريخية من أجل أن يتحرك الإنسان صوب الأهداف التى رسمها الإسلام، ويبعده فى الوقت ذاته عن المزالق التى أودت بمصائر عشرات بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب.

ويعتمد القرآن الكريم فى عرض الواقعة التاريخية على أكثر من أسلوب، وليست الحكمة القصصية سوى واحدة منها فحسب، وإذا وضعنا فى الحسبان الشروط الفنية للقصة، استطعنا أن نتبين أن عدداً كبيراً من عروض القرآن التاريخية، وإن جاءت تسميتها أحياناً بالقصص، أى الحديث عن الماضى، تخرج عن الإطار الفنى للقصة، وبهذا تكتسب بعدها التاريخى المجرد.

وتتجاوز بعض آيات القرآن الماضى والحاضر، لى تمد رؤيتها إلى

(١) سيد الناصرى: فن كتابة التاريخ، ص ٢١.

(٢) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى للتاريخ (بيروت ١٩٧٥)، ص ٧-٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤) سورة الروم: آية ١-٥.

(٥) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى للتاريخ، ص ١٠٣.

المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية، يحيطها علم الله المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية. ولقد نفذ بعض هذه التنبؤات في عهد الرسول ﷺ نفسه، وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ، إذ لم يحدد له زمن بالذات: «آلم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون». ولقد شهد العصر المكي نفسه تنفيذ هذه النبوة بعد سنوات قليلة من نزولها.

إن إحدى الملامح الأساسية التي تميز التفسير الإسلامي عن سائر التفاسير أنه يفرد للبعد الغيبي، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مساحات واسعة، ويجعله أحد الشروط الأساسية للإيمان، بل أهمها على الإطلاق، بالله الذي لا تدركه الأبصار، وبعملية خلقه الدائمة التي تندّ عن إحاطة الإنسان ذي المنافذ الحسية المحدودة والقدرات العقلية النسبية، ويوحيه الذي ينقل للبشرية تعاليم السماء بواسطة أنبياء الله ورسله، ومعطيات هذا الوحي البعدية من إيمان بالبعث والحساب والجزاء. ومن ثم كان أي تردد إزاء اليقينات الغيبية التي يطرحها القرآن، إنما هو رفض للقاعدة التي لا يقوم بدونها إيمان^(١).

وفي القرآن الكريم جعل الله للإنسان مكانة سامية. فقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفته في الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، والإرادة الحرة لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية. ولكي لا يحس الإنسان بالدونية، ولا تدور في خاطره أية فكرة عن سلبية دوره

(١) المرجع السابق، ص ١٣٢.

فى العالم؁ رفعت مكانته إلى أعلى مصاف وطلب من الملائكة أن يسجدوا له؁ وتلك هى أسس تقود ولاريب إلى تصور دور الإنسان فى العالم كقوة فاعلة مفكرة؁ الأمر الذى لا بد منه لأى إبداع حضارى فى الأرض^(١).

التفسير المادى للتاريخ:

أماما أسهمت به المدرسة المادية الاقتصادية فى تفسير التاريخ فهو التفسير الذى وضعه الفيلسوف اليهودى الألمانى كارل ماركس (١٨١٣ - ١٨٨٣) Karl Marx. فالاقتصاد بدأ ينتظم كعلم من العلوم فى القرن الثامن عشر مع ظهور الصناعة فى أوربا والتحويلات الكبرى التى أحدثها الانقلاب الصناعى (الثورة الصناعية) فى أوربا وبقية أنحاء العالم؁ وما تطالبته تلك الثورة من البحث عن المواد الخام وإقامة المصانع والبحث عن الأسواق لتصريف المنتجات الصناعية. وترى المدرسة المادية الاقتصادية أن وسائل الإنتاج وما يتصل بها من علاقات اقتصادية اجتماعية هى الأساس الفعال فى تطور المجتمع؁ وأن التاريخ يسير وفق الجدلية المادية Material Dialectic؁ وهى طراز خاص من الجدل يعتمد فى طريقته على الأسلوب المنطقى المحكم الذى وضعه الفيلسوف هيجل والمثاليون. ويقول هذا الجدل الماركسى أن تاريخ المجتمع هو تاريخ صراعات شاملة بين أسس قديمة وظواهر جديدة للتنظيم الاجتماعى؁ أو بعبارة أخرى صراع طبقات تفوز فيها الطبقة التى تسيطر على الوسائل الجديدة للإنتاج والعلاقات الاقتصادية المنبثقة عنه بالنفوذ والسلطان والحكم. وقد قسم كارل ماركس التاريخ إلى خمس فترات تتميز كل منها عن الأخرى بنمط معين من الإنتاج؁ حيث كان فى البداية نمط للملكية المشاعة بين جميع أفراد العشيرة؁ ثم تلاه نمط إنتاج العبيد؁ ثم النمط

(١) المرجع السابق؁ ص ١٩٢.

الإقطاعي، ثم النمط الرأسمالي، ثم النمط الشيوعي. وعلى هذا ترى المدرسة التاريخية المادية أن التطور التدريجي للمجتمع سار من نظام المشايعة إلى نظام الطبقات في العصور القديمة حيث انقسم المجتمع إلى سادة وعبيد، وإلى سادة إقطاعيين وأقنان في العصور الوسطى، ورأسماليين وعمال في العصر الحديث. ومن طبيعة هذا التطور في نظر الفلسفة التاريخية المادية أن تفوز طبقة العمال المستغلة في الصراع الدائر بينها وبين الرأسماليين، وتزيل الملكية الخاصة وتسود المساواة الاقتصادية بين الجميع. وترى تلك المدرسة أيضا أن العلاقات الاقتصادية المادية هي التي تحدد نوع وأساليب الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية والفلسفية والفكرية والعلمية لأي مجتمع (١).

ويؤمن ماركس - على خلاف هيجل - بنظرية التطور للعالم داروين، وهي النظرية التي أجبرت مفكرى القرن التاسع عشر على الإيمان بأن حالة الجنس البشرى الحاضرة ليست إلا نتيجة لسلسلة طويلة من تبدلات دائمة التعاقب تتولد بمقتضاها كل حالة عن سابقتها (٢).

ولم تعترف الماركسية بأى إله، لا بوصفه خالقا في التاريخ ولا بوصفه «عناية»، وأن الدين المنطوى على الإيمان بذلك يعد عند الماركسيين خزعات تبنتها الأقلية لتستغل الأغلبية، وذلك بتحويل انتباه الأغلبية إلى ما في الحياة الآخرة من سعادة وحسن جزاء، وقد استولت الأقلية على مقاليد السلطة الأرضية، واستمتعت بما احتوته الأرض من أفانين الترف التي ينتجها عمل الغالبية (٣).

(١) أنظر: Writtan (John), Karl Marx, in the Historian at Work, ed- by John Canon (London, 1980), P. 88.; Nordan, The Interpretation of History., tr. from the german by M.A. Hamilton (London, MCHX), p. 76.; Childe, History., p. 71; Smellie, Why we read History., PP.. 68 - 69.

(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضي، ص ٨٤.

(٣) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج-٢ ص ١٦.

وقد انتقد المسيحيون إهمال الماركسية للدين باعتباره العامل الروحي الدافع للحياة الاجتماعية بين الأفراد وتنظيم أمورهم الاقتصادية، حيث دعت المسيحية إلى الاهتمام بالفقراء والقضاء على الاستغلال والحث على التعاون والإخاء وتحقيق العدالة الاجتماعية. كما انتقد المسلمون أيضاً إهمال الماركسية للناحية الروحية، فالإسلام يمنع استغلال الإنسان للإنسان، ويدعو إلى التكافل بين المسلمين، والإسلام لا يحرم الملكية الخاصة المبنية على الفطرة وحب التملك بشرط أن يؤدي ما عليها من زكاة. كما أن الإسلام يعتبر الملكية أمانة في يد الفرد، ويدعو الأغنياء إلى التصدق من مال الله الذي أتاهم، ويحرم الربا حتى لا يستغل الإنسان حاجة أخيه الإنسان (١).

ولاشك أن التفسير المادي الذي يعتبر العامل الاقتصادي هو الدافع الأساسي الوحيد الذي يوجه سلوك الناس أمر لا يخلو من التطرف والمبالغة. فالعامل الاقتصادي وإن كان هاماً في تغيير مجرى التاريخ، إلا أنه ليس العامل الأساسي الوحيد، ذلك لأنه غير منفصل عن غيره من العوامل الاجتماعية والنفسية، بل هو موجود بشكل يستحيل فصله عن العامل الجغرافي والديني والثقافي والجنسي والعنصري، يضاف إلى ذلك أن العامل الاقتصادي يؤثر في غيره من العوامل ويتأثر بها كذلك، فيوجهها وتوجهه (٢).

نظرية التعاقب الدوري للحضارات:

وهناك فئة أخرى من المؤرخين ترى أن مجرى التاريخ يسير وفق نظام خاص واتجاه معين لا يعيد عنه. والتاريخ في نظرهم يمر أثناء سيره بسلسلة من المراحل والتغييرات يأتي بعضها في أعقاب بعض

(١) رأفت الشبخ: في فلسفة التاريخ، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) نوري جعفر: التاريخ، مجاله وفلسفته، ص ١٠٤.

آخر^(١). وأقدم هؤلاء المؤرخين العلامة ابن خلدون الذي ذكر في مقدمته قائلاً: «أما أعمار الدول أيضاً فإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة في الغالب لاتعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته، لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها.. والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفة من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحدين وكسل الباقيين عن السعى فيه، وعن عز الإستطالة إلى ذل الاستكانة، فتتكسر سورة العربية بعض الشيء.. ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول.. وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز.. ويبلغ فيهم الترف غايته.. ويلبسون على الناس في الشارة والنزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهوا بها وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتة فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالى، . ويقصد ابن خلدون أن الدولة تأسست بفضل قوة بأس أحد الأجيال، وجاء الجيل الثاني فشد أوطار بنيانها، مع الانغماس في اللذات، فأما الجيل الثالث، فإنه هبط إلى درك الضعف حتى قهر وسقط. والتاريخ إجمالاً في رأى ابن خلدون ما هو إلا سلسلة من الدول تسير كل منها في حلقات متتابعة، وتتشابه هذه الدول في مراحلها المختلفة وأعمارها، تقوم الواحدة على أنقاض الأخرى، «سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه، وكل شيء هالك إلا وجهه»،^(٢).

(١) المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

(٢) نيفين علم الدين: فلسفة التاريخ عند توينبى، ٤٠.

وبعد ابن خلدون جاء الفيلسوف الإيطالي جيوفاني باتيستا فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) Giovanni Battiste Vico أعدمؤسى علم التاريخ وأول مفكر له إنتاج قيم فى الفلسفة التاريخية، وقسم التعاقب الدورى للحضارات إلى ثلاثة عصور:

١ - عصر الآلهة: وهو العصر الذى كانت الشعوب الأممية (أى من غير اليهود) تعتقد أنها تعيش فى ظل حكومات إلهية تصدر أوامرها عن طريق الرؤساء الدينيين.

٢ - عصر الأبطال: وهو الذى كان يحكم فيه أبطال أشداء يعتقدون أنهم أسمى من العامة، وتسود الأرستقراطية نظم الحكم.

٣ - عصر الإنسان: وهو الذى عرف فيه الناس أنهم جميعا متساوون فى الطبيعة البشرية، وبناء على هذا تأسست أولا الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات، وكلاهما شكل من أشكال الحكومة البشرية^(١).

ولكن العصر الأخير كما يراه فيكو يتضمن بذور انهياره وفنائه، إذ أن الديمقراطية وإعلان المساواة بين أفراد المجتمع لا تلبث أن تغرى جماهير العامة بالتطرف فى المطالبة بحقوقها، فتحظى بها تدريجيا، ولكن ذلك يزيد من الصراع بين طبقات المجتمع بدلا من أن يخفف من حدته، فينشأ عن ذلك ضعف الروابط التقليدية بين هذه الطبقات والشك فى بعض القيم التقليدية المقبولة، والعادات الاجتماعية المعترف بها، فيكون الانحلال والفساد الذى يؤذن بانتهاء الدورة الحضارية كلها. فإذا وصل المجتمع إلى مثل هذه الحالة من التدهور تعذر الإصلاح الداخلى، فلا يبقى إلا غزو أجنبي من الخارج، أو انحلال اجتماعى شامل من الداخل، يعود بعده المجتمع إلى بربرية العامة، لتبدأ دورة حضارة جديدة، بعد

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢، ص ٢٧.

ذلك - هي ذاتها أعلى من سابقتها ، وإن سارت على نفس النمط -
متدرجة من عصر الآلهة إلى عصر الأبطال إلى عصر الإنسان؛ لينزلق
المجتمع بعد ذلك إلى بربرية جديدة، وهكذا دواليك تمضى الحياة
الإنسانية، فى دورة دائمة تملئها الطبيعة الفطرية التى ركب عليها
البشر (١).

وقد استقى فيكو تقسيمه من المصريين القدماء، ففى العصر الأول
تكلم المصريون اللغة الهيروغليفية، ثم اللغة الرمزية، ثم سادت اللغة
العامية للشعب، وكان المصريون القدماء على دراية بهذا التقسيم
لتاريخهم، ولكن فيكو استقاه وحاول تطبيقه على جميع الأمم فى كل
العصور. غير أن فيكو من إحدى الحضارات الأممية، فإنه يستقى مادة
التاريخ من الكتاب المقدس الذى يدور فيه حول تاريخ العبرانيين، ومن ثم
فإنه ينتقد الحضارات القديمة كالمصرية والبابلية والصينية ولايعدها أقدم
الحضارات، بل يعد ذلك خرافة، ثم يقلل من شأن هذه الحضارات،
فمعتقدات أصحابها مليئة بالضلالات وديانتهم سحر وخرافات، وهو
لاينتقدها فى الجانب الدينى فحسب، بل يقلل من شأن الجوانب الأخرى
التى عرف فيها تفوق هذه الحضارات، فليس النحت الذى عرف به
المصريون إلا بدائياً، ولاعبرة بعظمة الأهرام التى يمكن أن تنتج بين
مرحلة بربرية (٢).

ويطبق فيكو آراءه على تاريخ اليونان والرومان ثم العصور الوسطى،
فيرى أن دور الأبطال لم يستمر طويلاً لدى اليونان، لأن ظهور الفلسفة
عجل بالانتقال من الدور الإلهى إلى الدور البشرى دون أن يبقوا مدة

(١) نفس المرجع والصفحة، عفت محمد الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، ج١ (القاهرة
١٩٧٦)، ص ٧٧-٧٨.

أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ١٦١.

طويلة في الدور البطولي، على عكس ما حدث للرومان، إذ طال الدور البطولي، وعندما وصلوا إلى الدور البشري كانوا قد ابتعدوا كثيراً عن الدور الإلهي. ثم عاد الناس في العصور الوسطى إلى بربرية شبيهة بالبربرية الأولى، فاجتازوا دوراً إلهياً جديداً وهو الدور الذي تولى فيه الملوك المناصب الدينية، ثم اجتازوا دوراً بطولياً عندما نشأت الفروسية وقامت الحروب الصليبية، أما الدور الثالث فقد بدأ في العصر الذي عاش فيه فيكو(١).

ويرى فيكو خلال هذه الأدوار أن التقدم البشري لا يحدث بطريق مباشر أو في خط مستقيم وإنما يأخذ شكلاً لولبياً صاعداً، كما لو كان يدور حول جبل ليصل إلى قمته. وأوضح أنه على الرغم مما قد يبدو من وجود دورات للتطور، فإن هذه الدورات لا تعود إلى النقطة التي بدأت منها، لأن كل دورة تكبر وتعلو عن سابقتها(٢). وكلما ارتفعنا أكثر وأكثر في صعودنا الدائري ازدادت نظرتنا عرضاً وفكرنا شمولاً.

والواقع أن الأفكار الرئيسية في فلسفة فيكو تعوزها الروح العلمية، كما أن تقييمه للحضارات القديمة يشوبه التعصب الديني، وليس ذلك مما ينتقص من نظريته فحسب، بل إنه إذا تعرضت قصص العهد القديم للنقد التاريخي كما حدث في عصر التنوير، فإنه يلزم عن هذا انهيار الأفكار الرئيسية في فلسفته. فالالتزام بقصص العهد القديم في فلسفة التاريخ يفرض على المؤرخ أو المفكر قيداً يشده نحو اللاهوت بقدر ما يبعده عن العلم، وإن أية نظرية في فلسفة لن تتصف بالعلمية حتى تتحرر تماماً من تقييم العهد القديم للحضارات القديمة العريقة من جهة، وحضارة العبرانيين من جهة أخرى(٣).

على أن فيكورغم كل ما يوجه إليه من نقد، لا يزال في رأى كثير

(١) المرجع السابق، ص ١٦٢.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) أحمد صبحي: المرجع السابق، ص ١٦١.

من الدارسين أبا لفلسفة التاريخ، أو على الأقل، أحد مؤسسي منهج الدراسة التاريخية في العصر الحديث، بحيث نستطيع القول بأنه قد أدى إلى التاريخ من الخدمات، ما أداه ليكون في منهج البحث الفيزيائي، وما قام به أوجست كونت في علم الاجتماع (١).

المدرسة الهيجلية:

أما ويلهلم فردريك هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) الفيلسوف الألماني الشهير الذي عاش في الفترة التي شهدت أوربا خلالها حروب نابليون بونابرت وانتشار مبادئ الثورة الفرنسية حاملة شعار الحرية والإخاء والمساواة منذ عام ١٧٨٩م، فيرى أن الكون الذي تدرسه الحواس الإنسانية ناقص ومتغير إذا ما قيس بالذات العليا أو القوة السماوية التي أوجدته. فالذات العليا أو الإرادة العاقلة أو الكون الخلاق (الله، هو مصدر الخير والحق والجمال وغيرها من الفضائل، وهو كذلك سام في جوهره لاتدركه حواس الإنسان. ولما كان من المستحيل على الناس أن يدركوا كنهه إدراكاً حسياً أو عقلياً لسموه فوق مستوياتهم الحسية والفكرية، فإنه نفسه قد اضطر إلى إظهار نفسه للناس عن طريق خلقه لنقيضه وهو العالم الطبيعي الذي نعيش فيه أو الكون الذي تدركه حواسنا (٢).

ويقول هيجل إن أحداث العالم لاتترك نهياً للمصادافات والعلل الخارجية العرضية وإنما هناك حكمة إلهية، أو تدبير إلهي، أو عناية إلهية، توجه العالم، وبالتالي فإن كل ما يحدث في العالم يحدث طبقاً لخطة إلهية (٣).

(١) عفت الشراوى: أدب التاريخ عند العرب، ج١ ص ٧٩.

(٢) نوري جعفر: التاريخ، ص ٧١ - ٧٢.

(٣) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج١ ص ٤٦.

والتاريخ على عكس الطبيعة، لا يكرر نفسه، كما وأن حركاته لا تسير في دوائر، وما يبدو لنا - ظاهرياً - تكراراً في التاريخ، هو بالضرورة عمل مختلف ومتمايز عما سبقه، لأنه اكتسب أبعاداً جديدة. صحيح أن الحروب تتكرر بين الحين والآخر، ولكن كل حرب جديدة تختلف بطريقة أو بأخرى عن سابقتها، من واقع ما يستفيد منه الجنس البشري من دروس في خبراته الماضية^(١).

وفلسفة التاريخ عند هيغل مبنية على الأسس العامة لفلسفته، فليس التاريخ من وجهة نظره مجموعة من الحوادث، بل التاريخ هو الفكر الذي أوجد تلك الحوادث. والمقصود بالفكر هنا فكرة الذات العليا أو الكون الخلاق، ويطلق هيغل على ذلك الفكر اسم الفكر المطلق أو العقل المطلق الذي يتحدى في معرفته حدود الزمان والمكان ويسمو فوق كل شيء. وبما أن العقل المطلق كله خير وفضيلة، فالتاريخ على هذا الأساس كله خير وعدالة^(٢).

وفي رأى هيغل أن تاريخ العالم سار في ثلاث مراحل، وكل مرحلة من مراحل سيره تمثل درجة معينة من درجات الحرية. وأول مرحلة يبدأ منها هيغل هي الحضارات الشرقية القديمة: الحضارة الهندية، والفارسية، والصينية، والفرعونية، وهذه الحضارات تتميز بخاصية أساسية هي أن المواطنين جميعاً في كل مجتمع من هذه المجتمعات كانوا عبيداً للحاكم، فهم جميعاً يعتمدون على الملك أو الإمبراطور أو فرعون، وينفذون مشيئته، وهذا الحاكم هو وحده المستقل أي أنه وحده الحر. أما الحرية الثانية فتمثلها الحضارة اليونانية والرومانية حيث نجد أن نطاق الحرية قد

(١) إسحق عبيد: معرفة الماضي، ص ٨١.

(٢) نوري جعفر: التاريخ، ص ٧٢ - ٧٣.

اتسع عما كان عليه عند الأمم الشرقية. فاليونان - وكذلك الرومان - عرفوا أن البعض أحرار، وهذا «البعض» هو المواطن اليوناني أو الروماني، أما الأمم الجرمانية فقد كانت أول الأمم التي تصل إلى الوعي بأن الإنسان بما هو إنسان حر، وأن الحرية تؤلف ماهية الروح (١).

ويرى هيجل أن اكتمال التاريخ لا يتأتى بالتطلع إلى المستقبل وإنما يتأتى في الحاضر، لأن رؤية المستقبل للمؤرخ غير واضحة ولا يمكن التكهن بها، فهي ضرب من التنجيم والرجم بالغيب. ويتساءل هيجل: ما هي الوثائق والمادة التاريخية التي يملكها الكاتب عن مستقبل لم يحدث بعد؟ فالمستقبل كتاب مغلق. غير أن هذا لا يعنى أن التقدم يتوقف عند الحاضر، وإنما القصد هو الاعتراف بالحاضر كواقع حقيقي ملموس، ولكننا لانعرف ما سيكون. وفي نظر هيجل إن المستقبل أمر لا يخص المعرفة، وإنما يدخل في دائرة الآمال والمخاوف، وهذه الأخيرة ليست من التاريخ في شيء (٢).

والواقع أن هيجل ارتكب خطأ جسيماً بجعله مجرى التاريخ ينتهي في الحاضر بدلاً من أن يمتد إلى المستقبل، واعترف بعملية تطور مستمرة في الماضي، وأنكرها في المستقبل إنكاراً غير مناسب. وقد رأى أولئك الذين تأملوا طبيعة التاريخ ملياً بعد هيجل أنه تأليف للماضي والمستقبل (٣).

ويعتقد هيجل أن العقل المطلق يسعى إلى رفع مستوى البشرية من جميع نواحيها، ولذلك فإنه خلق الشعب الألماني كحلقة وسطى بين التاريخ المطلق وتاريخ الشرقيين الأدنى والأقصى، وما على الشعب

(١) هيجل: المرجع السابق، ج ١ ص ١٤٩، وولش: مدخل لفلسفة التاريخ، ص ١٩٣.

(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضي، ص ٨٣.

(٣) كار: ما هو التاريخ؟ ص ١٥٦.

الأمانى بدوره إلا الخضوع المطلق لساسته وزعمائه الذين اختارتهم العناية الإلهية للأخذ بيد شعوب الأرض كلها إلى الازدهار فى نواحي الحياة جميعها. وعلى هذا الأساس فالشعب الأمانى رسالة سماوية فاضلة عليه أن يبلغها للناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور. ولكى ينجح فى أداء تلك الرسالة عليه أن يخضع لزعيمة خضوعاً تاماً وذلك بتجنب نقد أفعاله وتصرفاته التى قد تبدو كأنها ناقصة إذا قيست بمقاييسنا الاجتماعية الشائعة، لأنها أمور صادرة عن الإرادة الإلهية التى تتحدى حدود الزمان والمكان. والزعيم من وجهة نظر هيجل لا يخلق التاريخ أو يغير مجراه بإرادته، وإنما هو شخص ينفذ مشيئة الإرادة الإلهية وله دور خاص يلعبه فى المجتمع، ومن ثم يختفى تبعاً لأوامر تلك الإرادة. وقد يبدو لنا الزعيم أحياناً وكأنه فشل فى أداء رسالته، والواقع أنه لم يفشل من وجهة نظر الذات العليا التى أرادت منه أن يقوم بما قام به، ومصدر الفشل راجع إلى نقص أحكامنا لا إلى طبيعة أعماله (١).

ويشير هيجل إلى أهمية الموقع الجغرافى للتاريخ، والأثر الذى تتركه عوامل الطبيعة على إنتاج شعب ما وروحه، وهو ينبهنا إلى أننا ينبغي ألا نبالغ فى تقدير هذا الأثر، ولانغفله كل الإغفال. ويستبعد هيجل المنطقة المتجمدة والمنطقة الحارة من دراما تاريخ العالم لأنهما ليستا موقعا مناسباً لظهور التاريخ، كما يستبعد العالم الجديد (الأمريكتين) وإستراليا بدعوى أننا لم نعرف شيئاً عنهما إلا حديثاً، وعلى ذلك فإن مسرح التاريخ الحقيقى هو المنطقة المعتدلة أى العالم القديم أفريقية وآسيا وأوروبا (٢).

ويقسم هيجل المناطق الجغرافية لثلاثة أقسام هى: الأرض المرتفعة، ثم السهول الوديانية، وأخيراً المنطقة الساحلية، وهو يعتقد أن القارات

(١) نورى جعفر: التاريخ، مجاله وفلسفته، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) هيجل: محاضرات فى فلسفة التاريخ، ج ١ ص ٥٥.

الثلاث - أفريقية وآسيا وأوربا - تمثل بصفة عامة هذا التقسيم الثلاثي .
ويصف هيجل أفريقية بأنها الأرض المرتفعة، وآسيا هي منطقة السهول
والوديان، وتمثل أوربا المنطقة الساحلية، وعلى هذا فسكان أفريقية وآسيا
يعيشون معيشة قبلية، ومن آسيا انتشرت القبائل إلى أوربا. ومن الصفات
التي يتميز بها سكان أفريقية وآسيا الكرم من ناحية، وصفات النهب
والسلب من ناحية أخرى. ويضرب هيجل الأمثلة على الصفات الأخيرة،
فيذكر غزوات المغول التي أتت من جوف آسيا ودمروا في طريقهم كل ما
وجده، ويذكر شراسة الزنوج ضد أعدائهم في الحروب، في حين يعمل
سكان السهول في مصر والعراق والهند والصين، على أن تنشأ الدول
والممالك، حيث تكون الزراعة هي مصدر الرزق للسكان(١).

نظرية البطل والبطولة:

وثمة مدرسة تاريخية في القرن التاسع عشر تفسر التاريخ على أساس
نظرية البطل أو الإنسان العظيم، بمعنى أن الشخصيات العظيمة الهامة
في التاريخ هي الركائز الأساسية في عملية التطور التاريخي وتغيير
مجرى الأحداث، وتلك الشخصيات وحدها ينشأ التاريخ ويفسر. وأعظم
أنصار هذه النظرية هو بالطبع المفكر البريطاني المشهور توماس كارلايل
(١٧٩٥ - ١٨٨١) Thomas Carlyle، الذي يرى أن تاريخ العالم ما هو
إلا التاريخ، الذي أنجزه البطل أو الرجل العظيم، الذي ترك تأثيرا ليس
فقط في عصره، بل في العصور التالية، ولا تقتصر البطولة صانعة
التاريخ على البطولة السياسية والحرب، وإنما تنسحب على مختلف
جوانب الحضارة(٢). وقد قال كارلايل في كتابه «الأبطال وعبادة الأبطال

(١) المرجع السابق، ج ١ ص ٥٦.

(٢) Childe, History., pp. 39-40; Oman (Sir Charles), On the Writing of His-
tory. (London, 1969), p. 130.

وأعمال البطولة في التاريخ، الذي أخرجه سنة ١٨٤٠ م: «التاريخ كما أفهمه، وهو تاريخ ما أنجزه الإنسان في هذا العالم، إنما هو في أساسه تاريخ عظماء الرجال قادة العالم، فهم الأسوة والدمودج المحتذى، كما أنهم بمعنى واسع، يعتبرون المبدعين لكل ما حاولت الكتلة العامة من الناس القيام به أو الوصول إليه، فكل الأشياء التي نراها قائمة منجزة في هذا العالم، هي في الواقع النتيجة المادية، والتحقيق العملي والتجسيد الواقعي للأفكار التي دارت بخلد عظماء الرجال الذين أرسلوا إلى هذا العالم. هذا وإن جوهر تاريخ العالم بأكمله يمكن اعتباره بحق أنه تاريخ هؤلاء الرجال، وما تاريخ العالم إلا ترجمة حياة العظماء» (١).

وقد أعلن المؤرخ أندرو ديكسون هايت Andrew Dickson White عن إعجابه بكارلايل قائلاً: «لقد بدا لي دوماً أن كارلايل قد عبر عن حقيقة مبدعة عندما قال إن تاريخ أي بلد هو تاريخ عظمائه الذين صنعوه» (٢). ولكن المؤرخ جولدين سميث الذي أعجب كثيراً بأسلوب كارلايل، قد ارتاب في صحة الفكرة الرئيسية التي عبر عنها كارلايل عن أهمية الأفراد في التاريخ، فالرجال العظماء - كما يوضح سميث - لم يكونوا مبدعين، ولكنهم نتاج جيلهم ويعبرون عن ميوله أفضل تعبير، ويؤثرون فيه بقوة عبقريتهم.، وانفرد سميث ببعض الشخصيات العظيمة

(١) Young (L.M.), Thomas Carlyle & the Art of Hist. (New York, 1971), P. 128; Stern, The Varieties of Hist., P. 101;

ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢ ص ٨٤.

(٢) Ausubel (Herman), Histrotians and their craft. (New York, 1965), P. 256.

التي صورها كارلايل مثل النبي والشاعر والكاهن والأديب والملك، وطرح أسئلة منها: ماذا سيكون محمداً ﷺ بدون القبيلة العربية؟ وماذا سيكون شكسبير المتوفى سنة ١٦١٦م برواياته التراجيدية بدون عصر الملكة إليزابيث، وماذا سيكون فولتير بدون القرن الثامن عشر الذي عاش فيه، ونابليون بدون الثورة الفرنسية؟. ومن ناحية أخرى، أدى غلواء كارلايل إلى إضعاف الثقة بنظريته، خشية أن تتحول السلطة المعطاة إلى البطل إلى دكتاتورية تقضى على آخر أمل في الديمقراطية^(١). وفي سنة ١٩٣٩م وضع المؤرخ أومان Oman - إستناداً إلى كتاب كارلايل في الأبطال وعبادة البطولة - قائمة ببعض الشخصيات التي غيرت مجرى التاريخ، وقد اشتملت على الرسول محمد ﷺ، وبودا والإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر، وشارلمان، والبابا جريجوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥)، ووليم الفاتح، ونابليون، وپطرس الأكبر، وفرديريك ملك بروسيا المسمى فرديريك الأكبر. فإذا نظرنا إلى تلك القائمة نجد أن النظرية التي أتى بها كارلايل قد تعرضت للإخفاق التام، إذ لم يحدث أن اتفق إثنان من المؤرخين على قائمة واحدة تضم صناع التاريخ أو الأبطال، وإن كان هذا لا يعنى التقليل من أهمية دور هؤلاء الأبطال، ومن العيوب الأساسية لهذه النظرية أنها تغفل أثر البيئة الاجتماعية والوضع الاقتصادي والقواعد التكنولوجية التي نهض البطل من خلالها^(٢).

وهنا نلاحظ أن كارلايل راح يوازن بين شخصيات ليست من طبقة واحدة أو نوعية واحدة، فمثلاً يقارن بين شكسبير كبطل ومحمد عليه الصلاة والسلام كبطل، وهنا ينبغي أن نفرق بين العبقرية والبطولة،

Ibid., p. 256.

(١)

Oman, On the Writing of History., pp. 130-133.; Childe, History., p. 40. (٢)

فالبطولة درجة أعلى من العبقرية. وقد يكون الإنسان بطلاً وعبقرياً في آن واحد، في حين أن العبقرى قد لا تتوفر له البطولة. فمحمد ﷺ بطل وعبقرى في آن واحد، بينما شكسبير عبقرى فقط، وكل من الشخصيتين أدى دوره ورسالته، وعلى هذا فقد أخطأ كارلايل عندما وازن بين شاعر ونبي (١).

ومن الكتب التى أصدرها كارلايل رسائل وخطب كرومويل، وتاريخ فردريك الكبير، والثورة الفرنسية، وقد ضمنها جميعاً آراءه فى مهارة فائقة، ولكنها ذات قيمة متوسطة. وعلى الرغم من تحيزه الواضح وافتقار كتبه إلى المنهج الناقد، وقلة اعتماده على المصادر الجيدة، إلا أنه صاحب شهرة كبيرة كأعظم كاتب إنجليزى فى تصوير الشخصيات، (٢).

وفى وقتنا الحاضر، نشر المؤلف الأمريكى مايكل هارت كتاباً بعنوان «المائة: تقويم لأعظم الناس أثراً فى التاريخ». وأقام أسس اختياره على أن يكون الشخص عميق الأثر وعالمى، وليس إقليمياً، ومن هنا استبعد كل الزعامات السياسية والدينية والمواهب العلمية التى لها أثر محلى فقط (٣).

وأخيراً نتطرق إلى الحديث عن تراجم عباس محمود العقاد والعبقریات الإسلامية بصفة خاصة. فالعقاد كتب العبقریات عن قواد أبطال أكثر شهرة من غيرهم، فهل نلزمه بكتابة سيرة؟ الواقع أننا لو طلبنا منه ذلك لما زاد شيئاً عن الذين سبقوه وبخاصة أن محمداً ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً كثرت عنهم التراجم التى تناولت تطورات حياتهم، ولهذا كان لا بد للعقاد أن يدرس هؤلاء القواد العباقرة فى ظل

(١) أحمد حسين الطلاوى: على أدم بين الأدب والتاريخ (القاهرة ١٩٩٠)، ص ٩٦.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١ ص ٢٦١.

(٣) عاصم الدسوقى: البحث فى التاريخ، قضايا المنهج والإشكالات (القاهرة ١٩٨٦)،

ص ١١٧.

منهج آخر، ألا وهو رسم الصورة للشخصية من جميع جوانبها يراعى فيها التتابع التاريخي، حتى تتضح في الذهن تماما (١).

التفسير القومي للتاريخ:

وقد اهتم بعض الباحثين بالنظر إلى أحداث الماضي وتفسيرها من منظور قومي بحت. والقومية نابعة من الإنسان بوصفه فرد في جماعة، يشاركها لغتها وتقاليدها وآمالها وآلامها، ويجد سلامته في سلامتها، ويطمح إلى أن يراها عالية الشأن. وهنا نلاحظ أن العصور الوسطى لم تعرف القومية رغم وجود الكثير من مقوماتها في تلك العصور، ولكن القوى الباعثة لها لم تكن قد اتخذت طريقها بعد إلى المجتمع الأوربي. هذا إلى أن الكنيسة والإقطاع كانا يحولان دون أن تعبر القومية عن نفسها، فالكنيسة تفرض سيطرة عالمية لاتعترف بحدود قومية، والإقطاع لا يمكن أن يتمشى مع فكرة القومية، لأن القومية معناها وحدة عناصر الأمة والشعور بهذه الوحدة، والإقطاع يقوم على تفرقة أساسية بين النبلاء من ناحية، وبقية الطبقات من ناحية أخرى.

وقد ظهرت القومية في دول غرب أوروبا في العصر الحديث، حين ثارت على مفاهيم العصور الوسطى ونظمها وتقاليدها، ومن هذه الدول تسربت القومية إلى البلدان الأوربية الأخرى وإلى أمريكا. وقد سبقت الإشارة إلى أن الكونت جوبينو قد عرّف الجنس النبيل بأنه الألمان أو الآريون، وأعلن أن نقاء السلالة يضمن خلود الشعب، بينما يؤدي الاختلاط إلى الانحلال ويحمل معه بذرة الفناء، والحضارة الحقّة لا توجد، وفقا لرأيه، إلا حيث يسود الجنس الآري (٢).

(١) أحمد الطاوي: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) هانز كوهين: عصر القومية، ترجمة عبدالرحمن صدقي، مراجعة مصطفى حبيب، ص ٣٣.

ويمكننا أن نلمس بوضوح الروح القومية في أعمال بعض المؤرخين. فقد حاول الفيلسوف الألماني فخته Fichte في كتابه «رسائل إلى الشعب الألماني»، إثارة الألمان إلى أداء دورهم في التاريخ، قائلاً بأن «جرثومة الكمال البشرى ويزوره قد وكلت إليهم بوجه خاص». ومع أنه دفع بأن الأمة لاتصبح أمة إلا بالحرب وبقيامها بكفاح مشترك، راح مع ذلك يعلن: «ألا وأن مصيركم لهو المصير الأعظم، لإنشاء إمبراطورية تقوم على العقل والتفكير، وتدمير سلطان القوة الفيزيائية الغليظة بوصفها الحاكم المسيطر على العالم،» (١).

وتظهر كتابة التاريخ القومى فى كتاب «تاريخ فرنسا، الذى ألفه جول ميشيليه (١٧٩٨ - ١٨٧٤) Jules Michelet، ويعتبر هذا الكتاب من أعظم الكتب الأوربية التى كتبت عن تاريخ فرنسا فى أى عصر سواء من ناحية فصاحته أو من ناحية عرضه المثير. ذلك أن المؤلف تملكته مشاعر حب جارف لوطنه وتوافرت لديه قدرة خيالية خلاقه رائعة (٢). وقد رجع ميشليه فى كتاباته إلى مصادر أولية كانت مهملة، ونادى بأن الشعب، وليس زعمائه أو مؤسساته، هو الذى يشكل التاريخ (٣).

وهناك مؤرخون آخرون مثل درويسن (١٨٠٨ - ١٨٨٤) Droysen وتريتسشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) Treitschke فى ألمانيا، ركزوا كل اهتماماتهم على الكتابات التى تدور حول الموضوعات القومية الوطنية، فقد كان درويسن عضواً بارزاً لما يسمى «مدرسة المؤرخين البروسية»، وكرس حياته لوحدة ألمانيا تحت قيادة بروسيا (٤). أما

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢ ص ٧١ - ٧٢.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٣) Stern, The Varieties, of History., p. 108.

(٤) Ibid., p. 121.

نويتشكبه فقد كتب: «إن القلب القوى الجريء الذى يحس بأن أفراح الوطن وأحزانه هي أفراحه وأحزانه الخاصة، هو وحده الذى يستطيع أن يضفى طابع الصدق على أى سرد تاريخى،» (١).

وكما أدى الاعتزاز بالقومية بين الدول فى جميع مصادر التاريخ القومى الخاص بها، كذلك حدث أن دفع التنافس بين الدول الأوربية المختلفة فى القرن التاسع عشر إلى فتح أبواب دور الحفظ القومية منها والسماح للمؤرخين القوميين باستخدامها، بل إن البابا ليو الثالث عشر فتح أرشيف الفاتيكان سنة ١٨٨١ م. وحصل العلماء من غير رجال الدين على امتياز فحص ودراسة الكنوز التى احتوتها دور الحفظ فى الفاتيكان (٢).

كان لنمو القومية تأثير متعدد الجوانب على الكتابة التاريخية، كما أنه جاء نعمة ونقمة. ويبدو الجانب الطيب لهذا التأثير فى تيسير إعداد مجموعات من المصادر التى لم يكن من الممكن توفيرها لولا ذلك الدافع القومى. يضاف إلى ذلك ما صاحب عملية جمع المصادر من تدريب كثير من المؤرخين على أعمال جمع ونشر المصادر التاريخية. أما الجانب السئ من ذلك التأثير فيتركز حول خلق التحيز الخطير والمتطرف للوطنية، بحيث لم يعد بالإمكان تناول الحقائق التاريخية تناولا موضوعيا هادئا، حتى عند أرقى المؤرخين مستوى وتدريباً، وإنما أسهم الدافع القومى بقدر كبير فى إشعال روح التعصب والحماسة الوطنية، الأمر الذى أدى إلى كارثة الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م (٣).

ونصل إلى القول أنه مما يعاب على كتاب التاريخ القومى ميلهم إلى إثبات الأحداث التى تؤيد وجهة نظرهم، والحصول على الوثائق التى

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، ج٢ ص ١٤٤.

(٢) بارننز: المرجع السابق، ج٢ ص ٣٤.

(٣) بارننز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج٢ ص ٤٣ - ٤٤.

تقوى إتجاههم وتقريبهم إلى أهدافهم، حتى وإن كانت ضعيفة أو مشكوكاً في صحتها أو تطويها للروايات لتلائم مواقفهم.

التفسير الحضارى للتاريخ:

يرى بعض المؤرخين أن الحضارات التي نشأت في بيئات مختلفة من العالم، هي التي لعبت دوراً فعالاً في تفسير التاريخ. فقد ذكر المفكر الروسى نيقولاى دانيلفزكى (١٨١٢ - ١٨٨٥) Nikolai Dailebisky في كتاب ألفه عام ١٨٦٩م فحواه أن مجموع التاريخ الإنسانى مكون من نماذج أو مجاميع ثقافية مختلفة، لكل منها خصائصها ودورها في تقدم الإنسانية من نواحيها العديدة. وقد ظهرت من تلك مجموعات: المجموعة الثقافية المصرية، والصينية، والآشورية، والبابلية، والفينيقية، والكلدانية أو حضارة ما بين النهرين القديمة، والهندوسية، والإيرانية، والعبرية، واليونانية، والرومانية، وما بين النهرين الحديثة أو العربية، والجرمانية الرومانية أو الأوربية، والمكسيكية، والبيروية نسبة إلى بيرو بأمريكا الجنوبية، والروسية - السلافية^(١). وكل مجموعة من هذه المجاميع تركز على فكرة مسيطرة *Predominant idea*، ونشرت أنشطتها في تطورها. فالمجموعة الثقافية التاريخية اليونانية ركزت على الإدراك الحسى وتعبير الجمال، والجرمانية الرومانية ركزت على القانون والنظام السياسى، والصينية كانت مقيدة بالنعمية وهو مذهب يقول بأن تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس يجب أن يكون هدف السلوك البشرى، والهندية مالت لثقافة الغموض والخيال، أما المجموعة الجرمانية الرومانية فقد استنفذت فائدتها التي قامت أساساً على العناصر السياسية والعلمية، وبدأ

(١) Buddha Prakash, The Modern Approach to History. (Delhi, 1963). P. 49;

نورى جعفر: التاريخ، مجاله وفلسفته، ص ٦٨.

أقولها في القرن السابع عشر الميلادي، ويظهر ذلك في نمو التشاؤم، والتخلي عن القيم المسيحية، والتعطش الشديد للقوة والسيطرة، أما المجموعة الثقافية الروسية - السلافية فهي تدخل حالياً عصر النضج وتبشر بمستقبل البشرية^(١). ولاشك أن دانييلفزكي كان هدفه من ذلك أن يبين آخر الأمر أن هناك وحدة صقلبية أو سلافية تتزعمها روسيا.

والجدير بالذكر أن دانييلفزكي قسم الجنس البشري من حيث المساهمة في أحداث الثقافة والحضارة إلى ثلاثة أقسام، سمي القسم الأول بالشعوب الإيجابية أو الشعوب المبدعة التي قامت الحضارة على أكتفاها وهي التي ذكرناها، وأطلق على القسم الثاني الشعوب السلبية أو الشعوب المخربة مثل المغول، والهون والأتراك وبخاصة في بداية تكوينهم الاجتماعي، وأطلق على القسم الثالث الشعوب التابعة فلا هي بالمخرية ولا هي بالمبدعة من نفسها، وإنما يتوقف عملها على نوع الشعوب التي تستولي عليها^(٢).

وقد تناول فكرة دانييلفزكي الفيلسوف الألماني أوزوالد شبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) Oswald Spengler في كتابه «إضمحلال الغرب» الذي ظهر جزؤه الأول سنة ١٩١٩م، فيرى أن التاريخ مكون من كائنات عضوية حية هي الحضارات، وكل حضارة منها تشبه الكائن العضوي تمام التشابه، فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان أو الحيوان أو الشجرة سواء بسواء، والتاريخ العام هو ترجمة حياة هذه الحضارات^(٣). وهو يقصد بذلك أن ميلاد الحضارات ونموها وازدهارها ثم أفولها ما هو إلا

(١) Buddha Rakash, Op. Cit., P. 49.

(٢) نوري جعفر: المرجع السابق، ص ٦٨.

(٣) عبدالرحمن بدوي: اشبنجلر (بيروت ١٩٨٢)، ص ١٠١.

عملية بيولوجية تشبه ما يحدث للكائنات الحية، فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان سواء بسواء.

ولما كانت الحضارة كالكائن العضوي الحي، فإنها تمر بنفس الأدوار التي يمر بها هذا الكائن الحي إبان تطوره. فكل حضارة طفولتها وشبابها ونضجها وشيخوختها، أو أن كل حضارة مرت أدوارها بأدوار السنة، أي أن لكل حضارة ربيعها وصيفها وخريفها وشتاءها، ولكل دور من هذه الأدوار خصائص الفصول السنوية، أو خصائص حياة الإنسان المناظرة لها^(١). فدور الطفولة (الربيع) يتميز من الناحية السياسية والاقتصادية بانتشار الإقطاع وسيادة المفاهيم الإقطاعية في الحكم على المجتمع في جميع أوجه حياته، ودور القوة والنشاط (الصيف) يتضح في انتقال السيادة من الريف إلى المدينة حيث تنمو الصناعة وتنتقل الثروة من روساء الإقطاع إلى الطبقة الوسطى من التجار، ودور الذبول والانحطاط (الخريف)، ودور الإضمحلال والتفسخ (الشتاء)^(٢). وقد أوضح شبنجلر أن الحضارة الغربية تمر الآن بشتائها، وقد تسلم هذه الحضارة الزمام إلى الجنس الأصفر.

وقد توصل شبنجلر في دراسته للحضارات القديمة والحديثة إلى أن عدد تلك الحضارات تسع حضارات فقط هي الحضارة المصرية القديمة، وحضارة وادي الرافدين، والحضارة الهندية، والحضارة الفارسية، والحضارة اليونانية - الرومانية، والحضارة الغربية (المسيحية)، والحضارة الإسلامية، والحضارة المكسيكية^(٣). ولكل حضارة أسلوبها المتميز عن أسلوب غيرها تمام التمايز، أسلوب تستطيع أن تتلمسه في كل مظهر من

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) نوري جعفر: التاريخ، ص ٨٧ - ٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٩.

مظاهرها فنجده واضحا كل الوضوح: من فن ودين وعلم وسياسة وتركيب اجتماعي^(١). ذلك أن كل حضارة كيان مستقل منعزل تمام العزلة عن كيان غيره من الحضارات، ولاسبيل إلى اتصال حضارة بحضارة أخرى مادامت كل حضارة، بوصفها كائناً عضوياً، ووجوداً حقيقياً، تكون وحدة مغلقة على نفسها. وما نشاهده من التشابه، في الموضوع أو في أسلوب التعبير بين حضارة وحضارة، إنما هو في رأى شبنجلر مجرد وهم، إنه ليس إلا تشابهاً في الظاهر لا يتعدى الجوهر، لأن كل حضارة تعبر عن روح، والروح تختلف من حضارة إلى أخرى تمام الاختلاف في جوهرها وأسلوبها وممكنات وجودها^(٢). وقد اختارت كل حضارة طابعا معيناً في الفن تعبر به عن روحها وشخصيتها، إنه في حضارة مادية تتصور اللامحدود محدوداً واللامتناهي متناهياً وتجسيم الروح تجسيماً مادياً، وقد عبر الإغريق عن آلهتهم بصورة مجسمة محدودة في النحت الذي يمثل التجسيم والتحديد؛ أما الحضارة الإسلامية فقد استبعدت النحت والتصوير لأنها لا يلائمان روحها المجردة، وإنما عبر المسلم عن عقيدته بالزخرفة لأنها خطوط فيها جانب التجريد والمفارقة للجسمية والمادة، أما الحضارة الأوربية فيعد الفن التعبيري معبراً عن خصائصها، فالموسيقى لغة عالمية تعبر عن عالمية المسيحية، والموسيقى تعبير عن اللامتناهي لأن إله المسيحية لامتناه، والموسيقى لغة الروح لأن إله المسيحية روح لا جسد^(٣).

ويعتقد شبنجلر أن الحضارة تولد في اللحظة التي يتسنى للمجتمع أن يظهر فيه زعيم تختاره العناية الإلهية للسير بالمجتمع من وضعه الحاضر

(١) عبدالرحمن بدوي: اشبنجلر، ص ١٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٣) أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

المتأخر إلى وضع أرقى منه تعينه العناية الإليعة بنفسها. ويقتصر دور الزعيم على مدى أمانته وإخلاصه في تنفيذ ذلك. وينتهي دور البطل أو الزعيم عندما تبدأ الحضارة نفسها - وفقا للعناية الإلهية - بالانطواء على نفسها فيذوى كثير من جوانبها ويعتريها الذبول والانحلال^(١). غير أن الحضارة مع هذا لا تموت حتما بعد فترة وجيزة من تسرب الانحلال إلى جسمها، فقد تستمر مئات السنين وهي في حالة الاحتضار والضمور إلى محاولات كثيرة مبعثرة يقوم بها بعض الأفراد لغرض بعثها من جديد، إلا أن جهودهم تذهب أدراج الرياح إذا كان لا بد لتلك الحضارة أن تموت^(٢).

وقد وجه عالم الاجتماع الروسى سوروكين النقد إلى شبنجلر وإلى من يقول معه بأن الحضارة تولد وتنمو وتزدهر ثم تضمحل، وأنكر عليهم منهجهم هذا في تفسير الحضارات، إذ رأى سوروكين أن الحضارة ما هي إلا تكتل لظواهر اقتصادية وسياسية وعلمية ودينية، وهذه الظواهر هي الإنسانية كلها توجد في مكان ثم تنتقل في مكان آخر^(٣).

كذلك هاجم كثير من المؤرخين شبنجلر لأسباب علمية أخرى، وعلقوا أهمية كبرى على بعض الأخطاء التاريخية التي وقع فيها في دراسته الواسعة. ومهما يكن من أمر رأيه في الحضارة الغربية وتعذر إعادة الشباب إليها، كما يتعذر إعادة الشباب إلى إنسان بلغته الشيخوخة، فإن الباحث لا يملك إلا أن يرى أنه قد ذهب في تشبيهه دورة الحضارة بدور حياة الكائن الحي إلى مدى بعيد لا يتفق والمنهج العلمى. ذلك أن الكائن الحي يبدأ في الموت بعد أن يصل جسمه إلى درجة معينة من

(١) نورى جعفر: التاريخ، ص ٨٩ - ٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣) نيفين علم الدين: فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبى، ص ٦٨.

النمو، في حين أن الشعوب أو الجماعات يتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل، ولا وجه لوصف حضارة ما بالشيخوخة إلا على سبيل المجاز المحض، فالشيخوخة هنا هي الضعف والفساد في الظواهر الاجتماعية والسياسية التي تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية. ولا وجه لتمثيل الحضارة بالكائن الحي، أو تفسير مسار التاريخ تفسيراً بيولوجياً، فضلاً عن أن التاريخ قبل كل شيء، هو مجال الحرية الإنسانية، فليس فيه ما في الطبيعة من حتمية الظواهر، ولذلك فليس ثمة مجال للمقننين بين دارسيه^(١).

أما المؤرخ الإنجليزي المعروف أرنولد توينبي (Ar-nold Taynbee، ١٨٨٩ - ١٩٧٥) فقد قدم لنا نظريته «التحدى والاستجابة» Challenge and Response التي تلعب دوراً رئيسياً في تصوره للتطور الحضاري، وفي تفسير أحداث التاريخ واستخلاص نتائجها وعبرها. والتحدى يعنى هنا وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان في بناء حضارته، وعلى قدر استجابته لها تكون تلك الاستجابة ناجحة إذا تغلب على هذه المصاعب، أو استجابة فاشلة إذا عجز عن التغلب عليها.

ويذكر توينبي أن الظروف الصعبة هي التي تتحدى قدرة الإنسان وتستحثه على العمل لتكوين الحضارة. ويضرب لنا توينبي مثلاً على هذا بأن الرأي السائد منذ القدم أن الحضارة قد نشأت أول ما نشأت في مصر بسبب خصوبة أرضها ووفرة مياه نيلها، ولما وصف هيرودوت أرض مصر وصفها بأنها «هبة النيل». غير أن الأبحاث العلمية الجادة تشير إلى أن هذا القول ينطوي على خطأ كبير. ذلك لأن حضارة مصر الزراعية ليست هبة من النيل، وإنما هي حصيلة جهود الإنسان المصري الذي أقام

(١) عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ج ١ ص ٩٠.

المقاييس، ورصد النجوم، وتوصل إلى حسابات السنة الشمسية وتقاويمها، أى أن الانسان المصرى هو الذى سيطر على الطبيعة وأخضعها لخدمة أغراضه الإنسانية(١). ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما حدث عندما اضطهد الرومان الجماعات المسيحية الباكورة من العبيد والفقراء، فقد سعى هواء المضطهدون إلى التماسك والتسلح بقوة الإيمان، حتى قدر لهم فى نهاية الأمر أن ينتصروا عندما أصبحت ديانتهم هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية كلها(٢).

وقد حرص توينبى على أن يتجنب ما وقع فيه شبنجلر من خطأ، حين غلبت عليه نزعتة الفلسفية، فمثل الحضارات بالكائن الحى، ورتب على ذلك ما رتب من النتائج الحتمية الملازمة لقيام الحضارات وفنائها، وفقا لقانون الموت والحياة فى عالم الطبيعة. ولقد عبر توينبى نفسه عن ذلك، موضحا ما بين منهجه ومنهج شبنجلر من اختلاف، فقال: «لقد اضطرب عدد كبير من أبناء عصرى عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، فأدركوا أن الموت ينالنا نحن أيضا. إن هذه التجربة القاسية، أظنها فيما يخصنى قد وجهت موقفى من شأن مستقبل حضارتنا الغربية. غير أنى شعرت أيضا من الناحية العلمية، أنه من الحسن بالنسبة للمجتمعات، أو قل بالنسبة لأعضاء تلك المجتمعات أن يدركوا أن الموت ينالهم. ففيما يخص حياتنا الفردية، فإننا لاحيلة لنا، فنحن نقبل بريادة جأش ثقل وتزيد، أن يحين أجلنا بعد ربح من الزمن، غير أنى لا أعتقد. وأنا فى هذا الصدد أخالف شبنجلر مخالفة تامة. أن المجتمعات من هذه الناحية شبيهة بالأفراد البشرية. إن الكائن البشرى كالحَيوان أو النبات، كتب عليه الموت بعد أجل معلوم. وإنى لا أرى لماذا يكون كذلك

(١) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ١٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٩.

المجتمع، قد كتب عليه هو أيضا الموت. إنى أو من إيماناً راسخاً بالاختيار، وبأن المستقبل مفتوح، إنى ألاحظ طبعا أن جل المجتمعات البشرية، لما ارتكبت من أخطاء وحقايق، قد اندثرت كلها بعد عصور متفاوتة الطول، غير أنى لأعتقد أن مجتمعا واحداً من هذه المجتمعات قد كتب عليه هذا المآل. هذا هو الفرق الجوهرى بين نظرتى ونظرية شينجلر؛ فأنا إذا أقف موقفاً من الحضارة الغربية، غير أنى لا أقف منها موقفاً متشائماً،^(١).

ويعتبر توينبى الحضارة هى الوحدة الموضوعية لدراسة التاريخ، أى أن التاريخ لا يمكن أن يدرس دراسة علمية صحيحة أو أن يتوصل الباحثون إلى معرفة اتجاه سيره وعوامل تغيره إلا إذا درست كل حضارة على حدة كشىء قائم بذاته بغض النظر عن جنسية الشعوب المساهمة فيها أو مواقعهم الجغرافية أو لغاتهم أو ألوانهم. وقد توصل توينبى أثناء دراسته إلى أن مجموع الحضارات التى ظهرت منذ فجر التاريخ الإنسانى حتى الآن لا يتجاوز ثلاثين حضارة، منها إحدى وعشرون حضارة ولدت ولادة طبيعية أدت رسالتها وبلغت أقصى مراحل نموها فى جميع مظاهر حياتها، ومنها خمس حضارات لم تبلغ فى نموها غايتها، بل وقفت فى محل ماسماها توينبى «الحضارات المتعطلة»، أو «الحضارات المتوقفة» - Ar- rested Civilization لأنها ظلت على ما هى عليه^(٢)، وتلك الحضارات هى: الحضارة المسيحية الغربية (أوروبا وأمريكا)، والحضارة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية (روسيا ودول البلقان)، والحضارة الإسلامية، والحضارة الهندية (الهندوسية وبوذية الهينايانا)، وحضارة الشرق الأقصى أو (بوذية المهايانا)^(٣). أما الأربع الحضارات الأخرى، فقد زعم توينبى أنها أجهضت قبل أوانها ودعاها Aborative Civilizations .

(١) عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، ج ١ ص ٩١ - ٩٣ .

(٢) نورى جعفر: التاريخ، ص ٩٠ - ٩١، منح خورى: التاريخ الحضارى عند توينبى (بيروت ١٩٦٠)، ص ٣٨ .

(٣) أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ٢٦٦

ويرى توينبى أن الحضارة لا تنمو وتزدهر إلا إذا توافرت شروط
ثلاثة (١):

١ - وجود أقلية من السكان تتصف بالإبداع الفكرى والاجتماعى
والسياسى والعسكرى لتمضى بالمجتمع قدما. ولا يشترط بطبيعة
الحال أن يتصف كل فرد من أفراد تلك الأقلية بجميع تلك الصفات.
ولكن ينبغى حتما أن تضم تلك الأقلية أفراداً يمتاز بعضهم بالإبداع
الفكرى وبعض آخر بالإبداع الاجتماعى، ولا بأس من توافر أكثر من
صفة واحدة من تلك الصفات فى الفرد الواحد..

٢ - أن يتسنى لتلك الأقلية تصريف شئون الملك وحكم البلاد والمجتمع
شريطة أن يتعاون أفرادها جميعا فى أداء مهمتهم على وجهها الأتم
من جهة، وأن يكون هدفهم خدمة البلاد والمجتمع ورفع مستواه
المعاشى والفكرى من جهة أخرى. ولا يتم ذلك إلا إذا استطاعت تلك
الأقلية الحاكمة أن تكيف ظروف الحياة المادية والفكرية وفقاً
لأهدافها، وتستذل قوى الطبيعة حسب إمكانياتها المادية والفكرية،
وتسخر قوى المجتمع لخدمة المصلحة العامة، وفى الوقت نفسه
ينبغى لها أن تكون على أتم استعداد لتكييف نفسها وأحوالها المادية
والفكرية حسب مقتضيات الظروف وفقاً لأهدافها.

٣ - ظروف جغرافية ملائمة يأتى فى مقدمتها مناخ مناسب لاهو بالحر
ولا هو بالبارد.

وهكذا فقد رأى توينبى أن الشخصية الفردية المبدعة، وليست
الشعوب هى القوى المحركة الرئيسية لتطور المجتمعات، ويأخذ بعض
المؤرخين ذلك على توينبى، لأن هذا المنهج يودى إلى اعتبار أن الصناع

(١) نورى جعفر: التاريخ، ص ٩١ - ٩٢.

الحقيقيين للتاريخ هم هؤلاء «الشخصيات المبدعة، الذين يطلق عليهم توينبى إسم «الصفوة». وينكر البعض على توينبى هذه النظرية التي تعتقد بأن الشعوب تمثل عقبة في وجه التطور، فهي قوة خاملة لا تمثل دوراً إيجابياً، ولكن الحقيقة أن الشعوب هي صاحبة الدور الحاسم في التقدم التاريخي^(١).

ويعزو توينبى ضعف الحضارة ثم تفسخها وانحلالها وانهارها إلى تغير فلسفة الفئة الحاكمة في الحكم. ويمكن إجمال طبيعة الانهيار في ثلاث نقاط:

الأولى: قصور الطاقة الإبداعية في أقلية المجتمع وهي التي تتولى قيادة أغليته العظمى العاطلة عن الإبداع.

الثانية: عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقة هذه الأقلية الرائدة الإبداعية.

الثالثة: تفكك وحدة المجتمع الاجتماعية، وذلك لانصراف الأغلبية الساحقة عن بذل الولاء للأقلية الرائدة القائدة، تلك الأقلية التي كانت طاقتها الإبداعية تستهوي غالبية المجتمع الساحقة وتدفعها لبذل الولاء والطاعة وتحفزها للإقتداء بها، وعندئذ يسير المجتمع كله قدماً في طريق التقدم والارتقاء. فإذا تقاعست الأغلبية عن الولاء لأقلية المجتمع - بسبب زوال افتتان الأغلبية بالأقدمية بعد ضمور طاقتها الإبداعية - فإن أقلية المجتمع تتشبهت بسلطانها وتتحول إلى طبقة مهيمنة تسعى لفرض سلطانها على المجتمع وتعمل على حكمه باستخدام القوة العارمة، فتزد الأغلبية المجتمع على هذا بالثورة على الأقلية الحاكمة والانتفاض عليها،

(١) نيفين علم الدين: فلسفة تاريخ عدد أرنولد توينبى، ص ١٢٨ - ١٢٩.

وهذا تتفكك وحدة المجتمع وتحل قواه^(١)، وهذا بدوره يؤدي إلى موت الحضارة واندثارها.

ويعصور توينبى عوامل إخفاق الأقلية الرائدة للمجتمع فى الاستجابة لتحديات العصر بوساطة سرد أمثلة من التاريخ. من ذلك المثال التقليدى عن تجسيد المجتمع المصرى السيادة السياسية فى عصر الدولة القديمة فى إنسان بشرى. وقاد تشبث المجتمع بفكرته إلى إعراضه عن رسالة سامية نادى بها أخناتون الذى رنا لتجديد شباب مجتمعه روحانيا. وبمعنى آخر، فإذا كان المجتمع المصرى قد استجاب بنجاح فائق لتحدى البيئة، إلا أنه قد أخفق فى الاستجابة لنداء رسالة أسمى وأعظم صفاء. أى رسالة أخناتون. ، وأدى هذا الفشل إلى انهيار الحضارة المصرية مبكراً^(٢).

ومن رأى توتنبى أن المهارة المصرية الفنية وثروات البلاد قد وجهت توجيهها سينا صوب بناء الأهرامات بغية منح الخلود والمجد لأصحابها عوضاً عن تكريسها لنيل مزيد من السيطرة على البيئة الطبيعية لكفالة مصالح المجتمع بأسره. ولم تكن الملكية المؤلها الكابوس الوحيد الذى قصم ظهر الفلاحيين المصريين فى عصر الدولة القديمة، إذ كان عليهم أن يحملوا كذلك عبء طبقة بيروقراطية تتمثل فى موظفى الدولة وطائفة الكهنة، ثم أصبح على هؤلاء الفلاحيين أن يحملوا فوق ظهورهم كذلك أعباء نفقات الجنود المرتزقة الذين أخذ فراعنة الأسرة العشرين وما بعدها يستعينون بهم لصد هجمات أعداء البلاد، فلاعجب أن يتصدع بنيان الحضارة المصرية وتنهيار، ثم تتحلل فى نهاية المطاف^(٣).

(١) فؤاد شبل: منهاج توينبى التاريخى، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١.

ومهما يكن من أمر، فإن المدارس التاريخية التي أشرنا إليها في مجال تفسير التاريخ، تتناول الأحداث التاريخية من خلال اهتمامات خاصة في النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والقومية، وفي مثل هذه الحالة ترفض تلك المدارس قبول الآراء المعارضة، وذلك على حساب الحقيقة التاريخية. أما الوجة الأخرى المقابلة لتلك المدارس في دراسة التاريخ، فهي أن نبدأ دراستنا لأحداث التاريخ بعيداً عن أى اتجاه معين أو نظرية سابقة أو فلسفة مفروضة. فالتاريخ - كما ذكرنا - علم، والعلم من خصائصه البعد عن التحيز، وأن نحاول استعادة الماضى بدراسة ما لدينا من أصول ومواد تاريخية، ثم نكون آراءنا ونضع نتائجها بعد الدراسة والتحليل في أيدي الأجيال الحاضرة.

الفصل السابع

العلوم المساعدة للتاريخ

علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)

علم الاجتماع

علم السكان

علم النفس

العلوم السياسية

الجغرافيا

علم الاقتصاد

اللغات

فقه اللغة (الفيلولوجيا)

قراءة الخطوط (الباليوجرافيا)

الأختام

علم الرنوك

علم النميات

الآثار

الوثائق

الأدب

مهنة المؤرخ تشبه معظم المهن، فمن المستحيل ممارستها دون أن تكون لدى المرء بضاعة خاصة من المعلومات الفنية لا تغنى عنها المواهب الطبيعية ولا المنهج. وحول العلوم المساعدة للتاريخ يذكر ما بلى Mably في كتابه «مبحث في دراسة التاريخ، بأن هناك دراسات تحضيرية لا يمكن للقارئ أيا كان شأنه، أن يستغنى عنها، مثل القانون الطبيعي، والقانون العام، والعلوم الاجتماعية والسياسية. كما تساءل دونو Dauno في كتابه «محاضرات في الدراسات التاريخية، عن ماهية الدراسات التي سيحتاج إليها من يكرس نفسه لكتابة التاريخ، فقال بأنها دراسات أدبية وفلسفية وتاريخية، بالإضافة إلى اللغات ومعلومات في الفيزياء وفي الرياضيات^(١). وقد قال المؤرخ الإنجليزي فريمان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) Freeman إنه من واجب المؤرخ أن يعرف الفلسفة والقانون والمالية والأجناس وعلم الانسان (الأنثروبولوجيا) ، ولهذا فإنه بقدر ما تتعدد الفروع الخاصة في المعارف التي يكون المؤرخ حجة فيها، يكون أكثر استعداداً لعمله الذي اتخذه مهنة له^(٢). ولاريب في أن ابن خلدون كان أصدق نظراً عندما أوصى بأن يحصل المؤرخ ثقافة اجتماعية تعينه على فهم حوادث التاريخ، وهذا هو ما دعاه إلى إنشاء علم العمران الذي يهدينا إلى معرفة قوانين كل من العمران البشري، والطبيعة الإنسانية. فإن ذلك هو المعيار الذي ينبغي أن نعتمد عليه لفهم الحوادث الماضية تمهيداً لإمكان تفسيرها^(٣).

والحقيقة أن كل العلوم على الإطلاق تعد علوماً مساعدة للتاريخ وتفيد الدراسة التاريخية، وذلك لطبيعة التاريخ نفسه، كعلم يتناول جميع

(١) عبدالرحمن بدوي: النقد التاريخي (الكويت ١٩٧٧)، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) محمود قاسم: المنطق الحديث مناهج البحث (القاهرة ١٩٤٩)، ص ٤٢٩.

الجوانب السياسية والاجتماعية والفنية والفكرية. وسوف نشير إلى العلوم المساعدة للتاريخ، والتي لا يستطيع الباحث في التاريخ إغفالها، مهما كان نوع التخصص الذي سوف يكتب فيه.

علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) Anthropology :

ربما كان علم الإنسان أشد العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين. ذلك أن علماء الانسان والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة، وتظهر بينهم عند بحثها اختلافات متشابهة في الرأي. والخط الفاصل بين علم الآثار والتاريخ غير واضح، وقد جرى علماء الإنسان على دراسة ثقافة الإنسان البدائي. أما المؤرخون فيدرسون الإنسان المتحضر، وهنا أيضا نجد أن الخط الفاصل ليس حداً قاطعاً^(١).

ومن أعظم أسباب التخبیط بشأن مكانة علم الإنسان في باب العلوم الإنسانية، أن مادته كما هي الحال تماماً في التاريخ ذات صبغة عامة. فليس لعلم الانسان وجود منفصل كالطبيعيات، وإنما هو موجود من حيث أنه ميدان يلتقى فيه كل من لهم اهتمام بالإنسان. وقد ظهرت أربعة فروع منفصلة لعلم الانسان هي: علم الانسان الفيزيائي الذي يدرس التطور البيولوجي والتغاير السلالى للإنسان، وعلم الآثار، الذى يسعى إلى اكتشاف طبيعة ثقافات الإنسان فيما قبل التاريخ، وعلم اللغات الأنثروبولوجى الذى يحل الثقافات الشفوية والمدونة، وعلم الإنسان الثقافى الذى يدرس الثقافات المعاصرة والنماذج الشخصية والعلاقات البشرية^(٢). وعلم الانسان يعالج بالضرورة المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى، وانتشار البشرية على سطح الأرض، ونشوء

(١) إتكين (هيوج): دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة د. محمود زايد (بيروت ١٩٦٣)، ٢٦ - ٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٨.

الثقافات الإنسانية . ثم إن مناهج علم الآثار وعلم الإنسان الفيزيائي هي في أساسها مناهج التاريخ مع تعديلات تتطلبها المعطيات (١) .

وقد أسهم علماء الإنسان إسهاماً عظيماً في فن التحليل التاريخي وذلك على وجه التحديد عن طريق تفسير تطور البشرية وشرح أوجه التشابه فيها، فضلاً عن توضيح تنوعها والفروق بين نواحيها المختلفة . ومن الطبيعي أن يكون هذا الأسلوب غير ذي موضوع بالنسبة للباحث التقليدي في التاريخ الذي لا يهتم إلا بالأحداث الفريدة، ولكن لاغنى عن هذا الأسلوب للمؤرخ الذي يسعى إلى علاج تاريخ الحضارة والثقافة علاجاً علمياً (٢) .

هذا إلى أن علم الإنسان فيما يختص بمسائل الجنس والدين ساعد على تحرير المؤرخ من التعصب الوطني والفكري، فمنذ جيل واحد مضى كان أبرز المؤرخين وأكثرهم موضوعية واقعا تحت تأثير جوبينو-Gobi-neau بنظرياته الشاذة غير المقبولة القائلة بتفوق الجنس الأبيض ويتفوق المجموعة الآرية من بين هذا الجنس الأبيض . ولم يكن هناك تأثير أكثر ضرراً وإساءة بالموضوعية التاريخية من تأثير الأساطير المتعلقة بفكرة وحدة الجنس وثباته على ما يترتب على هذه الفكرة من الإحساس بتفوق جنسى أو تخلف آخر (٣) . كذلك فإن علم الإنسان فعل الكثير من أجل الإقلال من التعصب عند تناول مشكلة تاريخ الدين . من ذلك أن التحليل الأنثروبولوجي للأصول الدينية، أوضح أن هناك تشابهاً كبيراً يظهر في أصول الديانات وفي الأشكال التي اتخذها رد الفعل تجاه مسائل ما وراء الطبيعة عند شعوب الأرض قاطبة، فضلاً عن أنماط السلوك النفساني المرتبط بالظواهر الدينية (٤) .

(١) المرجع السابق، ص ٢٨ . (٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ٢ ص ١٧٩ .

(٣) المرجع السابق، ج ٢ ص ١٨٢ . (٤) المرجع السابق، ج ٢ ص ١٨٤ .

علم الاجتماع:

علم الاجتماع كعلم الإنسان دراسة شاملة شمولاً تاماً للأفعال والعلاقات الإنسانية. ويعرف عالم الاجتماع ميدانه بأنه دراسة للمجتمع وبنائه ووظائفه وعملياته. فإذا نظر أحد إلى الحدود المضمنة في مثل هذا التعريف فلا يبدو هناك إلا فرق ضئيل بين ميادين علم الإنسان الثقافية أو الاجتماعية وبين علم الاجتماع، وإن كان ثمة اختلافات فيما يختص بمحور الاهتمام ويمناهج البحث^(١).

ولقد تشعبت فروع الدراسة التاريخية في العصر الحديث، فلم تعد تقتصر على سرد التاريخ السياسي في الدول، وأخبار الملوك والعروش، بل تطرقت إلى دراسة الشعوب والجوانب الاقتصادية والاجتماعية. ويعرف لنا المؤرخ البريطاني تريفليان التاريخ الاجتماعي على أنه الحياة اليومية لسكان الأرض في العصور الخالية. ويشمل هذا العلاقات الإنسانية والاقتصادية بين بعض الطبقات المختلفة وطبيعة حياة الأسرة والحياة المنزلية وظروف العمل والفراغ وموقف الناس من الطبيعة، وثقافة كل عصر عندما انبثقت من ظروف الحياة تلك واتخذت ألواناً دائمة التغير من الديانة والأدب والموسيقى وهندسة البناء والعلم والفكر. ويقول إجمالاً: بدون التاريخ الاجتماعي يصبح التاريخ الاقتصادي عقيماً، ويصبح التاريخ السياسي غير قابل للاستيعاب^(٢).

علم السكان:

ويتناول علم السكان أحجام الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافي، والتغيرات التي تصيبها وأهمها التكاثر والوفيات والهجرات. وقد كان لعلم

(١) إتكين دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص ٣٤.

(٢) راوس: التاريخ، ص ٦٠.

السكان فيما مضى صلوات وثيقة بعلوم طبيعية وطنية معينة مثل الإحصاء وتقدير الأعمار والأوبئة والجغرافيا البشرية. وبالتوسع في تفسير المجال الذي تتناوله دراسات السكان نشأت علاقات أوثق بين هذا العلم والعلوم الاجتماعية وخاصة الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس. كما ازداد استعمال مفردات هذه الميادين ومفهوماتها. ويستطيع الإنسان أن يلحظ الزيادة في عدد الدراسات التاريخية خلال العقد الماضي من السنين أو خلال ما يزيد قليلا عليه (١).

علم النفس:

يعتبر علم النفس بفروعه المختلفة من العلوم اللازمة لدراسة التاريخ. فعلماء النفس الذين لهم دراسة بالمنهج التاريخي، والمؤرخون الذين لهم دراية بمبادئ علم النفس وتقنيته، يستطيعون عن طريق دراسة الشخصية من مواقع صور الشخصيات التاريخية، أن يجعلوا مثل هذا العلم القائم على دراسة الشخصيات أكثر رسوخا، وأكثر دقة، وأكثر تنوعا (٢).

ولكى يفهم المؤرخ تاريخ العلوم أو الفنون في بلد معين وفي فترة محددة، لابد من دراسة علم النفس الاجتماعي، لأنه بدون دراسته من الصعب فهم التطور المادي في المجتمع. وما من واقعة تاريخية إلا ويسبقها ويرافقها ويعقبها حالة من حالات الشعور والوعي، ومن هنا تأتي دراسة السيكولوجية الاجتماعية للمجتمع الذي نتناول دراسته في فترة زمنية معينة، وبدون ذلك لا يمكننا أن نخطو خطوة واحدة في مجال فهم تيارات الأدب والفن والفلسفة والأغنية التي ترجم سيكولوجية الشعب إزاء قضايا معلنة أو مكبوتة (٣).

(١) إنكن: المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) لويس جوتشاك: كيف نفهم التاريخ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣) سيد الناصري: فن كتابة التاريخ، ص ٢٣١.

إن دراسة السيكولوجية الاجتماعية تساعد المؤرخ على أمرين في غاية الأهمية بالنسبة للبحث التاريخي: أولهما تشخيص الحقائق التاريخية، وثانيهما وضع تفسير ومبادئ لتفسير هذه الحقائق. فضلا عن أن المؤرخ يستطيع أن يكسب ويتعلم أشياء جديدة من علم النفس الاجتماعي مثل مفهوم عقدة النقص عند القادة والشعوب والانطواء والكبت وغيرها من سائر الأمراض النفسية التي تنتشر في مجتمع معين. كل ذلك بالتأكيد سوف يهذب الكفاية الإدراكية للمؤرخ ويساعده على إعادة اكتشاف ما هو واضح (١).

ويستطيع التاريخ أن يستقى من علم النفس معظم المعلومات الهامة المتعلقة بطبيعة دوافع وأنماط وضوابط التصرفات البشرية. فالعقل هو العامل الموحد والمنسق في الفرد والمجتمع على السواء. وينبغي أن نتبين أنه يستحيل على المؤرخ أن يفهم أنماط سلوك الناس في الماضي دون أن يكون مزوداً بقدر كاف من المعرفة عن السيكولوجية العامة للسلوك البشري (٢).

ويمكن إدراك أهمية صلة علم النفس الاجتماعي بالتاريخ، في تفسيرات ظهور الرجل العظيم، على الرغم من أن بعض المؤرخين يختلفون فيها، ويقدمون تفسيرات اقتصادية في المقام الأول. وهناك دراسة أخرى لها صلة قوية بعلم التاريخ وهي دراسة سيكولوجية الزعامة والقادة الذين غيروا وجه التاريخ، إذ اعتاد علماء النفس الاجتماعي أن يلتمسوا في الزعماء صفات معينة من الشخصية تمكنهم من أداء دورهم بنجاح متفاوت، الأمر الذي يجعل المؤرخ قادراً على تحليل قراراتهم (٣).

(١) إتكين: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص ٥٥، سيد الناصري: المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٣) إتكين: المرجع السابق، ص ٦٤.

العلوم السياسية:

لاتزال الأحداث السياسية هي الأساس العادي في التركيب التاريخي، ولذلك يميل المؤرخون إلى الاعتقاد بأنهم على اطلاع كاف في ميدان الحكم أو علم السياسة^(١). ومن أهم الجوانب التي يغطيها علم السياسة العلاقات الدولية أو ما يعرف بالدبلوماسية. والمؤرخ بالتأكيد يهتم هذا الجانب لأنه كما قال بعض الفلاسفة، التاريخ هو علم السياسة في الماضي. وعلم السياسة هو علم تاريخ المستقبل، فالعلاقات بين الدول والمعاهدات التي تعقد بينها تشكل اتجاه السياسة العالمية وقيام التحالفات القومية والعسكرية، كذلك فإن قيام الحروب، وعقد معاهدات السلام، كل ذلك وليد علم السياسة من ناحية، والمصدر الأول للمعلومات بالنسبة للمؤرخ من ناحية أخرى. وفي كثير من الأحيان يصعب على المرء الفصل بين التاريخ المعاصر والسياسة خاصة في المجال الدولي، فالعلاقات الدولية وما يترتب عليها من نتائج هي المادة الأولى التي يصنع منها المؤرخ مادته التاريخية، خاصة في العصر الحديث، حيث تشابكت المصالح الدولية، ولم يعد هناك دولة واحدة تعيش في معزل عن الأخرى أو لا تتعامل معها^(٢).

الجغرافيا:

ترتبط الجغرافيا إرتباطا وثيقا بالتاريخ، وهي من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، وهي ذات أثر كبير في توجيه مصائر البشر. وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير في حياة الإنسان وتكوينه النفسي، وفي قوانينه وشرائعه، وفي نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

(١) سيد الناصري: فن كتابة التاريخ، ص ٢٤٣.

(٢) راوس: التاريخ، ص ٦٢.

وقد تحكمت الجغرافيا في ظهور الحضارات في مواقع محددة، كما منعتها الظهور في مواقع أخرى. وتحكمت في اتصالها وصدامها وتفاعلها في أقاليم اختارتها الجغرافيا ولم يخترها التاريخ ولا الإنسان، للدرجة التي كان فيها بعض من أعظم النظريات في تفسير التاريخ ذا أساس جغرافي، مثل نظرية التحدى لتوينبي، ونظرية المادية التاريخية التي تمتد جذورها الاقتصادية في الإنتاج وفي المجتمع. وبدون المكان الجغرافي يقف التاريخ في الفراغ، وليس من حدث يجرى في فراغ (١).

ومنذ عهد التوسع الأوربي فيما وراة البحار اعتباراً من سنة ١٥٠٠ م فصاعداً، وعلى الأخص منذ سنة ١٨٧٠ م أصبحت جغرافية العالم مادة ذات أهمية بالغة ومتزايدة بالنسبة للمؤرخ. ولا يوجد هناك من يستطيع أو يأمل أن يكتب كتابة ممتازة عن التوسع الأوربي ما لم يكن على دراية تامة بمعالم وموارد المناطق التي تم اكتشافها واستعمارها واستغلالها (٢).

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا في التاريخ أنها أحياناً تتدخل تدخلاً حاسماً في تغيير مجرى التاريخ. فعلى سبيل المثال اختار الإمبراطور الروماني قنسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧ م) مكان بيزنطة القديمة على البوسفور، على النتوء البارز في المكان المعروف حالياً باستنبول، واحتفل بافتتاحها يوم ١١ مايو سنة ٣٣٠ م. ومن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء قارتي آسيا وأوربا، إذ يحدها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبي من جهة الشمال، وبحر مرمرة في الجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثاً تحمي المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته

(١) شاكر مصطفى: «التاريخ هل هو علم؟»، ص ١٨٣، عالم الفكر أبريل - مايو - يونيو، العدد الأول، الكويت ١٩٧٤.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

الأسوار المنيعة التي أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، وبفضل مزاياها ظلت قادرة على الوقوف في وجه المسلمين، والحفاظ على الإمبراطورية الشرقية لمدة تزيد على الألف عام (١).

وكذلك فقد ساعدت العواصف وهياج البحر الأسطول الإنجليزي في سحق الأرساد الأسبانية الضخمة في سنة ١٥٨٨م، مما أدى إلى هبوط أسبانيا في مجال القوة والسيطرة، وارتفاع شأن إنجلترا. كما أن سهول روسيا الشاسعة وشتاؤها القارس وثلوجها، كانت عوامل أدت إلى إخفاق حملة نابليون عليها في سنة ١٨٢٢، وتكرر نفس الشيء عندما زحفت جيوش هتلر عليها من بحر البلطيق حتى البحر الأسود في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١م (٢).

ولدراسة تاريخ مصر لأبد من معرفة أثر موقعها الجغرافي على تطور تاريخها. فقد حبت الطبيعة مصر ببيئة جغرافية فريدة ممتازة، ففيها يجري نهر النيل العظيم الذي لعب دوراً هاماً في توحيد واديه، وأوجد سبل التضامن والنظام والطاعة بين سكانه في مختلف العصور التاريخية. ولاشك أن موقع مصر الجغرافي لعب دوراً خطيراً في حياتها وأثر فيها، فمصر تتوسط البحرين المتوسط والأحمر، أولهما يربط مصر بالغرب الأوربي والمحيط الأطلسي، وثانيهما يصل مصر بالمحيط الهندي، على أن هذا الموقع كان نعمة لمصر في فترات قوتها ووبالا عليها في فترات ضعفها. ففي العصور التي استمسكت فيها مصر بوحدتها، ازدهرت حضارتها، وامتد نفوذها، وردت الطامعين في أرضها، وفي العصور التي انحلت فيها وحدتها، وعمتها الفوضى، طمع فيها الطامعون، وسعى إليها

(١) محمود الحويري: سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٣٤.

الغزاة من أدنى الأرض وأقصاها، وصارت مصر الضعيفة أداة يسخرها العالم ويستغل موقعها، ويوجهها وجهات كثيرة، قد غيرت عليها أكثر من مرة مظهر ثقافتها، وإن لم تستطع أن تغير من أسس حضارتها الأولى (١).

وقد أثرت التضاريس في طابع مصر، فعاش المصريون في واديهم الطويل الضيق على ضفاف النيل، تفصلهم عن العالم الخارجى صحراوات شاسعة على الجانبين، تقيه كأنها الدروع شر الغزوات، ولذلك كان الشعب المصرى دائما يكاد أن يكون منفصلا عن العالم المجاور له، وفضلا عن ذلك كان للصحارى أثرها المعروف، والذي تمثل فى أن عبورها كان عسيراً على المهاجرين من الرعاة، فلم يصل مصر منهم إلا عناصر قليلة، بل كان سببا فى أن مصر لم يصلها فى أى وقت من الأوقات هجرات كبيرة العدد، تغير معالم سكانها الجنسية تغييراً أساسياً، كما حدث فى بعض البلاد المجاورة الأخرى (٢).

وعلى أية حال، ينبغى على المؤرخ أن يكون على دراية بالأحوال الجغرافية للمكان الذى سيتناوله بالدراسة، ولقد بلغ من أهمية الارتباط الوثيق بين الجغرافيا والتاريخ أن ظهرت نظرية لتفسير التاريخ عن طريق الجغرافيا كما سبق أن ذكرنا.

علم الاقتصاد:

يرتبط علم الاقتصاد ارتباطاً وثيقاً بدراسة التاريخ، بل إن بعض المؤرخين يؤثرون العامل الاقتصادى كعامل محرك لأحداث التاريخ، ومن ثم ولد تخصص جديد هو التاريخ الاقتصادى كفرع من فروع

(١) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، ص ٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

التاريخ الأخرى مثل التاريخ الاجتماعى والسياسى . ولاشك أن الثروة الطبيعية فى بلد ما تحدد نوع الإنتاج الزراعى والصناعى والتجارى، ومدى تركيز تلك الثروة فى يد طبقة أو طبقات معينة . ومن المعروف أن الوضع الاقتصادى يؤثر فى علاقته بالعالم الخارجى، وكذلك يؤثر فى مستوى قوته العسكرية، ومركزه فى المجتمع الدولى .

ومن الأمثلة على أثر الظروف الاقتصادية فى أحداث التاريخ ما نلاحظه من أن بلاد مصر وما بين النهرين كانت تنعم باقتصاد قوى وتكاد أن تكون مكتفية ذاتيا، ومن ثم لم تسعى هذه البلاد إلى التوسع الاقتصادى خارج حدودها، بعكس الإغريق الذين كانت مصادرهم الطبيعية محدودة ولا تنتج ما يفي بحاجة سكانها، مما جعل الانتشار الاستيطانى للإغريق أمراً ملحاً، كما يقال أن الإسكندر المقدونى خرج على رأس جيوشه نحو الشرق ليضع حلاً لمشكلة التزايد السكانى فى بلاد الإغريق ونضوب المصادر الطبيعية (١) .

وقد كان من الممكن أن تبقى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة فى الغرب الأوروبى أمداً أطول رغم الانحلال الذى دب فى كيانها لولا هجمات البرابرة وغزواتهم التى أسرعت بالإمبراطورية نحو تقويض دعائمها . وذلك أنه عندما اقتربت القبائل البربرية من حدود الإمبراطورية بهرت عيونها ما تتمتع به بالإمبراطورية من ازدهار وتقدم ورخاء ومناخ لطيف معتدل، فأثرت بغزواتها وتجوالتها السلمى، مشاركة الامبراطورية ثرواتها وخيراتها من ناحية، وإيجاد مكان أمين للعيش بين ظهرانيها من ناحية أخرى (٢) .

(١) سيد الناصرى: فن كتابة التاريخ، ص ٢٣٧ .

(٢) محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٩٦ .

ويرى البعض أن العامل الاقتصادي كان من بين العوامل الهامة التي أدت إلى اندفاع العرب - عند ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي - من شبه الجزيرة العربية، التي يغلب على أكثرها الطبيعة المجدبة، إلى سهول العراق الفسيحة وريوع الشام المورقة^(١). وفي هذا الصدد يزعم المؤرخ الإنجليزي توماس أرنولد^(٢) وغيره من أن العرب قاموا بفتوحاتهم الكبرى في القرن السابع الميلادي بسبب دوافع اقتصادية جعلتهم حريصين على الخروج من دائرة بلادهم الجرداء إلى بلاد أخرى كثيرة الموارد وفيرة الخيرات، وفي ذلك يقول: «إن الحماسة الدينية، وبواعث العقيدة لم تكن تسربت لإقليلا في نفوس أبطال الجيوش العربية». ومن الواضح أن هذا الرأي يتضمن الكثير من المبالغة، لأنه يغفل أثر الحماس الديني، والرغبة الصادقة في الجهاد والتضحية والاستشهاد. ويشجب المؤرخ أرنولد توينبي^(٣) الإدعاء القائل بأن القوة المادية هي العامل الحاسم في انتشار الإسلام، فعندما خرج العرب المسلمون من شبه جزيرةهم لنشر الإسلام في أنحاء العالم المعروف وقتذاك، وواجهوا الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الجزية، وتلك سياسة مستنيرة أجمعت الآراء على امتداحها.

وكانت الظروف الاقتصادية واضحة الأثر في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، وفي العلاقات بين الدول الكبرى والصغرى بعضها وبعض، وهي من الأسباب الرئيسية للمشاكل المختلفة البادية في شتى أنحاء العالم. وستظل

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٣٧.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وزميله (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٦٤.

(٣) فؤاد شبل: توينبي، مبتدع المنهاج التاريخي الحديث، ص ٨٦ - ٨٧.

الظروف الاقتصادية عاملاً هاماً في توجيه مصائر الشعوب بل الانسانية جميعها.

ومهما يكن الأمر، فينبغي على المؤرخ أن يدرس الأحوال الاقتصادية للعصر الذي يتناوله بالدراسة، وأن يتفهم النظريات الاقتصادية المختلفة دون أن ينحاز إلى إحداها. وقد رأينا من قبل ما أسهمت به المدرسة المادية في تفسير التاريخ، بعد أن بدأ الاقتصاد ينتظم كعلم من العلوم في القرن الثامن عشر مع ظهور الثورة الصناعية في أوروبا.

اللغات:

وإلى جانب العلوم التي ذكرناها، والتي تجعل الباحث في التاريخ على درجة واعية من الثقافات، هناك مجالات أخرى للإبداع الإنساني تفيد الباحث مثل ألوان الأدب والفنون المختلفة. واللغات من أهم العلوم المساعدة التي ينبغي أن يتزود بها الباحث، فلا يعقل أن يبدأ الباحث رحلة البحث الشاقة دون أن يكون عارفاً باللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخي الذي يدرسه، سواء اللغات القديمة مثل المصرية القديمة، أو اليونانية واللاتينية الكلاسيكية، أو اللغات السامية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى بالنسبة لتاريخ أوروبا العصور الوسطى، ومن يرغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة لا بد له من الإلمام باللغة الإيطالية.

وكلما تعددت اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة التي يلم بها الباحث اتسع أمامه أفق البحث. وقد يبدو مسألة تعلم اللغات أمراً عسيراً، ولكنها دراسة أساسية لمن يرغب جدياً في دراسة التاريخ وكتابته^(١). ذلك أن الجهل التام باللغات المعتادة للعلم - الألمانية والإنجليزية والفرنسية

(١) عبدالرحمن بدوي: النقد التاريخي، ص ٣٦ هامش ١.

والإيطالية -، هو فرض يصبح مع السن غير قابل للعلاج، وليس من النبالة أن نطلب من كل من يرشح نفسه لممارسة مهنة علمية أن يكون على علم بثلاث لغات على الأقل، أى أن يفهم بغير عناء لغتين حديثتين، بخلاف لغته الأصلية(١).

ويظن البعض أن الترجمات تكفى فى هذا الصدد، ويدعون أنه ليست هناك حاجة لمعرفة لغة النص الأصلى مادام هناك يتواجد المترجمون. وهذا هو الخطأ بعينه، فإذا وجدت الترجمة فى مجال بحث معين فهى لا توجد فى الآخر، فإمكانية الترجمة غير متوفرة، وليست كل المواضيع يعنى المترجمون بترجمتها. وثمة تخصصات معينة قد تستهوى المترجمين، أما غالبية التخصصات فلا تجد من يقبل على ترجمتها إما لصعوبتها أو لعدم الحاجة إليها. والواقع أنه لا يصح للباحث أن يضع نفسه تحت رحمة غيره وأن يسمح لنفسه أن يستجدى عطف وإحسان الآخرين. وحتى لو وجدت الترجمة فكثيراً ما يوجد الخطأ فيها خاصة إذا كان المترجم محترفاً للترجمة وغير متخصص. ولقد أثبتت التجارب أن الباحث التاريخى الذى يجيد بعض اللغات الأوربية، يكون فى الغالب أكثر ثقافة وأشمل إطلاعاً فى مجال تخصصه(٢).

ومما يدل على أهمية اللغات للباحث فى التاريخ ما نعرفه عن الآثار المصرية، فقد أهملت تلك الآثار فترة طويلة، وانطوت فى زوايا النسيان، بل تعرض جانب كبير منها للتدمير والاندثار، بعد أن انمحت الوثنية من مصر، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام. واستمر الوضع على هذا النحو إلى أن عثر على حجر رشيد، وحلت رموز اللغة المصرية التى اختفت

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ٣٦ هامش ١.

(٢) عطية القوصى: علم التاريخ، ص ١٢٣.

بالقضاء على الوثنية في القرن الرابع الميلادي. وقد عثر ضابط سلاح المهندسين في حملة نابليون بونابرت على مصر على هذا الحجر في صيف عام ١٧٩٩ م بالقرب من مصب فرع رشيد. وقد أرسل الحجر بعد ذلك إلى المجمع العلمي المصري بالقاهرة، حيث اهتم به العلماء (١).

وحجر رشيد عبارة عن كتلة من البازلت يبلغ طولها ١١٣ سنتيمتراً وعرضها ٧٥,٥ سنتيمتراً وسمكها ٢٧,٥ سنتيمتراً، وهي مهشمة الجوانب، فقد جزؤها العلوي. وقد دون على وجه الحجر الأملس نقش كتب باللغتين المصرية القديمة واليونانية. وقد سجل النص المكتوب باللغة المصرية بخطين: الخط الهيروغليفي وهو الخط المقدس أو خط كلام الآلهة كما أطلق عليه النص نفسه، وهو يضم أربعة عشر سطرًا فقط في القسم العلوي من الحجر، والخط الديموطيقي وهو الخط الشعبي الدارج في عصور مصر المتأخرة أو الخط الوطني على حد تعبير النص، وهو يضم اثنين وثلاثين سطرًا في القسم الأوسط من الحجر. أما الجزء المكتوب باللغة اليونانية وهي لغة البلاط الرسمي، وقتئذ، فقد ضم أربعة وخمسين سطرًا في القسم الأسفل من الحجر. ويرجع الفضل في الكشف عن أسرار وأصول تلك الكتابة إلى العالم الفرنسي الكبير جان فرنسوا شمبليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) Jean François Champolion، ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء في ترجمة النصوص والوثائق المصرية - نقوش وأوراق بردى - التي كانت قبل ذلك بمثابة طلاس وألغاز من الصعب حلها (٢).

وكذلك فإن العلماء المختصين بالدراسات الآشورية قد أخذوا ينشرون ويترجمون، منذ أن تمكن سيرهنري رولنسن H. Rawlinson في عام ١٨٤٧ من حل رموز الكتابة المسمارية الفارسية القديمة، وفي عام ١٨٥٠

(١) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨.

من حل رموز الكتابة المسمارية البابلية، أخذوا ينشرون النصوص التي وجدت على قوالب الصلصال المتخلفة عن حضارات بلاد ما بين النهرين القديمة^(١).

فقه اللغة: الفيلولوجيا Philology:

تعتبر الفيلولوجيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ، وتزداد أهمية الفيلولوجيا كلما بعد العصر الذي نتناوله بالدراسة، ذلك أن اللغة كائن حي ينمو ويتغير ويتطور تبعا لظروف المكان والزمان، واختلاط الثقافات. وفي بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوي على معنى محدد تماما، كما يمكن أن يدل اللفظ اللغوي على معان مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه. ولذلك فلا بد من معرفة اللغة التي يقرأ فيها دارس التاريخ، فضلا عن الدراية بمانال ألفاظها من المعانى المتفاوتة أو المختلفة، حتى لا يفسر ما ايقرا على غير حقيقة^(٢). وتنشأ بعض الأخطاء التاريخية عادة بسبب رداءة فهم المؤرخ للدلالات الحقيقية للكلمات أو بسبب جهله لقوانين اللغة وقواعدها^(٣).

قراءة الخطوط: الباليوجرافيا Paleography:

ويتصل بدراسة اللغات علم قراءة الخطوط، وهو من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ، ويستخدم في قراءة خطوط اللغات القديمة كاللغة الفرعونية والإغريقية القديمة واللغة اللاتينية. ومن البديهي أن من يحاول دراسة التاريخ المصرى القديم مضطرب بطبيعة بحثه إلى معرفة الكتابة الهيروغليفية. وتقل أخطاء دارس الوثائق كلما

(١) لويس جوتشالك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٤٨.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٢٧.

(٣) محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، ص ٤٣١.

ازداد إلمامه بهذا العلم. إذ من المهم أن يكون المؤرخ قادراً على قراءة الوثائق وفهمها، حتى يحسن استخدامها، فمعرفة اللغة الفارسية ضرورية لمن يريد التخصص في دراسة إحدى الدويلات التي انقسمت إليها الدولة العباسية التي غلبت عليها ملوك من أصل فارسي، كدولة بني بويه مثلاً. وبالمثل لا يستطيع باحث أن يدرس أثر المسلمين في أوروبا في العصور الوسطى إلا إذا كان ملماً باللغة اللاتينية^(١).

ولقد نمت الخطوط العربية مثلاً وتطورت وكتبت بأشكال مختلفة. فمنها الطومار (نسبة إلى قلم الطومار في عصر المماليك)، ومنها النسخي والرقعة والثلاث والكوفي والفارسي، والمغربى والغبار (نسبة إلى دقته وكأنه ذرات الغبار). وفي الشرق الأدنى العثماني كتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط، مثل الخط الديواني، وخط القيرمة (من قيرمق التركية بمعنى الثنى والتكسير)، وتستلزم قراءة هذين الخطين تعليماً خاصاً^(٢). ومن ثم فإن دراسة الخطوط لازمة للباحث في التاريخ، حتى يمكنه الرجوع إلى الوثائق التي دونت بها.

الأختام:

وينبغي على الباحث في التاريخ دراسة الأختام التي تمهر بها الوثائق المتعلقة بالمكاتبات الرسمية للدولة، وهي ذات أنواع وأشكال مختلفة، وتختلف من عصر لعصر ومن دولة لأخرى. وقد شاع استخدام أختام الشمع منذ أزمان بعيدة ولا تزال مستخدمة حتى اليوم. ووجدت الأختام المعدنية وخاصة من الرصاص، واستخدمها البابوات والملوك والأمراء بخاصة في أزمنة مختلفة. ووجدت أختام الذهب ولاسيما عند ملوك

(١) المرجع السابق، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) حسن عثمان: المرجع السابق، ص ٢٨.

الفرنجة الكارولنجيين^(١) فى خلال العصور الوسطى وظلت تستخدم عند بعض الأسرات الحاكمة حتى أزمنة حديثة. ولاشك أن معرفة أنواع الأختام تفيد الباحث فى التأكد من صحة الوثائق التى يقوم بدراستها^(٢).

علم الرنوك Heraldry:

ومن العلوم المساعدة فى دراسة التاريخ علم الرنوك وهى العلامات المميزة التى تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاء والفرسان والجنود أو على الرايات. ولقد عرفت الشعوب الرنوك على مدى العصور، ومن أشكال الرنوك نجد الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال والصليب وذيل الحصان وزهرة الزئبق^(٣). ويقول القلقشندى^(٤) المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م): «ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه.. بحسب ما يختاره ويؤثره، ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم، كمطابخ السكر، وشون الغلال، والأماكن والمراكب وغير ذلك، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص، ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة تنتقش على العبي والبلاسات ونحوها، وربما جعلت على السيوف والأقواس وغيرها». ومعرفة الباحث

(١) ظهر الفرنجة خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، بنزولهم فى الحوض الأدنى لنهر الراين فى مجموعتين هما: الفرنجة البحريون أو الساليون أى الذين ينزلون قرب البحر، والفرنجة البريون أو الريبوريون أى الذين يقيمون على شاطئ النهر. ويعتبر شلوجيو (ت ٤٤٨م) أول ملوك الفرنجة الساليين فى بلاد الغال (فرنسا الحالية)، وأتى من بعده ميروفيتش وسميت بإسرة الميروفنجية التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١م، حيث عزل آخر الملوك الميروفنجيين، وبدأت الأسرة الكارولنجية أشهر أسرات الفرنجة. أنظر محمود الحويرى: روية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٤٨-١٥٦.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٣١.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١-٣٢.

(٤) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ج ٤ ص ٦١-٦٢.

فى التاريخ بالرنوك تجله قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من
الدروع أو الأسلحة أو الوثائق أو ما شاكل ذلك.

علم النميات Numismatics:

أما علم النميات (أو النومات) أى علم النقود والمسكوكات، فهو من
العلوم الهامة فى دراسة جوانب من التاريخ. ويتناول هذا العلم النقود
القديمة التى بطل تداولها، والتى أصدرتها السلطة الحاكمة بهدف تيسير
التعامل، وتحمل على كل وجه من وجيها رسماً أو نقشاً بارزاً ذا طراز
خاص عن موضوع معين. والعملة بما تحمله من صور الآلهة وصور
الملوك والأمراء وأسمائهم، وذكرى الحوادث التاريخية، وسنوات ضربها
تقدم للباحثين مادة تاريخية قيمة بالنسبة للتاريخ القديم وتاريخ العصور
الوسطى فى الشرق والغرب على السواء^(١). ومن المعروف أن العملة هى
المقياس الدقيق للتجارة ولنقود الدولة وقوتها، وقديماً كانت الدول تحرص
على ثبات وزن عملتها ونقاوة معدنها سواء من الذهب أو الفضة، وكانت
أى دولة تتعرض لمتاعب اقتصادية تلجأ إلى تخفيض وزن العملة. فعلى
سبيل المثال أدى استمرار الإنهيار الاقتصادى فى الإمبراطورية الرومانية
فى القرن الثالث الميلادى إلى حدوث آثار سيئة على قيمة العملة النقدية
المتداولة فى ولايات الإمبراطورية. فالغزوات الجرمانية التى تعرضت لها
الإمبراطورية فى هذا القرن، بما تخللها من نهب المزارع وإحراقها،
وإفساد المحاصيل، وترك مساحات هائلة من الأراضى الزراعية خراباً،
والحاجة الماسة إلى المال لدفع رواتب الجند، أجبرت الأباطرة على
إنقاص قيمة العملة المتداولة. ويلاحظ أن قيمة العملات أخذت فى
الهبوط المستمر منذ عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م)،

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٣٢.

حتى صارت في عهد الإمبراطور جالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨) عملات نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب أو الفضة. والأمر الذي لاخلاف فيه أن إنقاص العملة وما صاحبها من ارتفاع كبير في الأسعار، أديا إلى التضخم، inflation، وكذلك رفض من يمتلك عملة سليمة التعامل مع العملات المخلوطة الشائبة^(١). ويمكن القول إن وجود عملة مستقرة في أية دولة قديما أو حديثا يأتي دليلا على ازدهار النشاط التجارى فيها، وغياب تلك العملة أبلغ دليل على ارتفاع الأسعار، واختفاء الانتاج الكبير، وازدياد التضخم، ويستطيع المؤرخ أن يثبت ذلك عن طريق دراسة شاملة للعملة.

الآثار:

وتعد الآثار أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحث في التاريخ لجمع المادة العلمية لموضوع بحثه، كما أن الآثار تساعدنا إلى حد كبير في سد الفراغ الذي نلمسه في المصادر الأدبية والتاريخية، فضلا عن أنها تصحح في بعض الأحيان أخطاء تاريخية مشهورة. ففي المقام الأول نجد أن آثار المصريين القدماء الآن المصدر الأول الذي يجد فيه المؤرخ أصدق العناصر التي تعينه في دراسة تاريخ مصر القديم، وعلى تصوير الحضارة المصرية في نواحيها المختلفة. ولعل أهم ما يميز تلك الآثار عن غيرها من المصادر أنها المصدر الوحيد الذي عاصر الأحداث والذي أشركه المصريون عن قصد أو بغير قصد في الكشف عن تاريخهم، وتخليد حضارتهم^(٢). وتشمل هذه الآثار المعابد والأهرام والمقابر والمسلات والتماثيل واللوحات والتوابيت وقطع الشقاف وأوراق البردى، وكافة ما استعمل في الحياة اليومية. ويرجع السبب في وفرة تلك المخلفات إلى العقيدة الدينية التي قضت أن يتزود المصريون لحياتهم الآخرة على

(١) محمود الحويرى: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٥-١٦.

(٢) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٥.

نحو ما كانوا يفعلون في حياتهم الدنيا، وإلى تقدمهم في الفنون والصناعات والبناء، مما أتاح لهم وضع ذلك التراث المنقطع النظير، ثم إلى جفاف مناخ مصر الذي ساعد على حفظ تلك الآثار حتى وصلت إلينا سليمة (١).

الوثائق:

والتاريخ لا يمكن أن يقوم إلا على أساس من الوثائق، وهذه الوثائق تنقسم إلى آثار أو مخلفات خطية أو روايات أو نقوش، ولهذا يجب أن تكون الخطوة الأولى في المنهج التاريخي هي خطوة البحث عن الوثائق المتعلقة بحادث من الأحداث التاريخية. فعلياً أولاً أن نجمع كل ما يمكن جمعه من الوثائق المتعلقة بعصر من العصور أياً كان نوع هذه الوثائق، والخطأ الأكبر الذي يقع فيه المؤرخون إنما كان ينشأ دائماً عن كونهم لا يتوافر لديهم كل الوثائق المتعلقة بالحادث موضوع الدراسة. ولم ينهض التاريخ نهضته الحقيقية إلا بعد أن هيأت المكتبات والمتاحف ودور المحفوظات التي تضم الأشتات المختلفة لموضوع واحد في مكان واحد، ميسرة بهذا المؤرخ أن يقوم بعمله. وبعد جمع الوثائق نخضعها للتدقيق والنقد والفحص، فلا يقبل منها إلا ما يثبت صحته، ثم ربط الحقائق بعضها ببعض واستخلاص صورة منها للماضي، إن لم تكن صادقة تماماً، فهي أقرب ما تكون إلى ذلك. وتبقى هذه الصورة خاضعة للتبديل والتعديل حسبما يظهر من أصول جديدة، أو ما يكتشف من حقائق مجهولة (٢).

وهذا الأسلوب العلمي - كما رأينا من قبل - نجده عند علماء الحديث الأوائل في تاريخنا الإسلامي، فقد اهتموا بدراسة أقوال النبي ﷺ وأفعاله،

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص ٤٢ - ٤٣.

كذلك كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف في البداية إلى دراسة سيرة النبي الكريم وأعمال الصحابة والجماعة الإسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد. وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف أولاً عن طبيعة علم الحديث، اللهم إلا في هدف كل منهما ونوع الروايات التي يعنى بها، فالمحدثون يعنون بالروايات التي تقرر مبادئ فقهية أو خلقية، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التي تتجه إلى سرد الحوادث. والمعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة وكانوا لا يثقون بالحديث إلا إذا كان إسناده سلسلة متصلة من الرواة الموثوق بهم، وكان هذا كله أساساً لعلم نقد الرواة وهو المعروف في مصطلح الحديث باسم «الجرح والتعديل» (١).

الأدب:

والأدب وثيق الصلة بالتاريخ، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، وهو يصور أحلام البشر وأمانيتهم وواقعهم، ويرسم جوانب مختلفة من حياة الأفراد والجماعات. وقد دأب كثير من المؤرخين على كتابة أبحاثهم بأسلوب يتم على حساب الوضوح في الكتابة، ويقدموا الروايات التاريخية ضمن إطار خال من الطلاوة. والواقع أن المؤرخ الذي يكتب تاريخاً لا يستمتع به أحد، يعتبر مؤرخاً رديئاً بقدر ما يبعثه من ملل، فهو بحكم مهنته مسئول عن أن يدون حوادث الماضي وأن يبتعث الجو الذي وقعت فيه تلك الحوادث (٢).

وليس المطلوب من المؤرخ الأكاديمي أن يكتب على نسق فولتير وشيلر وماكولي، وكل ما يطلب منه أن يكتب ببساطة وأن يتجنب الشرود والإيهام بالمعرفة، وأن يعرف عن الأسلوب قدرأ يسمح للكتابة أن تكون

(١) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) جوتشاك: كيف تفهم التاريخ، ص ٢٥ - ٢٦.

أداة سهلة طبيعة توصل إلى حقائق الأشياء التي يتحدث عنها، لا أن تكون عقبة في سبيل الوصول إليها^(١).

ودراسة الأدب بوجه عام توسع مدارك الإنسان، وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب. ويذكر المؤرخ دونو أنه في مجال الأدب لا بد لدارس التاريخ أن يقرأ للكصصيين المحدثين، فهم يعلمون كيف توضع الوقائع والأشخاص، وتوزع التفاصيل، ويقتاد مجرى الأحداث ببراعة، وأن يغذى اهتمام القراء بقلق الإستطلاع^(٢). ويحسن بدارس التاريخ كذلك أن يلم بشيء من مذاهب النقد الأدبي، إذ أن دراسة حياة الأدباء، وتحليل آثارهم وتذوقها ونقدها، تقدم للمؤرخ ذخيرة قيمة في دراسته التاريخية^(٣).

الرحلات:

ومن الضروري لباحث التاريخ أن يكون مستعداً للترحال سواء داخل بلده أو خارجها، بحثاً عن المعلومات والوثائق، فيزور الأماكن والمواقع التي شهدت أحداثاً غيرت مجرى التاريخ، ويتفقد المكتبات ودور المحفوظات العالمية، لأن ذلك يزيده علماً وتجربة على الدوام. فعلى سبيل المثال كان المؤرخون المسلمون يجوبون الآفاق ويقطعون الأميال طلباً للعلم والدراسة، والاطلاع على أحوال الشعوب، وبحثاً عن الحقيقة في وقت كانت وسائل المواصلات صعبة ومحفوفة بالأخطار. والمثل الواضح على ذلك المؤرخ المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م) رائد طبقة المؤرخين الكبار بعد الطبري، الذي ينادى منذ أكثر من ألف عام

(١) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) عبدالرحمن بدوي: النقد التاريخي، ص ٢٨.

(٣) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٤٠.

بمنهج «المعاينة»، ويعتمد في التحقيق التاريخي على المعاينة والمشاهدة، وعدم الاعتماد على النقل والسماع، فليس من رأى كمن سمع (١). وقد استفاد المسعودي من رحلاته وأسفاره لونا من الحس التاريخي الصادق. وقد طاف المسعودي أكثر أجزاء العالم الإسلامي، وقضى الجزء الأخير من حياته في بلاد الشام ومصر، حيث ألف كتابه الشهير «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهو كتاب تاريخي جغرافي عظيم القيمة، جعل الكتاب يطلقون على المسعودي إسم «هيرودوت العرب».

وعلى أية حال، هذه هي بعض العلوم التي تساعد في إعداد الباحث في التاريخ ثقافيا ومهنيا، وينبغي عليه أن يكون متسلحا بها. وليس المقصود بذلك التعمق في دراسة تلك العلوم، فهذا أمر فوق قدرة المؤرخ، ولكن يكفي أن يكون عارفا بها إجمالا، دون الخوض في تفاصيلها.

(١) على أدهم: التاريخ عند المسلمين، ص ٥٤.

الفصل الثامن

كتابة التاريخ بين الموضوعية والذاتية

الموضوعية في كتابة التاريخ.

الذاتية في كتابة التاريخ

الذاتية المتطرفة في كتابة التاريخ

التوافق بين الموضوعية والذاتية في كتابة التاريخ

يعد الحديث عن الموضوعية والذاتية في كتابة التاريخ من أعقد مشكلات فلسفة العلوم الاجتماعية والتي اختلفت فيها الآراء واحتدم الجدل. ذلك أن التاريخ يكتبه باحثون ينتمون إلى مجتمعات معينة، ويلونون كتاباتهم في كثير من الأحيان بنوازعهم الشخصية وانعكاسات التيارات السائدة في مجتمعاتهم، وكثيراً ما علت الأصوات مطالبة بتحرى الموضوعية في كتابة التاريخ.

الموضوعية في كتابة التاريخ:

يقصد بالموضوعية Objectivity معالجة الظواهر باعتبارها أشياء لها وجود خارجي مستقل عن وجود الإنسان. والشئ الموضوعي هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين مهما اختلفت الزاوية التي يشاهدون منها. ويوضح الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل^(١) هذه النقطة بقوله: «لكي نوضح الفرق بين الموضوعية والذاتية نقول: إفرض أن عدداً كبيراً من المتفرجين في مسرح كانوا يشاهدون في آن واحد ما يجري على خشبة المسرح، كذلك كان في المسرح عدة آلات للتصوير تلتقط في آن واحد صور ما يجري على خشبة المسرح، فعندئذ تكون الصور التي تلتقطها آلات التصوير، وكذلك الصور التي يلتقها المتفرجون، متفقة في وجوه مختلفة في وجوه؛ وسأصف بكلمة «موضوعي» ذلك الجانب الذي يشترك فيه المتفرجون جميعاً، أو آلات التصوير جميعاً. كما أنني سأطلق كلمة «ذاتي» على الجوانب التي ينفرد بها هذا المتفرج دون غيره، أو آلة من آلات التصوير دون غيرها، فسيبدو الممثل على خشبة المسرح أطول عند المتفرج القريب منه مما هو عند المتفرج البعيد. وعلى هذا فالذاتية أمر لا يقتصر على مجرد الأهواء الشخصية، بل هو أحد جوانب الطبيعة»

(١) الفلاسفة بنظرة علمية (القاهرة ١٩٥٦)، ترجمة د. زكي نجيب محمود، ص ١٣١-١٣٢.

نفسها، ومعناها أن المؤثر الواحد لا يبدو للأعين المختلفة في أوضاعها على صورة واحدة، أما إذا كان في هذا المؤثر جوانب لا تتغير صورتها عند مختلف الأعين مهما اختلفت أوضاعها، كانت تلك الجوانب المشتركة (موضوعية).

ومصطلح «الموضوعية» هو في ذاته حكم على قيمتها، فالمقصود بها الوصول إلى الحقيقة دون تدخل للعوامل الشخصية للباحث، فلا يشوهها بنظرة ضيقة أو بتحيز خاص. ويذكر فؤاد زكريا^(١) أن «الموضوعية» كلمة شديدة التعقيد، تحتل جوانب أوجه متباينة، وأول معنى للموضوعية أن تكون لدى المرء روح نقدية، ومعنى ذلك ألا يتأثر بالمسلمات الموجودة أو الشائعة، وأن ينقد نفسه ويتقبل النقد من الآخرين. والنزاهة معنى أساسي من معاني الموضوعية، ويتمثل ذلك بوضوح في أن يستبعد الباحث العوامل الذاتية من عمله العلمي، وينبغي عليه أن يطرح مصالحه وميوله واتجاهاته الشخصية جانبا، وأن يعالج موضوعه بتجرد تام. وعلاوة على ذلك، فإن الحياد يعتبر معنى عظيم الأهمية للموضوعية، فإذا وصفنا الشخص الموضوعي بأنه محايد، فإننا نعني بذلك أنه لا ينحاز مقدماً إلى طرف من أطراف النزاع الفكري أو الخلاف العلمي.

والموضوعية في العلوم الطبيعية تختلف عنها في العلوم الإنسانية الاجتماعية والأدب والفن. فالموضوعية في العلم غير الموضوعية في الفلسفة، فإذا كان العلم والفلسفة يتفقان في أنهما تعبير عن الواقع الكوني وظواهره الموضوعية، فإن الموضوعية التي يقصدها العلم هي موضوعية الوقائع التي تظهر في المعمل الكيميائي بعد التحليل والتركيب. وعلى العكس من ذلك، فإن موضوعية الظواهر التي تقصدها الفلسفة إنما تتعلق بالكون ككل، أي بذلك الخليط الهائل من الأشياء الذي نطلق عليه اسم

(١) التفكير العلمي (القاهرة ١٩٩٦)، ص ٢٦٨، ٢٧٧، ٢٨٣.

العالم والذي يطلق عليه الفلاسفة إسم المكان الزماني - Lespace - Temps^(١).

وفي الالتزام بالموضوعية يختلف العلم عن الفن في كل صورته، لأن الخبرة الذاتية أساس الفنون والآداب، فالفنان ينظر إلى الشيء الذي يصوره إن كان مصوراً، أو ينظمه إن كان شاعراً من خلال عواطفه وأحاسيسه وانفعالاته وأخيلته، أما العالم فإن منهجه العلمي يقتضيه أن ينظر إلى موضوع بحثه كما هو في الواقع، إن الفنون ابتداع ذهني تلقائي، وأما العلم فيقوم على وصف الأشياء وتقرير حالتها كما هي في الواقع تحتفظ بذاتها على مر الزمان، ومن هنا قيل في التفرقة بين شخصية الفنان وشخصية العالم: الفن أنا والعلم نحن! فيما يقول الطبيب الفرنسي المشهور كلود برنار (ت ١٨٧٨) Claude Bernard الذي استقل علم الأحياء على يده، فإذا عرض لدراسة موضوع واحد مجموعة من العلماء، انتهوا في آخر المطاف إلى نتائج واحدة، وإن اختلف بعضهم مع بعض حسموا الخلاف بالالتجاء إلى الواقع، ومحك الصواب عندهم هو التجربة، التي يمكن تكرار إجرائها - للتثبت من صحة النتائج - بطريقة موضوعية خالصة، أما في حالة الفن فإن المنظر الواحد يصوره الفنانون أو الشعراء في صور شتى أو قصائد متباينة، وبمقدار ما يكون بينها من تفاوت وتباين، يمكن أن تكون عبقرية كل من أصحابها^(٢).

ومسألة الموضوعية أمر نسبي تماماً في جميع أدوات البحوث الاجتماعية والنفسية، ولا يمكن إعدادها واستخدامها ونتائجها بمنجاة من التحيز والمعادلة الشخصية في أكثر من موضع. فلو أخذنا استبياناً

(١) يحي هويدى: مقدمة في الفلسفة العامة (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٥٢-٥٣.

(٢) توفيق الطويل: أسس الفلسفة (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢٠٧.

للاتجاهات الاجتماعية أو النفسية لوجدنا أن التحيز يظهر في وضع الاستبيان نفسه، إذ يقوم الاستبيان على وضع مجموعة من الأسئلة تعتبر مشيرة ودالة على الاتجاه المراد نفسه. وفوق هذا يدخل التحيز في أنواع الاستجابات نفسها، فمن قبيل التصور النظري أيضاً أن الشخص الذي يجب على استبيان أو مقابلة إنما يقدم للباحث «عينة» من إجاباته. فقد تكون لديه جملة استجابات لموقف معين أو نحو موضوع ما، وما يجيب الباحث به إن هو إلا عينة تناسب الموقف الذي يوضع فيه، وقد تتغير هذه الاستجابة إذا تغيرت بعض عناصر الموقف. كذلك نلاحظ أن هناك مجالاً واسعاً للذاتية في صياغة الأسئلة، سواء كان مصدر الذاتية هو واضع الأسئلة أو كان مصدرها الوسط أو الجو الحضاري الذي ينتمي إليه (١).

إن أهم الأمور التي دعت إلى تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية الرغبة الملحة في الوصول إلى الحقائق الموضوعية، بعيدة عن التصورات الذاتية أو التلوين الشخصي، وهذا هو من أكبر ميادين انتصار العلوم الطبيعية. بيد أن في العلوم الاجتماعية والإنسانية نجد صعوبة بالغة في تحقيق هذه الغاية، نتيجة لتأثير عملية البحث بالعامل الذاتي. ففي طبيعة الموقف الاجتماعي أو مظاهر السلوك الإنساني انغماس الباحث فيما يبحث فيه، فهو من ناحية ملاحظ بعيد عن الموقف، وهو في نفس الوقت جزء من الموقف الملاحظ. ومما يزيد في تعقيد مسألة الموضوعية في العلوم الاجتماعية أن ظواهر المجتمع ليست بساطاً ممتداً أمام أعين الباحثين دائماً، بل إن جزءاً منها واضح لبعض الناس، وجزءاً آخر غير واضح، وجزءاً منها يتضح في بعض الأوقات، وربما

(١) حامد عمار: المنهج العلمي في دراسة المجتمع (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٣٢ - ٣٤.

كانت هناك أجزاء غامضة كثيرة غير معلومة^(١). ويشير البعض إلى أن الموضوعية المطلقة أمر عسير التحقيق في البحوث الاجتماعية، ولكنهم في الحقيقة قد بالغوا في تقدير أثر العوامل الذاتية في تلك الدراسات. فقد أمكن الوصول فعلا إلى عدد كبير من القوانين والنظريات العلمية في الميدان الإجتماعي، ولا يمكن القول بأنها كانت قائمة على تحيزات شخصية، أو أن أصحابها كانوا يغلبون الجانب الذاتي على الجانب الموضوعي في دراساتهم. وتتوقف الموضوعية في البحث الاجتماعي على ضمير الباحث العلمي، ورغبته في إظهار الحقائق كما هي دون تحيز لرأى، أو تعصب لمذهب معين^(٢).

وقد اختلفت آراء المؤرخين في ضرورة مراعاة الموضوعية في كتابة التاريخ، وتفاوتت قدرتهم في الاستجابة لمطالب الحيادة المطلوبة. فالبعض من المؤرخين التزم الطريقة الموضوعية المطلقة في كتابة التاريخ، بمعنى أن ينكر المؤرخ نفسه كل الإنكار، ويمسك عن التعبير عن وجهة نظره الخاصة، وهذا الفريق هو الذي عرف باسم أصحاب النزعة الموضوعية Objectivism. وذهب فريق آخر من المؤرخين إلى إنكار قدرة المؤرخ على إلزام الموضوعية المطلقة، على أساس أنه لا يمكن للمؤرخ أن يتخلص من ذاتيته ويتخلى عن معتقداته ومواقفه الفكرية، وهذا الفريق هو الذي عرف بأصحاب النزعة الذاتية Subjectivism. ويرى فريق ثالث أنه على الرغم من الموضوعية التامة الواجب توافرها في المؤرخ، إلا أنه لا يمكن إلغاء شخصية المؤرخ الذاتية بما فيها من أحاسيس ومشاعر، والمؤرخ الناجح في نظر هذا الفريق هو الحريص على ألا تطغى عواطفه على حياده وموضوعيته.

(١) المرجع السابق، ص ٥٨ - ٦٠.

(٢) عبدالباسط محمد حسن: أصول البحث الاجتماعي (القاهرة ١٩٩٠)، ص ١٠٣.

وهنا نتساءل هل يمكن للمؤرخ أن يتجرد من ميوله وأهوائه؟ وهل يمكن أن يقف موقف الحياد الصارم بين ذاته والموضوع الذي يتناوله؟ لقد طمح إلى هذا عدد كبير من المؤرخين على مر العصور، كان أعظمهم طموحاً المؤرخ الألماني الشهير ليوبولد فون رانكه (١٧٩٥ - ١٨٨٦) Leopod von Ranke زعيم المدرسة العلمية الحديثة في التاريخ، وواضع أسس الموضوعية في القرن التاسع عشر.

ولد رانكه في إحدى مدن مقاطعة ثورتجيا في ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٥، من أسرة دينية متمسكة بتعاليم مذهب المصلح الديني مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦)، وكان أبوه يعمل في المحاماة، وتولى تعليمه في مدرسة شول فورتا Schupforta، وهي مدرسة داخلية تعلم فيها بسمارك الشهير فيما بعد. وفي جامعة ليبزج درس رانكه اللاهوت واللغات وفقه اللغة والآداب الكلاسيكية والآداب الألمانية، ونال درجة الدكتوراه في سنة ١٨١٧ م. وأول منصب تولاه كان التدريس في جمنازيوم فرانكفورت آن دير أودر (١٨١٨ - ١٨٢٥) Frankfurt an der Oder، وعندما نشر أول كتبه في سنة ١٨٢٤ م عاد عليه بالشهرة، فعين أستاذاً للتاريخ في جامعة برلين في أوائل سنة ١٨٢٥. ثم قام رانكه بجولته الأولى في الأرشيات الأجنبية في فيينا وفلورنسه وروما والبندقية، حيث قابل شخصيات هامة منها الوزير النمساوي مترنيخ (١٧٧٣ - ١٨٥٩). كما قام بجولة ثانية (١٨٣٤-١٨٣٧)، وبين هاتين الجولتين حرر المجلة التاريخية السياسية، ونشر كثيراً منها بنفسه^(١). وفي سنة ١٨٣٤ رقى رانكه، فقد أسست له

(١) Gay (Peter), *Historian at Work* (New York, 1975), Vol. III, p. 17; Stern, *The Varieties of History*, p. 54; Gay (Peter), *Style in History* (New York, 1974), pp. 69-71; Ramm (Agatha), *Leopold von Ranke*, p. 36, in the *Historian at Work*, ed. by John Canon (New York, 1975).

جامعة برلين كرسى للتاريخ، وظل أستاذاً بها حتى سنة ١٨٧١. وعندما بلغ سن الثامنة والأربعين فى سنة ١٨٤٣ تزوج من كلارا جريفز Clara Graves وهى إنجليزية التقى بها فى فارس. وفى سنة ١٨٦٥ منح رانكه لقب نبيل، وبذلك انتسب إلى الطبقة الأرستقراطية العليا، وبدأ فى إعادة كتابة أعماله الرئيسية التى نشرت فى خمسة وأربعين مجلداً بين سنتى ١٨٦٧ و١٨٩٠ م، وقد أتمها بعد وفاته نخبة من تلاميذه الأوفياء. ومن أهم مؤلفاته «تاريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية» (١٤٩٤ - ١٥١٤)، «تاريخ البابوات فى القرن السادس عشر والسابع عشر» (١٨٣٤-١٨٣٦)، «تاريخ الإصلاح الدينى فى ألمانيا» (١٨٣٩ - ١٨٤٧)، «تاريخ بروسيا» (١٨٤٧ - ١٨٤٨)، «تاريخ فرنسا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر» (١٨٥٢ - ١٨٥٦)، «تاريخ إنجلترا فى القرن السابع عشر» (١٨٥٩ - ١٨٦٨) (١).

وقد مال رانكه إلى الدراسات التاريخية أثناء دراسته للأدب الكلاسيكى ولآراء المدرسة الرومانسية، بعد إطلاعه على رواية كونتن ديروارد Quentin Durward التى كتبها الروائى الكبير السير والتر سكوت (٢)، وصور فيها شخصية لويس الحادى عشر وشارل الجرىء، وقرأ

(١) Tholfsen (Trygve R.), Historical Thinkings. An Introduction. (New York, 1967), P. 158.

(٢) كان أبرز كتاب المدرسة الرومانسية فى مجال التاريخ والأدب فى إنجلترا هو السير والتر سكوت (١٧٧١-١٨٣٢)، الذى جاء إنتاجه فى الأدب أكبر وأهم مما كتبه عن تاريخ الأدب. ولا يوجد هناك أديب فعل أكثر مما فعله سكوت بما فى ذلك شاتوبريان نفسه، وذلك فيما يتعلق بإثارة الاهتمام بحياة العصور ونظام الفروسية فيها. وتجلت مقدرته الأدبية الفنية فى المقدرة على إعادة صياغة الماضى فى صورة تتفق والصبغة المحلية الإقليمية. وكانت لكتبه «إيفانهو» و«تاليران»، كذلك لرواياته عن اسكتلندا فى العصور الوسطى أثر كبير لافى مجال الأدب وتذوقه فحسب، بل على نظرة المؤرخين إلى العصور الوسطى. أنظر: بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ج١ ص ٢٥٥.

بعد ذلك عن الصراع بينهما في المؤلف التاريخي الذي كتبه فيليب دي كومين^(١) Philippe de Commine قراءة مستفيضة، وكتب رانكه إلى أخيه أنه وجد أن هذا المؤلف التاريخي أفضل وأشوق من القصة، وأكثر طرافة ودقة منها. وعقد العزم من فوره على ممارسة الكتابة التاريخية متوخيا الصدق وتصوير الوقائع التاريخية كما حدثت دون أن يعمد إلى الاختراعات والخيالات والإضافة في مؤلفاته، وصرح بأنه عندما يلقى المؤرخ بقلمه عند إنتهائه من الكتابة، فعليه أن يكون قادراً على أن يشهد أمام الله بأنه لم يكتب إلا ما كان حقيقياً، أي أفضل ما يمكن كتابته اعتماداً على معرفته، وآمن بأنه ينبغي على المؤرخ ألا يضيف لمادته شيئاً بقصد زيادة سحرها الجمالي، أو سعياً وراء إحداث تأثير بلاغي براق^(٢).

وأخذ رانكه على المؤرخين محاولتهم إصدار الأحكام على الماضي لإفادة الحاضر ولينتفع بتجاربه المستقبل، وأوضح بأنه في تناوله للتاريخ لا يطمع في الوصول إلى هذا الهدف، وأن غاية المؤرخ هو الاقتصار على ما حدث، أي الماضي كما حدث حقيقة *Wie es eigentlich gewesen ist*، أي أنه سوف يسجل الأحداث كما أخبرته بها الوثائق التي قرأها، وسيكتب الرواية التاريخية بموضوعية بما تنطوي عليه من متعة^(٣).

(١) فيليب دي كومين (١٤٤٥ - ١٥٠٩)، مؤرخ فرنسي يعرف بأبي التاريخ الحديث، تقلب في كثير من المناصب السياسية، وفي أواخر حياته كتب مذكراته *Memoirs*، وتعتبر تاريخاً هاماً بما اشتملت عليه من بلاغة الوصف، وصحة الحكم، والقدرة على فهم الوقائع. انظر هرنشو: علم التاريخ، ترجمة عبدالحميد العبادي (القاهرة ١٩٤٤، هامش ص ٣٠).

(٢) أرنست كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، مراجعة على أدم (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٢١ - ٢٢،

Gay, *Historian at Work*, Vol. III, P. 17; Thompson (James Westfall), *A Hist. of Historical Writing* (New York, 1942), P. 170.

Ramm, Lepold von Ranke, P. 37;

(٣) على أدم: التاريخ بين الذات والموضوعية، مجلة العربي، العدد ١٧٥، يونيو ١٩٧٣، ص ١١٦.

ونتيجة لذلك صور رانكه شخصيات العصور التي أرخ لها تصويراً يتسم بالاعتدال وتحاشى المبالغة، وقاوم ميوله، وأحكامه على قلتها وندرتهما لهاوزنها وقيمتها. وحينما عرض لوفاة الإسكندر السادس زعيم أسرة بورجيا المعروفة بجرائمها البشعة اكتفى بأن يقول: «لقد وضع حد للجريمة الإنسانية، ولقد مات وصار موضع استنكار القرون التالية»^(١).

ولم يكن باعث رانكه على ملازمة الحياد التام، ومجافاة إصدار الأحكام، فتور في العاطفة أو جمود في الإحساس، وإنما كان مصدر تلك الروح الدينية العميقة التي كانت مستولية على نفسه، إذ كان يرى أن البشر ليس من حقهم إصدار أحكام على الحركة التاريخية لأنها من تدبير العناية الإلهية التي توجه كل أحداث التاريخ نحو غاية لا يعلمها إلا الله. وفي سنة ١٨٢٤ كتب رانكه أنه يعتقد أنه رأى «من مسافة عظيمة، الهداية المباشرة وعمل الله المرئي في التاريخ، أي أن الله هو صانع التاريخ وأن العناية الإلهية هي التي توجهه»^(٢).

وكان رانكه يرى أن غاية ما يستطيعه المؤرخ هو أن يبذل جهده في تحرى الحقائق، ويصدق في تصوير الوقائع والأحداث، وكان كثيراً ما يردد أن منطق الأحداث وتطور سير التاريخ يفتن لبه، ويهفو قلبه، وفي تأريخه لحياة فردريك الكبير ملك بروسيا^(٣) (١٨٥٨ - ١٨٦٥) لم يبد أي

(١) على أدهم: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٢) Ramm, Op. Cit., P. 48; Bayd (C.Shaver) & others, Historical Study in the West (U.S.A., 1986), PP. 17-18; Tillinight (Pardon E.), The Specious Past: The Historians and Others (London, 1972), P. 141.

(٣) بروسيا دولة ألمانية خلقت في العصر الحديث من مناطق معينة ترجع في تاريخها إلى العصور الوسطى. وأصل بروسيا هو مقاطعة براندنبرج التي تنحصر بين نهري الميز واللب، تأسست في القرن العاشر. على أن تاريخ هذه المقاطعة لم يسر في اضطراب مستمر، فقد شاهد فترات انتكاس خصوصاً في القرن الرابع عشر بسبب النزاع حول الحكم في داخل المقاطعة حتى قام الإمبراطور سيغيسموند في عام ١٤١٥ بتعيين

عداء للنمسا، ولم يظهر أى تحيز لفردريك الكبير كما جرت العادة بين المؤرخين الألمان من قبله، وقد حمل ذلك المؤرخ الإنجليزي توماس كارلايل^(١) على أن يقول عنه فى إحدى رسائله: «لو كنت بروسيا أو حتى ألمانيا لأعلنت احتجاجى على كتابه عن فردريك الكبير». وحينما كتب «تاريخ فرنسا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر» كتبته من وجهة النظر الأوربية، وأعرض عن طريقة المؤرخين الألمان فى التعامل على الفرنسيين حينما يتصدون للخوض فى تاريخ فرنسا، ولذلك رحب الفرنسيون بظهور هذا الكتاب واستمتعوا به، وأعلنوا ارتياحهم له^(٢). وأعجب به المؤرخ الإنجليزي جوش Gooch إعجاباً بالغاً، ورأى فيه المؤرخ المثالى، الذى لم يتحيز فى كتابته، وتجرد من عواطفه عندما وصف الماضى كما حدث، دون أن تكون لديه فكرة أو نظرية ما، ومع أن رانكه لم يكن أول من استخدم الأرشيفات، إلا أنه جعل من الضرورى أن يقوم العمل التاريخى على المصادر المعاصرة، وهو أول من أسس علم البرهان التاريخى^(٣).

وترجع قوة رانكه الفائقة للحقيقة الخاصة بأنه لم يضع برنامجاً معيناً، وبدلاً من ذلك جعل نفسه وأعماله مثلاً. فقد أعد أداة لمعرفة التاريخ اعتمد فيها على فنه النقدى فى تحليل المصادر، واتبع هذا الفن

فردريك هو هنزلرن، وهو نبيل من جنوب ألمانيا، منتخباً لها. وقد قدر لهذا المنتخب أن يكون مؤسس أسرة حكمت فى براندنبيرج لخمسة قرون، وفى النهاية حصل ممثلو تلك الأسرة على تاج الإمبراطورية الرومانية. انظر: د. محمد فؤاد شكرى، د. محمد أنيس: أوروبا فى العصور الحديثة، ج ١ ص ٢٧١-٢٧٢.

(١) انظر ص ١٥٤ - ١٥٧ .

(٢) Scheville (Ferdinand), Six Historians (U.S.A., 1956), P. 148;

على أدهم: المرجع السابق، ص ١١٦ .

(٣) Halperin (S. William), Hadsel (Fred. L.), Gooch (George Peabody), in Some 20th Century Historians (U.S.A., 1916), PP. 265-266.

بعد ذلك كل مؤرخ، بصرف النظر عن اتجاهه أو انتمائه أو القضية التي يدافع عنها. وتمثل الطريقة التي اتبعتها في فحص تقارير السفراء والأوراق الدبلوماسية ومضاماتها بعضها ببعض، ثم غربلتها واستخدامها بعد ذلك في فهم المسائل السياسية اتجاهاً جديداً^(١). ويذكر ألفرد دوف -AI- fred Dove (١٨٤٤ - ١٩١٦) كاتب سيرته الذي أشرف على تحرير المجلدات الأخيرة من مجموعة أعمال رانكه من أوراقه، أن السبب في اندفاع رانكه وراء الوثائق الأصلية يرجع إلى اختلاف شخصية الملك الفرنسي لويس الحادي عشر في رواية السير والتر سكوت - وهي كونتن ديروارد التي أشرنا إليها - عنها فيما كتبه المؤرخ فيليب دي كومين^(٢). وقد بلغ من حماس رانكه وتلاميذه لهذه الأصول أن انتشروا في الأرض ينقبون في كهوف المحفوظات ورفوف الأديرة باحثين عن الوثائق في حماس شديد جعل الدول والحكومات والكنائس وغرف التجارة وبيوت النبلاء تهتم بتلك الوثائق وتنظيمها فنشأ علم الوثائق. وأخذت قواعده تستقر، وقامت دور المحفوظات ومجموعة السجلات في أوربا كلها، وأقبل طلاب التاريخ يدرسونها وكأنهم - كما قيل يومئذ - فيران تقضى الليل في قضم صفحات الكتب^(٣). ومما يدل على اهتمام رانكه بالوثائق أنه طلب في سنة ١٨٢٧ من ناشر كتابه الثاني أن يعيد إليه المسودة النهائية لمخطوطته، لأنه عثر على وثيقة تتطلب منه مراجعة أحد الفصول^(٤).

وخير صورة توضح لنا ما قام به رانكه من إسهامات فعالة في

(١) كاسيرر: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) Ramm, Leopold von Ranke., p. 52.

(٣) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٧٧.

(٤) Gay, Style in History, P. 87.

اكتشاف المادة التاريخية ونشرها، ذلك الوصف الذي أطلقه عليه المؤرخ الإنجليزي لورد أكتون (١٨٣٤ - ١٩٠٢) من أن رانكه هو البطل الحقيقي لدراسة الوثائق، الأمر الذي جعله معروفاً تماماً. وقد اطلع رانكه أساساً على أرشيفات الحكومة الألمانية، واستخرج مقتطفات أو نسخ من وثائق الرايخ Reichstag والمؤسسات الألمانية الأخرى. ومن المعروف أن معظم عمل الدايت Diet (المجلس الإمبراطوري في ألمانيا) كان يدار بالمراسلات الرسمية أكثر منه بالمناقشة الشفهية، ولهذا فإن وثائق الدايت كانت تحتوى على وصف دقيق للقرارات التي تم الوصول إليها. وعندما شرع رانكه في كتابة «تاريخ بروسيا»، حصل من فرديريك الكبير على كتاباته الخاصة به وبأبيه، وفي المدن الإيطالية وجد رانكه أثمن كنوزه في قصور العائلات القديمة، وكتب «تاريخ البابوات» دون أن يقترب من أرشيفات الفاتيكان، لأن أرشيفات الولايات في إيطاليا كانت في الواقع مبعثرة في المجموعات الخاصة للعائلات التي كان أفرادها يديرون شئون تلك الولايات^(١). وهذا يعنى أن رانكه كان يقرأ نوعاً خاصاً من الوثائق، يأتي في مقدمتها الرسائل التي من بينها رسائل السفراء أو المبعوثين في مهام خارجية، وهؤلاء كانوا يضعون للوطن تقارير عن الأحداث الجارية أو المتوقع حدوثها في العواصم التي كانوا يقيمون بها. وكثيراً مما نشره رانكه في فهارسه الوثائقية كان يتألف من رسائل أو حوليات غير معروفة حتى الآن، ولذا فليس من المدهش أن الحروب والدبلوماسية والتضال بين الأحزاب المتنافسة حول السلطة، وأهم من ذلك أفكار ودوافع وأعمال الشخصيات السياسية، هي التي سيطرت على كتابته. ولم تكن مادته التاريخية التي دونها وتركت تأثيراً في القارىء ترجع إلى أنه تناول

Ramm, Leopold von Ranke., pp. 51-52.

(١)

تاريخ شخصيات بارزة قليلة فحسب، بل أيضا لأنه كتب تاريخ الشعوب من خلال أفكارها وأعمالها^(١).

وعلى أية حال، أصبح رائكه شهيراً بسبب نقده للمصادر الأصلية وتحليلها. ويقال أنه ورث هذا الاتجاه من المؤرخين نيبوهر^(٢) (١٧٧٦ - ١٨٣١) وتيودور مومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣)، اللذين تناولا تاريخ روما الكلاسيكية. فقد أدخل نيبوهر في دراسته القضايا السياسية والاجتماعية ودشن بذلك التاريخ الاجتماعي، إذ درس نصوص المؤرخين وغيرهم من المصادر الأسطورية للجمهورية الرومانية، وألف كتابه الشهير «تاريخ الرومان»، ونهج به نهجا علميا مبتكراً أحيى به التاريخ الروماني، وجعل للتاريخ بهذا الكتاب مكانة علمية^(٣). ويعتبر مومسن أكبر مؤرخي الألمان بعد نيبوهر، فقد كان فقيها باللغة، قانونيا، عالما بالنقوش الأثرية، نشر كتاب «تاريخ الرومان، الذي عمت شهرته الآفاق، وكتاب «تاريخ الحق العام الروماني»، ومجموعة النقوش الرومانية، وجدد بهادراسة القديم

(١) Ibid., P. 52.

(٢) كان بارتولد جورج نيبوهر Niebuhr رجل سياسة مميّزا وباحثا قديرا، ولم يكن مواطنا بروسيا، بل دنماركيا، وهو ابن الرحالة الشهير كارستون نيبوهر. وفي سن الثامنة عشرة عرف بارتولد نيبوهر ثمانية عشر لغة أوربية، بالإضافة إلى العبرية والفارسية والعربية. وتعلم الفلسفة والرياضيات والطبيعية والكيمياء والتاريخ الطبيعي، وكان على معرفة تامة بالتاريخ الألماني والفرنسي، والقانون الروماني. وفي سنة ١٨٠٦ غادر نيبوهر كوبنهاجن، والتحق بخدمة بروسيا، وأصبح عضواً هاماً في حركة الإصلاح البروسية. وفي سنة ١٨١٠ اختير محاضراً في جامعة برلين الوليدة، ونالت محاضراته نجاحاً هائلاً. وعين سفيراً بروسيا لدى الفاتيكان في روما (١٨١٥ - ١٨٢٢)، ومضى أيامه الأخيرة أستاذاً في جامعة بون. انظر:

Thompson, A Hist. of Historical Writing, Vol. II., PP. 153-156: Stern, The Varieties of History., P. 46.

(٣) نور الدين هاطوم، نبيه عاقل، أحمد طرمين، صلاح منفي: المدخل إلى التاريخ (دمشق ١٩٦٤)، ص ٤٥٢.

اللاتيني، وحاز على جائزة نوبل^(١). ويظهر تأثير نيبوهر ومومسن واضحا في رانكه في أنه كان يسأل نفس الأسئلة التي سألاها كيف ظهرت هذه الوثيقة؟ وكيف وصلت إلينا؟ بيد أنه كان أكثر منهما ميلا إلى تحليل وثائقه ونقدها ومضاهاتها بعضها ببعض، ليظهر الفروق بين وصفين لحدث واحد، أو بين الأسطورة والحقيقة، وشرح السبب في تفصيل وثيقة على أخرى، أو رفض الإثنيين معاً، أو ترك ما جاء بهما مفتوحاً لبراهين وأفكار جديدة، ولذا جاءت الروايات المنبثقة من قراءاته واستنتاجاته أكيدة وصادقة ولا تترك فجوات واضحة.

كان رانكه يقول عن نفسه إنه مرآة تقرأ في الأحداث كما وقعت بالفعل في الماضي، دون أن يكون له أي تأثير فيها. وفي رسالة بعث بها إلى شقيقه هينريك يقول: «ليست فكرتي الأساسية هي قبول هذا المذهب أو المذهب الآخر أو المذهب الوسيط بينهما، وإنما فكرتي الأساسية هي معرفة الحقائق والسيطرة عليها وإظهارها، والتعليم الصادق لا يكون إلا بمعرفة الحوادث^(٢). وفي وقت مبكر في سنة ١٨٤٠م لاحظ رانكه أن المؤرخ يحتاج إلى ثلاث صفات رئيسية، نفاذ البصيرة، والشجاعة، والنزاهة الأولى بإدراك الأشياء كلها، والثانية ألا يخاف مما يراه، والثالثة ألا يقع في خداع الذات^(٣).

وإذا كانت أهمية رانكه تكمن في أنه ترك علامة بارزة في علم كتابة التاريخ، بما ساهم به في وضع قواعد النقد الخاصة بمضمون الوثائق، وإصراره على تناول الماضي بموضوعية مطلقة، فإن الأثر الذي تركه على تدريس علم التاريخ من المحتمل أنه أعظم من الأثر السابق،

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٢) على أدم: «التاريخ بين الذات والموضوعية»، ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) Gay, Style in History., P.

لأن رانكه وضع أساس ما يعرف بالسمنار - أى حلقات البحث والدرس - فى سنة ١٨٣٣ م، ولم يكن هدف تلك الحلقات قاصراً على المؤرخين الألمان فحسب، بل رحبت بدارسى التاريخ الذين أتوا من كل أنحاء العالم لدراسة المنهج التاريخى الذى اتبعه رانكه طوال نصف قرن. وعندما تقدم العمر برانكه وأصبح عاجزاً عن قيادة سمناره بكفاءة، تبنى تلميذه المقرب إليه جورج فيتز George Waitz منهجه فى جامعة جوتنجن (١). وقد سار على نهج رانكه المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين، فأنشأ حلقات السمنار، وأشرف على قيادتها فى بلجيكا (٢).

سار كثير من كبار المؤرخين المحدثين على نهج رانكه فى ضرورة التزام الموضوعية التامة كتابة التاريخ، وأثروا أن ينكر المؤرخ نفسه تماماً ويمسك غن إقحام أفكاره الشخصية ومشاعره ووجهات نظره الخاصة. ومن هؤلاء المؤرخين راتزل Ratzel، وهيلموت Helmut، وفوستل دى كولانج (١٨٣٠ - ١٨٨٩) الذى يعتبر مؤسس المنهج العلمى فى دراسة التاريخ فى فرنسا. وقد اهتم بتاريخ فرنسا فى العصور الوسطى، وألف كتاباً أهمها «الحياة فى فرنسا من العصور الوسطى، فى أربعة مجلدات، وفيه اعتمد على مقتطفات من كتاب العصور الوسطى وعلى ما كتبه الروائيون الأخلاقيون فى تلك العصور (٣). وقال فوستيل إنه ينبغى على المؤرخ ألا يتدخل فى الأحداث التاريخية التى يتناولها، ويبعد آراءه الشخصية، وكان مقتنعاً أنه من خلال الدراسة الدقيقة للمصادر الأصلية يستطيع المؤرخون أن يصلوا إلى الحقيقة التاريخية، وعندما يفعل

(١) Barnes (Harry Elmer), A Hist. of Historical Writing Second ed. (New York, 1962, P. 246; Thompson, A Hist. of Historical Writing, Vol. II, PP. 177-178.

(٢) Cate (James L.), Henry Pirenne, in Some 20th century Historians, ed. by S. William Halperin., P. 3.

(٣) Renier (G.J.), History, its Purpose and Method (London, 1950), PP. 249-250.

المؤرخون ذلك - مثلما فعل هو - فإن التاريخ هو الذي يتحدث من خلالهم (١). ويرى أنه قال لجماعة من المتحمسين له عند إلقاء إحدى محاضراته: «لا تمتد حوني، فلست المتحدث، وإنما التاريخ هو الذي يتحدث من فمي» (٢).

ومن المؤرخين الذين ساروا على نهج رانكه في الإلتزام بالموضوعية في كتابة التاريخ المؤرخ الفرنسي إيبوليت تين (١٨٢٨ - ١٨٩٢) Hippo- Taine، الذي كان يرى أن المؤرخ باستطاعته تحقيق الموضوعية تحقيقاً تاماً، وفي هذا الصدد يذكر أنه سوف يبحث مثل الفيلسوف إسبينوزا (ت ١٦٧٧) - وهو من أتباع المذهب العقلي - في العواطف الإنسانية، وكأنه يبحث أشكالاً هندسية أو سطوحاً أو أشياء صلبة، ذلك أن الانفعالات مثل الحب والكراهية والغضب والطموح والتعاطف ينبغي ألا ينظر إليها كعلامات ضعف، بل كمظاهر للطبيعة الإنسانية، فهي تمثل جانبا منها، كما تمثل الحرارة والبرودة والعواصف والبرق وظواهر أخرى من هذا القبيل جانبا من الظواهر الجوية. وبهذه الصورة يبدو المطلوب الخاص للموضوعية كما فهمه رانكه، فعلى المؤرخ ألا يسمح لنفسه لحظة بأن يذهب بعيداً في اهتمامه بما حدث، ولا يحق له أن يحكم، بل أن يحلل فقط وأن يفهم (٣). أما المؤرخ تشارلز أندروز، فقد شدد على أنه ينبغي على المؤرخ أن يغمر نفسه تماماً في حقائق الفترة التي يتناولها، حتى لا يسيء فهمها أو تفسيرها. ويشير أندروز إلى أنه عندما يتغنى المؤرخ بعظمة الموضوعية، فإنه ببساطة يتغنى بالحقيقة لذاتها، والمؤرخ

(١) Shafer (Boyd C.) & others, Historical Study in the West (U.S.A., 1928), P. 19; Tholfen, Historical Thinking., P. 195; Stern, The Varieties of History, p. 178.

(٢) Ausubel (Herman), Historian and their 'Gift., P. 90; Snyder (Phil. L.), Detachment and the Writing of History: Essays and letters of Carl L. Becker., P. 54., Tholfen, Historical Thinking, P. 221.

(٣) إرنست كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ص ٤٨.

الموضوعى هو المؤرخ المحايد، والمشاهد غير المتحيز، لا يحابى قضية معينة أو يدعم مذهب أو نظرية أو فلسفة خاصة، وذلك لأن نتائج الوصف التاريخى الموضوعى تأتى من الحقائق نفسها، وليست من أفكار مكونة سلفاً عاشت فى ذهن المؤرخ^(١).

الذاتية فى كتابة التاريخ:

ذهب فريق آخر من مشاهير المؤرخين مذهباً آخر فى كتابة التاريخ، وهو إنكار قدرة المؤرخ على التزام الموضوعية المطلقة، بمعنى استحالة أن يستقل المؤرخ عن عواطفه وأهوائه وشعوره وذوقه. ولهذا يرى المؤرخ لويس جوتشلاك^(٢) أن هناك تحاملاً على المعرفة الذاتية على أساس أنها دون المعرفة الموضوعية، ذلك فى الغالب لأن كلمة «ذاتى» تعنى أيضاً «خداعاً» أو «مبدياً على اعتبارات شخصية»، ومنها صارت تعنى «غير صحيح» أو «متحيزاً» والمؤرخ الذى يظن أنه ليست لديه فلسفة للتاريخ أو الذى يعتقد أنه فى معزل عن كل تأثير يخدع نفسه بنفسه، اللهم إلا أن كان يتمتع بصفات لم يحرزها البشر.

وكان أكبر ناقدى رانكه المؤرخ يعقوب بوركهات (١٨١٨ - ١٨٩٧)، وهو من أصل سويسرى، وتتلذذ لرانكه وتخرج عليه فى برلين، وقد نفر من جمود رانكه وقضائه على الجانب الشاعرى من التاريخ. وبلغ من استنكاره لمذهب رانكه هذا أن رفض أن يتولى كرسى التاريخ بعده فى جامعة برلين، ثم قام بتأليف ثلاثة من أحسن ماكتب فى التاريخ على المذهب الجديد وهى: «عصر قنسطنطين الكبير» (١٨٥٣)، «حضارة

(١) Ausubel, Op. Cit., P. 171.

(٢) كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى، ترجمة عائدة سليمان عارف، أحمد مصطفى أبو حاكمة (بيروت ١٩٦٦)، ص ٥٧ - ٥٨.

عصر النهضة فى إيطاليا، (١٩٦٠)، وتاريخ النهضة فى إيطاليا، (١٨٦٨ - ١٨٧٣)، ثم أتبعها بكتابه المشهور «تأملات فى التاريخ العالمى»، وكلها كتب تجمع بين المنهج التاريخى الدقيق إلى جانب الإحساس الإنسانى والجمالى (١).

ويعترف أصحاب المذهب المثالى - وهو المذهب الذى يجعل الذات لا الموضوع محور المعرفة - صراحة بإنكار وجود حقيقة تاريخية تكون الموضوعية فيها مطلقة، ويبررون ذلك أنه لا يمكن فهم الموضوعية فى التاريخ بنفس مفهومها فى العلوم الطبيعية، لأنه ليس فى الطبيعة تفسير ماركسى لظاهرة فيزيقية أو تفسير بورجوازي لها، كذلك الأمر فى الظاهرة البيولوجية، ولكن هناك تاريخاً ماركسياً وآخر بورجوازيًا، كما أن هناك تاريخاً بروتسانتياً وآخر كاثوليكياً لعصر الإصلاح الدينى وقيام مارتن لوثر، ويختلف تاريخ مؤرخ سنى عن آخر شيعى لفترة حكم الخلفاء الراشدين، وهم يبررون هذا التمايز فى الموضوعية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية وأخصها التاريخ إلى انتماء الذات (المؤرخ) والموضوع (الواقعة التاريخية) إلى مقولة واحدة هو الإنسان، وليس الأمر كذلك بالنسبة للعلوم الطبيعية حيث هناك مقولتان مختلفتان: المادة والإنسان.

ويرى المثاليون أنه من المتعذر أن تتفق وجهات نظر المؤرخين بصدد موضوع معين لعدة عوامل، أهمها تعذر تحرر المؤرخ تماماً من عاطفته الذاتية إزاء من يؤرخ لهم من شخصيات، إنه مطالب أن يتمثل الماضى وشخصياته، بل أن يتقمص روح القديم وإن بلغ درجة الوعى ذاتياً فإنه ليس انفعالياً، إذ ليس من حق المؤرخ أن يزور وثيقة أو يتحيز أو

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٨١-٨٢.

(٢) أحمد صبحى: فى قلعة التاريخ، ص ٤٩.

يتحامل^(١). ومن أهم العوامل أيضا إنتماء المؤرخ إلى حزب أو طبقة أو مذهب معين، الأمر الذى يجعل المؤلفات التاريخية معبرة عن وجهات نظر مؤلفيها، ولا يعد المثاليون ذلك مما ينقص من قيمة المؤلف، على العكس أنهم ينتقدون الموضوعية المطلقة التى تجعل من التاريخ سجلا لا حياة فيه ولا لون له، ويسخرون من المؤرخ الذى انمحت شخصيته حتى أصبح كأبى الهول فى صمته، فالفكر الفلسفى أو الأيديولوجى للمؤرخ هو الذى يلون تفسيره للماضى، فليس الخلاف بين المؤرخين فى الحقيقة إلا نتيجة اختلاف الأيديولوجيات أو العقائد، ولكن ذلك لايعنى إلغاء الموضوعية تماما، وإنما الموضوعية فى التاريخ تختلف عن موضوعية العلوم الطبيعية، إنها تعنى تسجيل الوقائع التاريخية وتصويرها تصويراً دقيقاً من وجهة نظر المؤرخ^(٢). ويمكننا القول إن المؤرخين لايتأثرون بعوامل ذاتية فحسب، بل إنه من الواجب أن يتأثروا. فالتاريخ غير الإنحيازى ليس مثلاً أعلى فحسب، بل هو مستحيل استحالة مطلقة، ولتأييد ذلك يمكننا أن نشير إلى أن كل مؤرخ ينظر إلى الماضى من وجهة نظر معينة، فهو لا يستطيع أن يتجنبها، وتجنبها يشبه مطالبته بتغيير طبيعته^(٣).

ومن المعروف أن تدوين تاريخ الثورة الفرنسية التى قامت فى ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩، كان شغل فرنسا الشاغل فى القرن التاسع عشر. ومن المؤرخين الذين ساهموا فى كتابة تلك الثورة ودافعوا عن أمجادها وأهداؤها فى إعجاب بالغ: الكس دى توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) A lexis

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) نفس المرجع، ص ٥١ - ٥٢.

(٣) وولش (و.هـ.): مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة أحمد حمدي محمد، راجعه محمد بكير خليل (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢٣.

، Francois Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) ، وفرانسوا مينييه de Tocqueville ، وتاييه (١٧٩٧ - ١٨٧٧) ، Thayer ، والفونس دي لامارتين (١٧٩٥ - ١٨٦٩) Lamartine ، وجول ميشليه (١٧٩٨ - ١٨٧٤) Michelet ، ولويس بلان (١٨١٢ - ١٨٨٢) Louis Blanc . وقد اختلف هؤلاء المؤرخون في وجهات نظرهم ، وتعارضت علاقتهم بمصادرهم وطرق استخدامها إلى حد بعيد ، ولكنهم جميعاً كانوا يسعون أساساً إلى كتابة رواية للأحداث .

ويقال إن دي توكفيل رفض التاريخ الذي كتبه تاييه ، لأنه كان بعيداً عن كونه دراسة يملئها الضمير ، لاتعتمد على الدليل الوثائقي ، كما صدمه عمل لامارتين الأخلاقي «تاريخ الجيروندي» . ويشير المؤرخ الفرنسي جورج ليفيبر (١٨٧٤ - ١٩٥٩) George Lefebvre إلى أن توكفيل لم يقتبس من أي تاريخ مبكر تناول أحداث الثورة الفرنسية^(١) . ففي مقدمة كتابه الذي يعد من أشهر كتبه وهو «النظام القديم والثورة الفرنسية» ، يذكر دي توكفيل أنه كتبه دون تحيز ، ولكن ليس بدون عاطفة passion ، وفي هذا يقول : « وغير ذي جدوى الإنكار أنني شاركت في الكتابة بمشاعري ، فغاية الموضوعية في التاريخ - لو وجدت - أمراً غير واقعي ، والتاريخ الموضوعي البحث سوف يكون أيضاً تاريخاً ميتاً ، وأشد المؤرخين خطراً ذلك الذي يعتقد ويشجع قراءه على الاعتقاد أنه موضوعي تماماً ، ومن ثم فإن دي توكفيل بسبب مشاعره الخاصة التي شاركت كتاباته ، فقد سيطر كتابه «النظام القديم والثورة الفرنسية» بقوة على القارئ ، واستطاع أن يعطى قارئه نفاذ بصيرة عبقرية الملامح^(٢) .

أما المؤرخ جول ميشليه فقد كان مثله الأعلى في التاريخ هو «الإحياء» ، resurrection ، أي إحياء الماضي ، حتى أنه عاش في الماضي

(١) Taylor (Jon), A Lexis de Tocqueville., in the Historican at Worke. ed. by John Canon., P. 73.

Ibid., P. 74.

(٢)

بصورة لم يعرفها أحد من قبل أو بعد. واستولى على مشاعره حب جارف لوطنه، وكتب بأسلوب اتسم بالروعة والذكاء والمشاركة الوجدانية والتأثير^(١). وقدر أي ميشليه في التاريخ نضالاً روحياً، صراعاً بين الروح والجسد، حرياً بين الحرية والجبرية necessity، وآمن بأن فرنسا رسول الحرية للعالم الحديث، وقال عنها إنها مركز العالم وقوته الحيوية. وأخذت أفكاره في التاريخ شكلاً محدداً، فقد مال إلى أن يتتبع الحياة العميقة للشعب الفرنسي واستخدام الأغاني الشعبية والعملات والحقى والصورة والأمثال والعمارة والزجاج الملون^(٢). وفي سنة ١٨٣٣ نشر ميشليه المجلد الأول من كتابه المطول «تاريخ فرنسا»، وفي سنة ١٨٤٣ انتهى من العمل في هذا الكتاب حتى نهاية العصور الوسطى. وحتى تلك السنة لم يكن ميشليه ضد مبادئ الكنيسة الكاثوليكية، ولكن حدث التغيير عندما دخل في صراع ضد الجزويت (اليسوعيين) الذين هددوا بالسيطرة على التعليم الفرنسي، ذلك أن لويس فيليب باع نفسه للجزويت، وفي المقابل طلبوا منه أن يسيطروا على التعليم في فرنسا ثمناً لتأييدهم له. وكان مركز المعركة الكوليج دي فرانس Collège de France التي أسسها فرانسيس الأول لتكون مقراً للتعليم العلماني خارج جامعة باريس الدينية، فهاجم ميشليه الكنيسة لمحاولتها إعاقة العقل العلماني^(٣). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ترك ميشليه العصور الوسطى ليتحول فجأة إلى الكتابة عن الثورة الفرنسية، فكان كتابه الرائع «تاريخ الثورة الفرنسية»، وهو عمل كتبه بين سنتي ١٨٤٣ و ١٨٥٥، صور فيه انتصار الشعب على

(١) Scheville, Six Historian, pp. 197-198; Gay (Peter), Historians at Work, (١)

Vol. III, p. 68; Butterfield, Man on his past (U.S.A., 1966), pp. 228-232.

Butterfield, Op. Cit., p. 234. (٢)

Butterfield, Op. Cit., p. 235. (٣)

طغيان الكنيسة والملكية على السواء . وقد استخدم ميشليه المصادر بعد أن حُرّفها خدمة لمبادئه وموضوعه، وكتب عن تاريخه قائلاً: «إذا أردت رجالاً أمواتاً وأحداثاً ميتة تعود إلى الحياة فما هي»، (١).

ومن الأمثلة على اختلاف آراء المؤرخين بالنسبة لنفس الحدث، ما حدث عندما تناول المؤرخان جول ميشليه وجان جوريس (١٨٥٩ - ١٩١٤) أحداث الثورة الفرنسية، ففي الكتاب الذي أصدره ميشليه ذكر أن سبب قيام تلك الثورة هو البؤس الشديد الذي عانى منه الشعب الفرنسي، في حين ذكر جوريس في كتابه «التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية، الذي ظهر في بداية القرن العشرين، أن السبب الأساسي للثورة ليس هو فقر الشعب، بل ثراء البورجوازية التي كانت تطمح في الاستيلاء على السلطة، وبالتالي كانت تريد أن تلغى العوائق التي تقف أمام تقدم نمو الاقتصاد الفرنسي» (٢). إذن ليس ثمة أي تناقض بين تفسيرى ميشليه وجوريس، فالثورة الفرنسية ثورة على الفقر والبؤس، وثورة من أجل الرخاء.

ولا يمكن للمؤرخ إعداد عمل تاريخي بدون اختيار جزء معين من الأحداث المتاحة، بمعنى أن عمل المؤرخ لا يخرج عن كونه اختياراً للأحداث التي يريد أن يتناولها، ولا يمكن أن تنفصل نظرتة عما يختاره من أحداث. وقد لاحظ المؤرخ الهولندي بوسماكر Bussemaker أن اختيار المؤرخ للحقائق التاريخية هو نوع من إصدار الحكم على أهميتها، الأمر الذي يجعلنا لانصدق أن التاريخ يتسم بالموضوعية. كما كتب عالم المنطق شيلر قائلاً: «إن المعرفة غير المتحيزة عملية لا يصدقها

Gay, Op. Cit., v. III. P. 68; Butterfield, Op. Cit., p. 228.

(١)

Stern, The Varieties, of History, pp. 164-165.

(٢)

العقل، وينبغي أن نسلم أيها فكرة مجردة وخيال واستحالة، ويرى المؤرخ هازليرت Hazlitt في مقاله «في العبقرية والبصيرة السديدة» On Genius and common sence أن الفن والتذوق والحياة والخطابة كلها حالات نابعة من الشعور (الوجدان) وليس من العقل. أما المؤرخ البلجيكي هنري بيرين (1862 - 1935) الذي درس تاريخ التجارة والمدن والديمقراطية ومراحل التاريخ الاجتماعي للرأسمالية في العصور الوسطى فقد فسّر صعوبة احتفاظ المؤرخ بشخصيته بعيداً عن التاريخ الذي يتناوله بقوله: «موضوع المؤرخ هو المجتمع نفسه، وعمله هو فهم وإعادة سرد الأحداث التي تتكون عناصرها من رجال مثله، وشعوب مثل الشعب الذي ينتمي إليه، وحتى إذا كان من الممكن أن يتجرد من مشاعره، فلا يمكنه أن يظل موضوعياً تماماً، ومهما كانت شخصيته فليس في استطاعته أن يهرب من بيئته الاجتماعية، لأن العصر الذي يعيش فيه المؤرخ يعبر بالضرورة عن نفسه في الأعمال التي يتناولها، وتحدد وجهة نظره الخاصة بمستوى حضارة الشعب الذي يخاطبه، وهو عضو فيه لا ينفصل عنه» (١). ويكرر بيرين الإشارة إلى أنه لا يمكننا أن نسلم أنفسنا إلى منطق التاريخ، لأننا ننظر كثيراً إلى الأحداث والوقائع من زاوية عاطفتنا ومصالحنا كأشخاص أو أفراد ينتمون إلى طبقة من الطبقات، وهذه عوائق تقف حائلاً دون كتابة التاريخ بموضوعية. لقد كتب بيرين تاريخه بدقة ووضوح، وكبح جماحه عن استخدام الأسلوب البراق في الكتابة، وصور بعض الشخصيات ببراعة فائقة الحد، ولكنه لم يخضع أبداً لإغراء تفسير أفكارهم الباطنية أو إعادة تكوينهم السيكولوجي (٢). كما يرى المؤرخ

(١) Renier, Hist., its Purpose and Method., PP. 249-250.

(٢) Pirenne (Henri), A Hist. of Europe, Vol. I. (U.S.A., 1957), Introduction by Jan-Albert Goris., P. XVI.

الهولندي رينيه أن المؤرخ لا يستطيع أن يتحرر تماماً من الدافع الإنساني إلى إصدار الأحكام، ولا يستطيع كذلك في كل المناسبات أن يقاوم إغراء المشاركة في الأعمال التي يروى أحداثها (١).

ويعترف المؤرخ البريطاني هيرت بترفيلد Herbert Butterfield أن التاريخ بدون تحيز من الممكن أن ينظر إليه كمجرد تاريخ ممل، ومن ثم فإن إسهام الخيال التاريخي المنظم الذي لا يخرج عن إطار الحقيقة يعتبر ضرورياً. ولا يمكن الحصول على رواية صحيحة ما لم نرى الشخصيات التاريخية من الداخل، نحس بهم مثلما يشعر أي ممثل بالدور الذي يلعبه. وكان بترفيلد ينتقد بقسوة أولئك الذين يعتقدون أن كتابة التاريخ تزيد قليلاً عن نسخ بطاقات الفهارس، فالمؤرخ مشاهد للماضي، ولكنه ليس مشاهداً سلبياً، وهو وحده الذي يستطيع أن يجعل الماضي واضحاً في عيون الحاضر، وبهذا المعنى ينبغي أن يكتب التاريخ دوماً من وجهة نظر الحاضر، وينبغي على كل جيل أن يعيد كتابة التاريخ من جديد. ويختلف بترفيلد مع المؤرخ البريطاني لورد آكتون القائل بأن المؤرخ قاضياً، فالمؤرخ ليس قاضياً ولا محلفاً، ولكنه يشبه في كثير من الوجوه المشاهد الخبير، وهو أقرب ما يكون إلى المستجوب (المحقق) detective (٢).

وقد سبقت الإشارة عند الحديث عن الموضوعية في كتابة التاريخ إلى أن رائكه كان يقول عن نفسه أنه مرآة تتراءى فيها الأحداث كما وقعت بالفعل في الماضي. بيد أن المؤرخ برادلي رفض ذلك، فقد كتب في سنة ١٨٧٤ م. أنه لا يمكن أن يكون مؤرخاً هذا الذي يكتفى بدور المرآة الصاقية التي تعكس ما ورد في الوثائق، إذ لابد للمؤرخ أن يعايش

(١) على أدهم: «التاريخ بين الذات والموضوعية»، ص ١١٦.

(٢) Ferry (John), Herbert Butterfield, in *Historian at Work.*, P. 175.

الأحداث ليتمكن من تفسير المعانى الكامنة وراء المعلومات التى يحصل عليها، فالمعلومات فى حد ذاتها، كما يعثر عليها فى المخطوطات والمصادر القديمة، لاتزيد عن كونها مجموعة من الشهادات المنفردة المزعجة، ومن الأفاصيل المفككة المتناقضة. ويتوقف ما ينسخه المؤرخ من هذا الخليط على شخصيته واستعدادته وخبراته، ذلك لأن وثائق الماضى تضم ما هو انطباع ذاتى، وما هو حقائق موضوعية، وما هو أسطورى، كما أنها زاخرة بأحكام واستنتاجات تحتل الصواب والخطأ بالضرورة^(١).

وهكذا فالمؤرخ موجود بوضوح تام فى عمله بكل ذرات شخصيته ومزاجه وشعوره الكامل وعقله، وسيكون من السخف والخطورة أن يطلب من المؤرخ إخفاء مشاعره. وفى هذا الصدد يشير المؤرخ هالفن Halphen إلى أن تحيز المؤرخ له فائدته، لأنه يحذرنا من الحدود التى تقف عندها أفكاره. ويقر المؤرخ البريطانى تريفليان (١٨٧٦ - ١٩٦٢) أن التحيز المتزن أمر ضرورى، إذ يساعد المؤرخ أحيانا على أن يعطف على الناس الذين عاشوا فى الماضى، حينما يكون عمله وصف أعمالهم. كما يذكر المؤرخ بوير Bauer أن عبادة الموضوعية تلتوى على عيوب جسيمة لأنه لا يمكن الوصول إلى أهدافها أو تحقيقها، وما على المؤرخ إلا أن يتجنب الميول والأهواء وكذلك الموضوعية التى لا لون لها^(٢).

الذاتية المتطرفة فى كتابة التاريخ:

ولكن بعض المؤرخين نزعوا إلى الذاتية المتطرفة فى كتاباتهم التاريخية، فاستبعدوا التزام الحيادة، وتحمسوا بشكل زائد لآرائهم، متأثرين بمصالحهم القومية، فجاءت كتاباتهم أكثر تعصبا إلى الحد الذى انتفت فيه أمانتهم فى تقصى الحقيقة. وأبرز من يمثل الذاتية المتطرفة فى

(١) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

Renier, Op. Cit., PP. 250-251.

(٢)

كتابة التاريخ القومي - وبخاصة ألمانيا - فردريك كريستوف داهلمان (1785 - 1860)، ويوحنا جوستاف درويسن (1808 - 1884) - Droy- sen، وماكس دنكر (1811 - 1886) Dunker رائد الدراسة العلمية لآثار الشرق القديم في ألمانيا، وهنري فون سيبل (1817 - 1895) Sybel، وهنري فون تريتشكه (1834 - 1896) Treitschke، فقد كانوا «أنبياء» مدرسة رانكه التاريخية، ثم انفصلوا عنها^(١)

فالمؤرخ داهلمان الذي يعتبر «أبا لمدرسة التاريخ البروسية» لم يكن مؤرخاً من الدرجة الأولى، بل كان في المقام الأول دعائياً تغلب عليه عاطفة الوحدة الألمانية، واشتهر بأنه كان خطيباً مفوهاً، ووطنياً متحمساً، وملهماً للعمل السياسي، وكاتباً ومدرساً للتاريخ. أما دنكر فقد كان تلميذاً لرانكه، بيد أنه لم يكن مؤرخاً بارزاً، وأشهر أعماله «التاريخ القديم»، ويقع في تسعة مجلدات، وهو عمل قليل القيمة، على الرغم أنه اعتمد على وثائق جديدة اكتشفها مؤرخون آخرون. ومع أنه تدرب في سمنار رانكه، إلا أنه كان عاجزاً أو غير راغب في استخدام نقد المصادر المتاحة^(٢). أما سيبل الذي كان أبرز تلاميذ رانكه واعترف بأنه مدين لأستاذه، وقضى سنتين في سمناره، فقد تخاصم مع أستاذه، وأصبح في المقام الأول نصير «مدرسة التاريخ البروسية»، وقد نشر سيبل في سنة 1841 كتابه «تاريخ الحملة الصليبية الأولى»، ولقى استحساناً في سمنار رانكه. وبعد ذلك بثلاث سنوات أصبح أستاذاً في بون، وفي سنة 1856 عين أستاذاً في ميونخ بتوصية من رانكه، وفي الفترة من سنة 1861 إلى 1875 رجع إلى ميونخ مرة أخرى، وعينته الحكومة البروسية مديراً للأرشيفات اعترافاً بجميله باعتباره أعظم المتحدثين باسمها. وكانت هذه السنوات

(١) Thompson & Hellman, A Hist. of Historical Writing., P. 205.

(٢) Ibid., PP. 205-208.

مليئة بالعمل السياسي والبحث والنشاط الصحفي، وكلها كانت من أجل هدف واحد هو تأييد حكومة الهوهنزولرن Hohenzollern القوية. وفي رأى سيبيل أن التاريخ ما هو إلا أداة من أدوات السياسة، وانتقد رانكه لموضوعيته، وأصدر على أنه ينبغي أن يكون للمؤرخين الألمان «وعياً وطنياً، national conscience»^(١). ويذكر المؤرخ بارنز^(٢) أن سيبيل كان آخر الزعماء الثلاثة - درويسن وتريتشكه وسيبيل - للمدرسة البروسية، وقد بدأ عمله تلميذاً مخلصاً لرانكه، ولكن المواقف السياسية المثيرة التي شاهدها في منتصف القرن التاسع عشر جعلته يتخلى عن اتزان أستاذه، وأصبح المدافع القوي عن الوحدة الألمانية عن طريق الزعامة الحربية البروسية. وجاء كتابه «تاريخ الثورة الفرنسية، هجوماً عنيفاً على حركة الثورة الفرنسية، فركز في كتابته على الاعتقاد الرومانسي السابق الذي يتضمن افتقار الفرنسيين إلى المقدرة الأساسية. ثم تحول بعد ذلك إلى وصف الأحداث التي بدت له أنها قادرة على إثبات قوة أمتة الفائقة في الشؤون السياسية، وهي قيام الإمبراطورية الرومانية (الألمانية) على أيدي بسمارك.

ومن المؤرخين الألمان الذين لم ينهجوا نهج رانكه في الإلتزام بالموضوعية درويسن، فقد ترك اهتمامه بدراسة التاريخ القديم، وكرس نفسه للسياسة والتاريخ الحديث في مدينة كيل Kiel. وفي هذه المدينة التي كانت تعتبر قاعدة القومية الألمانية، اشتعل درويسن حماساً للوحدة الألمانية، واقتنع بأنه لا يوجد حلاً لألمانيا إلا باتحادها مع بروسيا^(٣). وقد تخلى درويسن عن مذهبه الحر الذي اعتنقه مبكراً، ليصبح مادحاً متملقاً

Ibid., p. 209.

Barnes, A Hist. of Historical Writing., P. 211.

Thompson & Ehrman, A Hist. of Historical Writing., Vol. II, PP. 214-216. (٣)

ذليلاً لأسرة هوهنزولون، ولذلك جاء كتابه «تاريخ السياسة البروسية، مشوباً بتحيز تام لصالح ما أسماه الرسالة التي جاءت هذه الأسرة لتحقيقها»^(١).

وكان من معاصري رانكه في ألمانيا في القرن التاسع عشر المؤرخ الألماني القدير تريتشكه، الذي كان يتناول التاريخ من وجهة نظر تخالف تماماً وجهة نظر رانكه، فقد كان شديد التعصب للزعة الألمانية، وكان يكتب التاريخ من وجهة النظر الألمانية، ويعلم ذلك ولا يخفيه بل يدعو إليه، ويحمل على مخالفيه، ويتهمهم بضعف الشعور القومي. وعلى الرغم مما اشتهر به تريتشكه من التعصب والتحامل، فإن كتابه الشهير «تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر، يعد من الكتب المأثورة، إحدى التحف الأدبية الرائعة في الكتابة التاريخية الحديثة»^(٢). والواقع أن تأثير تريتشكه على الكتابة التاريخية الألمانية لم يكن كبيراً، ولكن تأثيره على الرأي العام كان بالغاً، حتى أنه اعتبر في خارج ألمانيا المتحدث الرسمي باسم الرايخ، وأحد أعظم الذين يمجدون الحرب ويدعون إليها، ووجدت أفكاره ترحيباً شديداً في ألمانيا، فقد نادى بأنه ينبغي على الألمان أن يسيطروا على أوربا. وفي ذلك يقول: «إن عصرنا هو عصر الحرب والقوة والحديد، ولا شك أن قانون الحياة يقوم على تحكم القوى في الضعيف». ولذلك فإنه ما أن انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى ظهر في لندن أكثر من اثنتي عشرة كتاباً عدائياً ضد تريتشكه^(٣). ومن الجدير بالذكر أن تريتشكه أعلن رأيه في التاريخ وهو في الثلاثين من عمره، وضمنه رسالة بعث بها إلى والده يقول فيها: «لا أطمع في أن أشتهر بين خصومي ممن يلتزمون الحياد في كتابة التاريخ، فإن هذا من المستحيل،

Barnes. Op. Cit., P. 210.

Thompson & Ehrman, Op. Cit., Vol. II, PP. 222-223.

Ibid., PP. 223-224.

(١)

(٢)

(٣)

والمؤرخ فى الأوقات غير المستقرة لا يسمى محايداً إلا بعد أن يموت،
والموضوعية الهزيلة السقيمة التى لاتعان الجانب الذى ينحاز إليه المؤرخ
نقيض المعنى الصادق المستفاد من التاريخ، وكل المؤرخين العظماء قد
كشفوا لنا بصراحة عن اتجاههم، فإن ثيوكديدس أثينى الاتجاه،
وتاكيتوس أرسقراطى النزعة، وعلى المؤرخ أن يعرض مادته بالغة
أقصى ما يستطيع الكمال، ولكن المؤلف مثل القارىء له الحرية فى
إصدار الأحكام، وقد فعلت ذلك وقيمت به، على قدر ما تسمح به
معرفتى، (١).

وعلى أية حال، أصبح التاريخ القومى فى ألمانيا مع ظهور المدرسة
البروسية، أكثر تعصباً وأكثر تمجيداً للأسر الحاكمة، حتى إن رانكه الذى
كان يسيطر على عواطفه، لم يستطع أن يقل من إعجابه ببروسيا وبأسرة
هوهنزلون، ولذلك جاءت أعماله العديدة عن التاريخ البروسى أقرب من
كتابات الأخرى لتكون تاريخياً قومياً (٢).

ونلاحظ فى بريطانيا أيضاً التركيز على الافتخار بالقومية فيما كتبه
أكثر المؤرخين الإنجليز تعصباً للقومية وهو جيمس أنطونى فرود (١٨١٨-
١٨٩٤) Froude الذى وصف أمجاد الثورات الإنجليزية منذ عصر
الإمبراطورية الرومانية. ويأتى بعد ذلك المؤرخون المدافعون عن حزب
الأحرار مثل جيمس ماكنتوش وهولام Hallam، وتوماس بابنجتون
ماكولى (١٨٥٩ - ١٨٠٠) Macaulay، وهم الذين مجدوا ثورة ١٦٨٨ -
١٦٨٩، ويعتبر كتاب «تاريخ إنجلترا» الذى كتبه ماكولى النظير الإنجليزى
للأعمال التاريخية التى كتبها تريتشكه وميشليه. ويعد ما كتبه المؤرخون

(١) على أدهم: «التاريخ بين الذات والموضوعية»، ص ١١٧.

(٢) Bames, A Hist. of Historical Writing., P. 210.

الإنجليز أروع ما أسهموا به في الكتابة التاريخية، وبالغ القيمة، على الرغم مما يشوبه من تحيز^(١).

التوافق بين الموضوعية والذاتية في كتابة التاريخ:

المناقشات التي دارت حول ما إذا كان ينبغي أن يكون التاريخ موضوعياً أو ذاتياً جرى التعرض لها كثيراً - كما رأينا - دون أن تحرز تقدماً ملحوظاً. فالحقيقة أن كلمتي الموضوعية والذاتية قيذان - Straightjackets لا يشعر المؤرخون بالراحة في أي منهما. فلو أننا نقصد بالتاريخ الموضوعي البحت أنه تاريخ مجرد منزه عن المحاباة لآتلونه المشاعر الشخصية أو الآراء الخاصة، فإن مثل هذا النوع من التاريخ لا يمكن الحصول عليه حتى لو استخدمنا جهاز الكمبيوتر الذي يحتفظ بالمعلومات لنستدعيها عندما نشاء في الوقت الذي نشاء، ذلك لأن عمل المؤرخ لا يخرج عن كونه اختيار للأحداث التي يريد أن يتحدث معها، وهذا الاختيار لا يمكن تكوينه إلا في ضوء ما يراه المؤرخ هاما^(٢).

والواقع أن مهمة المؤرخ في غاية الصعوبة، ذلك لأن الوقائع التاريخية ليست كالوقائع الفيزيائية، فالأخيرة حاضرة باستمرار يمكن إجراء التجارب عليها أبدأ، وفي درجة واحدة، ويمكن أن نعزل بعضها عن بعض، أما الوقائع التاريخية فتمتاز بعدة خواص أهمها أن الوثيقة التاريخية، وهي الشيء الوحيد الباقي من الواقعة التاريخية والأساس الوحيد الذي يقوم عليه التاريخ تأتي دائماً مختلطة بكثير من الوقائع. وفضلاً عن هذا فإن الواقعة التاريخية محددة بزمان ومكان معينين، وإلا لم تكن لها قيمة تاريخية حقيقية، بينما الواقعة العلمية ليست محددة.

Ibid., P. 219.

(١)

Canon, The Historian at Work., P. 7.

(٢)

بزمان ومكان^(١). وبعبارة أخرى، يفترض الحياد أن يترك الباحث تفضيلاته الذاتية على الموضوع الذي يدرسه، وهذا النوع من الحياد يمكن تطبيقه في مجال العلوم التجريدية، حيث لا يمكن أن تنشأ عاطفة بين الباحث وموضوع بحثه، الذي يكون حول مفردات الجماد أو النبات أو الحيوان. أما في دراسة التاريخ، فهذا الحياد الصارم بين الذات والموضوع يصعب اتخاذه، لأن الباحث وهو ذات بشرية يعالج تجربة بشرية في فترة ما، وبالتالي فمن الصعب التوصل إلى هذا القدر من الحياد بين طرفين ينتميان إلى أصل واحد^(٢).

وفي المقام الأول، استطاع علم النفس الحديث أن يحطم مزاعم وإدعاءات أولئك الذين يتمسكون بموضوعية تامة في كتابة التاريخ. فقد أوضح هذا العلم أنه ليس بالمستطاع قيام عمل فكري دون اهتمام حقيقي واقتناع أكيد به، والرأي القائل أن الفكر الإنساني يمكنه أن يؤدي وظيفته في حيوية بدون عواطف وهدف، أمر يناقض تماما معظم المبادئ الأساسية في علم النفس^(٣).

ويعتقد المؤرخ الألماني الكبير تيودور مومسن^(٤) (١٨١٧ - ١٩٠٣)

(١) عبدالرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، قضايا المنهج والإشكالات (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٢٠٤.

(٣) Barnes, A Hist. of Historical Writing., P. 266.

(٤) تمثل حياة وإنجازات تيودور مومسن أفضل روائع الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر، ويعتبر أعظم باحث في عصره، وأعظم المؤرخين إنتاجا، فقد نشر ١٥١٣ بحثاً مختلفة في حقول متعددة: التاريخ، ودراسة النقوش، والعملات، والقوانين الدستورية والمدنية، والآثار والآلاف الصفحات التي كتبها أنجزها بنفسه دون مساعدة سكرتير أو كاتب اختزال، ولا عجب أن ذكر أحد الباحثين المعاصرين أن ما قام به يستغرق كتابته باليد ٤٠٠ سنة. وقال باحث بريطاني أن إنجازات مومسن أعظم عمل قام به باحث من ناحية الكم والكيف في القرن التاسع عشر. وقد ولد مومسن في ولاية شلزويج - هولشتاين التي كانت ألمانية في لغتها وثقافتها، وظلت تحت السيطرة الدنماركية الإسمية حتى سنة

Mommsen، أنه لا يستطيع أبدا فهم تيار الأحداث التاريخية إلا إذا ألقى بنفسه في غمرة هذه الأحداث، وجعلها تحمله في طريقها. فلم يكن بالمشاهد الهادئ، بل كان مشاركا في الدراما الكبرى لتاريخ العالم. وبهذه الوسيلة استطاع القيام بدوره بحيوية جمّة، حتى كاد الماضي في يديه ألا يصبح ماضيا، فقد أزيلت الفوارق بين العصور، فنحن نقف في منتصف التاريخ الروماني، وكأنه تاريخنا المعاصر، ونحن نتتبعه متأثرين بطريقة أو أخرى بنفس الاهتمام^(١). وقد أثر كتاب مومسن «التاريخ الروماني، تأثيراً ساحراً في كل إنسان في فترة من فترات حياته، ولم تكن لدى مومسن أية رغبة في التوجيه المباشر، مثل كثير من المؤرخين السياسيين، كما لم تكن لديه أية ميول تعصبية، كما هو الحال عند المؤرخ تريتشكه، إلا أنه لم يخف ميوله ونفوره. ولقد كان مومسن موضوعياً في كتاباته التاريخية وفي نفس الوقت نبذ كل محاولة لمحو ذاته لجعل الوقائع تتحدث عن نفسها. وقد جعل لسلطته الموضوعية التاريخية معنى آخر بأن غير مفهومها، فالشخصية التاريخية لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق الشخصية، ويستحيل هذا بغير تعاطف وثيق، وبلا حب أو كره^(٢). وفي هذا يقول: «إن الذين خبروا أحداثاً تاريخية كما خبرت، لا بد لهم من أن يروا أن التاريخ لا يكتب ولا يصنع بدون حب أو كراهية^(٣). على أن مومسن تراجع عن هذا الأسلوب الشخصي في

- ١٨٦٦، وهو ابن قس فقير، وظهرت موهبته عندما كان يدرس القانون في جامعة كيل، وبعد أن تخرج منها في سنة ١٨٤٤، حصل على منحة من الحكومة الدنماركية للسفر إلى إيطاليا، حيث بقى فيها ثلاث سنوات يجمع ويدير النقوش اللاتينية، وهو عمل استغرق معظم حياته. انظر:

Gay (Peter), *Historians at Writing*, Vol. III., PP. 271-272; Thompson, *A Hist. of Historical Writing*, PP. 502-503; Stern, *The Varieties of History*, P. 191.

(١) كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ص ٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) Teggart, *Theory and processes of History*, p. 38.

مؤلفاته الأخيرة، وخاصة بعد أن تقدم في العمر. ففي هذه المؤلفات أصبح أكثر مثابرة على البحث عمائم في التاريخ بدلا من إضاعة وقته في معرفة نيات الأفراد ورغباتهم وأفعالهم، وأولى اهتماما أكبر بالنظم المالية ورسائل الحكومة والمخطوطات أكثر من اهتمامه بوصف الأحداث الجزئية والشخصيات. وفي هذه المسألة لم يضع أحد معياراً أشد صرامة للموضوعية من المعيار الذي وضعه مومسن. وقد يتسنى له بفضل العنصرين اللذين اشتراكا في تكوينه، وهما العنصر الواقعي والعنصر الشخصي اللذان يمثلان الاهتمام الموضوعي والذاتي، واللذان يتكاملان على الدوام في نوع من الاتزان المثالي، أن يحقق الكمال في صورته الحديثة عن التاريخ القديم^(١).

وبعد، فقد رأينا فيما سبق أن رائكه وأتباع مدرسته ركزوا في كتاباتهم التاريخية على الموضوعية الصارمة، ونظروا إلى الماضي على اعتبار أنه شيء مستقل عن نزعات الإنسان ومشاعره وميوله وآماله الحاضرة، ونادوا بنقد الوثائق من حيث شكلها وباطنها، وإعادة بناء الماضي كما لو كان بالضبط من خلالها. وليس من شك في أن تشرب المؤرخ بروح النقد يقيه شر الوقوع في الأخطاء، ويصونه من مغبة الانزلاق نحو الأوهام. أما تربيتشكه ومن نهج نهجه فقد رأوا استحالة الوصول إلى الموضوعية البحتة في كتابة التاريخ، من منطلق أنه لا يمكن فصل الإنسان عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه، وأن الجري وراء الحياد التام في الكتابة التاريخية لا ينتج تاريخا على الإطلاق. فالتاريخ ليس له تفسير واحد، وعلى المؤرخ أن يحيا الماضي بكل ما كان عليه، ويستعيد الوقائع التاريخية، كأنه عاينها بنفسه، ولهذا سيظل التاريخ بالضرورة

(١) كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ص ٦٦ - ٦٧.

ذاتيا. ومن ناحية أخرى، وقف بعض المؤرخين موقفا وسطا من الموضوعية والذاتية، فجمعوا بينهما في نوع من التوافق والاتساق والاتزان، ونظروا إلى الحقائق التاريخية نظرة أمينة وصادقة ونزيهة.

والخلاصة أن الموضوعية والذاتية في التاريخ مفهومان مرتبطان ببعضهما بعضا، وإذا وازنا بين النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية في كتابة التاريخ، نجد أن النزعة الموضوعية رغم ما في طريقها من الصعاب أقرب ما تكون إلى المنهج العلمي، وبدونها لا يكون للبحث قيمته المتعارف عليها. فالكتابة التي تغلب النزعة القومية والميل إلى التعصب والمحاباة ورواسب العادات والتقاليد، تسمم الجو الدولي، وتقيم العقبات في سبيل التفاهم بين الدول، وتسهم في إشعال العداوة بين الأمم. وإذا كانت النزعة الموضوعية المطلقة حلما صعب المآل، والنزعة الذاتية الهادفة مطلب مرغوب فيه، فلا أقل أن يجمع المؤرخ بينهما. ولعل أهم صفة تطلب من المؤرخ هي صفة الاتزان، فلا تطفئ كفة العاطفة عنده على كفة الموضوعية، ولا يعيش الماضي فحسب، بل يعيش الحاضر أيضا، بعيداً عن الأحقاد والكراهية.

الفصل التاسع

إعادة كتابة التاريخ

سبق أن أشرنا إلى أن مفهوم التاريخ قد تغير كثيراً في العصر الحديث، فلم يعد قاصراً على سرد أحداث الأسر الحاكمة والحروب والمعارك التي دارت بين الدول والأمم، بل امتد إلى كافة جوانب الحضارة الاجتماعية والاقتصادية والفنية. ولهذا أصبح من الصعب على مؤرخ بمفرده الإلمام التام بكل الأعمال التاريخية لدولة ما ولو عن فترة محدودة. ويؤكد ذلك المؤرخ الألماني القدير ثيودور مومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣) الحائز على جائزة نوبل في الآداب في سنة ١٩٠٢، إذ يرى أن كاتباً واحداً بمفرده لن يستطيع الاضطلاع بأعباء البحث التاريخي، ولذا فمن الضروري تنظيم العمل بين المهويين، ثم يأتي بعد ذلك دور المؤرخ الحق بطابعه الفردي وعبقريته^(١).

وفي وقتنا الحاضر دار الجدل حول إعادة كتابة التاريخ، وظهرت وجهات نظر متعددة متباينة تدعو إلى ذلك. فالبعض يدعو إلى ذلك من منطلق أن أحداث التاريخ تتجدد رؤيتنا لها، ومن ثم فعلينا تقييم هذه الأحداث في ضوء تطور المناهج التاريخية والوعي التاريخي. كما أن اكتشاف وثائق جديدة هامة تتعلق بأية دولة من الدول أو أية شخصية من الشخصيات المرموقة، يحتم على المؤرخين إعادة كتابة تاريخ تلك الدولة أو الشخصية على ضوء تلك الوثائق. كذلك تتضح ضرورة إعادة كتابة التاريخ إذا كان ما كتب منه في موضوع ما قليل وتنقصه الموضوعية، أو أن ما كتب منه كان على سبيل الدعاية والترويج لفكرة معينة. ومما يدعو أيضاً إلى إعادة كتابة التاريخ وجود فترة غير واضحة المعالم، ينبغي علينا أن نعيد لها حقها بإيجاد المادة التاريخية والوثائق المتعلقة بها.

ومن المعروف أن الأساس الذي ينبغي على المؤرخ أن يستخدمه هو

(١) كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ص ٨٩.

بالطبع مبادئ المعرفة التي يقدمها له عصره . ولهذا السبب يرى المفكر الألماني جوته Goethe ضرورة إعادة كتابه التاريخ من وقت لآخر، إذ ليس من المبالغة أن كثيراً من الحقائق الجديدة سوف يتم اكتشافها، والأهم من ذلك أن كل جيل يحكم على الماضي بطريقة جديدة مسايرة للتطور الفكري والحضاري، ويلاحظه من زوايا مختلفة(١) .

أما التاريخ الذي تعرض في عصر من عصوره للتزوير والتزييف عن قصد أو نتيجة لسوء فهم، فهو في حاجة إلى التصدي له وتصحيحه بإعادة كتابته - أو التفكير فيه - بنظرة موضوعية وأصالة وصدق . فعلى سبيل المثال تلك الرواية التاريخية التي تحمل اسم «هبة قنسطنطين، Do- nation of Constantine . وتتلخص في أن بعض المتحمسين للبابوية في الغرب الأوربي ذكروا أن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) كان قد ابتلى بداء عضال هو مرض الجذام لم يشف منه إلا بصلوات وبركات البابا سلفستر الأول (٣١٤ - ٣٣٥) ، فكافأه قنسطنطين بإصدار قانون يبيح للبابا بارتداء التاج واستعمال الصولجان تماماً كالأباطرة . ولكي لا تتأثر سلطة البابا بوجود شخص الإمبراطور في روما، فقد تركها قنسطنطين للبابوات، وابتنى لنفسه عاصمة جديدة هي القنسطنطينية، ثم عهد للبابوات بحكم روما وإيطاليا كلها . وقد ثبت اختلاق هذه الرواية منذ أواخر القرون الوسطى، حيث قام بتفنيدها تفصيلاً علمياً المؤرخ الناقد الإيطالي لورنزو فاللا (١٤٠٦ - ١٤٥٧) سنة ١٤٤٠(٢) . فقد هاجم المؤرخ

(١) Salvemini (Gaetano), Historian and Scientist (U.S.A., 1939), P. 72; Smel-
lie, Why we read History., P. 76; Teggart, Theory and processes of Histo-
ry., P. 15.

(٢) بارنزا: تاريخ الكتابة التاريخية، ج ١، ١٥٢١، جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور
الوسطى الأوربية وحضارتها (القاهرة ٧٤-١٩٨)، ص ١٩١ - ١٩٢؛ حسين مؤنس:
التاريخ والمؤرخون، ص ٦٨ - ٦٩ .

بعنف شديد هذه الوثيقة وطعن في صحتها، وذكر أنه ليس من المعقول أن قسطنطين كان أحقما لدرجة أن يسلب نفسه من سلطة الهيمنة على روما، ويتركها للبابوية، وقد اكتشف لورنزو تزوير هذه الوثيقة بفضل درايته بالنحو اللاتيني وأسلوب الكتابة، حيث أثبت أن كتابتها ترجع إلى القرن الثامن الميلادي^(١). وأحيانا أخرى تزيف الوثائق من أجل بيعها، فقد ظهرت رسائل مزورة لملكة فرنسا ماري أنطوانيت مرارا وتكرارا لهذه الغاية. كما زور بائع تواقيع (أوتوجرافات) من فيلادلفيا في الولايات المتحدة الأمريكية إسمه روبرت سبرنج ذات يوم مئات من التزويرات الماهرة، خادعاً بذلك هواة جمع تلك التواقيع، ومن الأمثلة الحديثة المشهورة على التزوير مراسلة إبراهيم لنكولن وأن روتلج التي انطلت على مجلة أتلانتيك الشهرية، في سنة ١٩٢٨^(٢).

ومما يجدر ذكره أن المعاهدات الدولية التي تنشر في الصحافة، من الممكن أن يلحق بها بنود سرية لاتأتى هذه البنود على صفحات الجرائد، في حين أن معرفة تلك البنود من الناحية العملية المغزى الحقيقي لهذه المعاهدات. فضلا عن هذا، فإن مجموعات الوثائق الدبلوماسية التي تخرجها المكاتب الخارجية Foreign Offices من حين إلى آخر لتبرير أنشطتها والوقوف عليها هي بوجه عام تعتبر تزويراً ماهراً على وجه التقريب^(٣).

ولعله لنا من تاريخنا خير مثال على تزيف التاريخ، فقد لجأ الخلفاء العباسيون إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين. وفي ذلك أمر الخليفة

(١) Hay (Denys), *Annalists and Historians*. (London, 1977), PP. 92-93;
Tholfsen, *Historical Thinking*, PP. 078-79.

(٢) جوتشاك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٤٠.

(٣) Salvemini, *Historian and Scientist*., PP. 39-40.

العباسي القادر بالله في ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ (نوفمبر ١٠١١ م) بكتابة محضّر يتناول الطعن في نسب الفاطميين ويطلان إمامتهم، على أن يقرأ في بغداد وينشر في الأمصار، وقد جاء فيه: «وهم (الفاطميون) منسوبون إلى ديسان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين، ونطف الشياطين.. أدعياء خوارج لانسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وأن ذلك باطل وزور... وأن هذا الناجم بمصر (الحاكم بأمر الله الفاطمي) وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة.. عطلوا الحدود وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية،^(١).

وكثير من تاريخنا كتبه المستشرقون، الذي بالرغم من إتقانهم أدوات البحث العلمي وفن صناعة التاريخ، إلا أنهم استهدفوا خدمة أغراض التبشير والاستعمار، ولم يكن رائدهم في كتابة التاريخ الحقيقة الموضوعية المجردة إلا قليلاً^(٢). ويؤكد ذلك ما كتبه الأب لامانس وجولد تسهير وكايتاني وغيرهم، التي تطفح كتاباتهم بالنظرة الاستعمارية والاستعمارية التي استهدفت السيطرة على الوطن العربي، وعلى هذا فإنها لم تتعامل مع التاريخ العربي على أنه تاريخ أمة أو شعب واحد، بل تعمدت أن تظهره بأنه فسيفساء لتاريخ فئات أو أحزاب أو قبائل أو طبقات أو أقلية أو أعراق، كما أنهم تناولوه - مرات كثيرة - بقسوة وكالوا له كثيراً من التهم، وأسقطوا عليه كثيراً من الأحكام والتفسيرات الخارجة عنه وعن روحه، والتي لا يستحقها^(٣).

وتعد الدولة العثمانية نموذجاً يستدل به في تأييد الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، فقد مرت تلك الدولة بمرحلتى العظمة والأفوال،

(١) محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) سمير عبده: صناعة تزييف التاريخ (دمشق ١٩٨٩)، ص ٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠ - ٢١.

والصعود والسقوط، وقد غطى عصرها الذهبي فترة من الزمان، من منتصف القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن السادس عشر، بدأ بعدها الانحسار ثم السقوط. وقد قام العثمانيون بفتح مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في عام ١٤٥٣ م، وأطلقوا عليها اسم إسلامبول، ومنها انطلقوا يرفعون راية الإسلام في قلب أوربا. ولهذا السبب حقد الأوربيون على العثمانيين، ووصفوا محمد الثاني فاتح القسطنطينية بأنه السلطان الجاهل المتبرير المستغرق في ملذاته مع جواريه، ونسبوا إلى تاريخ الدولة العثمانية كثيراً من التهم الباطلة الزائفة.

وهنا يجدر القول أن أغلب المؤرخين المسلمين لم يكونوا من المؤرخين الرسميين الذين تكلفهم الدولة بكتابة التاريخ، وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلى المجتمع الإسلامي برمته، ولا يعيشون في كنف الأمراء، ولا يعتمدون على معونة الدولة، ولم تخل كتاباتهم بطبيعة الحال من التأثير ببيئتهم ونزعتهم المذهبية وعقيدتهم السياسية، ولكن حظهم من النزاهة كان موفوراً إلى حد كبير، فهم لم يكتبوا التاريخ في الأغلب إرضاء للخلفاء والأمراء والحكام، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلى البحث التاريخي وخدمة الإسلام بوجه عام (١).

ومن الصور النادرة التي نراها بين المؤرخين المسلمين والتي تدل على خوف المؤرخ من الحكام وأصحاب النفوذ والسلطان ومجاملته لهم ما فعله أبو إسحق الصابي الكاتب والأديب المشهور، وقد كلفه عضد الدولة بن بويه (٣٣٨ - ٣٧٢ هـ) أن يؤلف له كتاباً يجمع فيه أخبار دولة بني بويه، فنصب الصابي همهته لكتابة تاريخ لهذه الدولة جعل عنوانه

(١) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٦.

(٢) محمد عبدالغني حسن: علم التاريخ عند العرب، ص ٤٣-٤٤ ك مرجوليوت: دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة د. حسين نصار، ص ٢٥ - ٢٦.

«التاجي»، . وقد اتفق أنه وهو منشغل بتأليفه أن دخل عليه أحد أصحابه، فسأله عن ذلك العمل الذي يشغل به نفسه، فأجاب: «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألقها، ولاشك أن ما حمل الصابي على كتابة ما أسماء أباطيل وأكاذيب إلا محاولة لعضد الدولة ومجاملة أسرته التي كانت هي صاحبة النفوذ الفعلي في بغداد في ظل الخلافة العباسية(١)» .

وعلى هذا، فإن كثيراً من المؤرخين يرون أن إعادة كتابة التاريخ أمر ضروري، ولكن ينبغي ألا يقوم بهذه المهمة فرد واحد، لأن العصر الذي نعيشه هو عصر التخصص الدقيق، ويتعذر على أي باحث أيا كان إمامه بأطراف المعرفة الشاملة. فكتابة التاريخ من جديد تحتاج إلى هيئة علمية متخصصة تضم المؤرخ والجغرافي والعسكري والاقتصادي وغيرهم، وفقاً للموضوع التاريخي المطروح للبحث. فإذا كان الموضوع عسكرياً، يستلزم الأمر الاستعانة بالمؤرخ العسكري الذي يمكنه أن يصف تفاصيل المعارك وخططها واستراتيجيتها خيراً من المؤرخ الذي يفتقر إلى العلوم العسكرية. وإذا كان الموضوع المطروح عن التاريخ الاقتصادي ينبغي الاستعانة بالمتخصص في علمي الاقتصاد والإحصاء. كذلك إذا تطلب الأمر تناول تاريخ الجمال، فلا بد أن يضيف المؤرخ إلى حصيلة معارفه الإلمام بالفنون الجميلة. وبذلك يغلب على كتابة التاريخ روح العمل الجماعي الذي لا يميل إلى الأهواء في أحكامه، وأقرب ما يكون إلى الموضوعية.

وتأكيداً لذلك يذكر بارنز في كتابه «تاريخ الكتابة التاريخية»(٢) إن كل ما ننشده من المؤرخ هو ألا يركز اهتمامه على الموضوعات السياسية

(١) محمد عبدالغنى حسن: علم التاريخ عند العرب، ص ٤٣ - ٤٤ ك مرغوليث: دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة د. حسين نصار، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) Barnes, Hist. of the Historical Writing., P. 295.

المألوفة، ولكن الأفضل له أن يعترف بضرورة وصف التطور في كل جانب من جوانب الحياة والثقافة في المجتمع. ومن الواضح أنه مع اتساع حقل التاريخ بهذه الطريقة، فإن إنجاز تاريخ شامل حتى لو كان لدولة واحدة، مسألة تتطلب تعاون عدد كبير من الخبراء المتحمسين. ولاستطيع فرد واحد أن يأمل أنه قادر على الإلمام بكل جوانب التاريخ لمجتمع ما ولو عن فترة قصيرة. وهكذا يتضح أن الأعمال التاريخية العظيمة في حاجة في المستقبل إلى جهود تعاونية مشتركة.

وفي مكان آخر يذكر بارنز أن أهم إسهام في توسيع مجال التاريخ يتمثل في الإلمام بالثقافة في أوسع معناها، مثل تاريخ الفن، والأدب، والسلوك والعادات، والطباعة، والموسيقى، وغيرها من الأساليب الأخرى المعبرة عن الثقافة القومية. ونتيجة لذلك أصبح من الواضح أن كتابة التاريخ في المستقبل ينبغي أن تقوم على التعاون المشترك، بحيث يسهم كتاب التاريخ بما يتفق واهتماماتهم وتدريبهم الخاص، وبذلك لا يمكن التقليل من شأن أي عمل جماعي طالما أن إنتاجه يتصف بالدقة ويمكن الاعتماد عليه^(١).

ولا بد قبل أن يشرع الفريق الجماعي من المؤرخين في التصدي لموضوع ما، أن توفر الدولة نشر المستندات والأصول التاريخية والمعلومات الكاملة المتعلقة بهذا الموضوع نشرًا علمياً صحيحاً، لكي يسير عمل الفريق الجماعي أيضاً سيراً علمياً منتظماً، أسوة بما فعلته أوروبا من نشر مجموعات ضخمة من الوثائق التاريخية التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم. فالتاريخ - كما يقول المؤرخان الفرنسيان لانجلوا وسينويس - بلا وثائق صحيحة لا يفرز تاريخاً حقيقياً بعيداً ما أمكنه عن الاحتمالات

Ibid., P. 308.

(١)

والاجتهادات الشخصية، وحيث لا وثائق، فلا تاريخ، No Documents,
.No History

وقد تعمد الدولة إلى تشكيل لجنة من المؤرخين تنحصر مهمتها في كتابة التاريخ أو التصدي لمسألة تاريخية محددة تحتاج إلى إلقاء الضوء عليها، كما حدث في مصر في أواخر عام ١٩٧٥ م عندما أصدر رئيس الجمهورية وقتذاك قراراً جمهورياً بتشكيل لجنة لكتابة تاريخ ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م، وتشكلت اللجنة العامة لتسجيل تاريخ الثورة برئاسة رئيس الجمهورية آنذاك، يساعده الأمين العام للاتحاد الاشتراكي وقتئذ، وضمت اللجنة إلى عضويتها عدداً من أساتذة التاريخ في الجامعات المصرية وبعض السياسيين والعسكريين. والواقع أن الترويج لكتابة التاريخ على هذا النحو ربما لا يكون أمراً سهلاً التطبيق، لأن كل مؤرخ يختلف عن الآخر في طريقة استخلاص الحقائق بحسب اختلاف قدرات المؤرخين في الفهم والتفسير والاستنتاج. وليس من السهل توفير عدد من المؤرخين تجمع بينهم ملكات متشابهة وفهماً عاماً وانسجاماً بينهم، لما تستلزمه طبيعة مثل هذا النوع من العمل. والمشكلة الواردة هنا أن ظل الدولة إذا سقط على مؤرخ - أو أكثر - في أية لجنة علمية أسندت إليها الدولة كتابة التاريخ أو إعادة كتابته، فليس ثمة ضمان موضوعي للحكم الذي يصدره هذا المؤرخ. فربما يجد المؤرخ نفسه في وضع يدفعه إلى البعد عن النزاهة في حكمه، وربما أيضاً تبعد الحكومة المؤرخ عن الإطلاع على ما لا تودهي أن تراه، فيكون المؤرخ في هذه الحالة مضطراً بحكم ظروفه إلى ألا يرى غير ما يرى، فتكون روايته مشوبة بالكثير من النقص، ولا حياة فيها.

والسؤال هنا، هل تقبل الدولة أو الحكومة نشر الحقائق التي انتهت إليها اللجنة على الرأي العام في سعة صدر ورحابة؟ الواقع أن الإجابة

على هذا السؤال تفتح باباً للشك. فعلى سبيل المثال، إذا أعادت اللجنة المكلفة بإعادة كتابة التاريخ النظر في مواقف بعض الشخصيات الوطنية التي طمست الدولة أعمالها وشوهت دورها في مرحلة ما، وردت اللجنة إليها اعتبارها وصورتها الحقيقية بعد أن فهمت الدوافع التي حركتها لاتخاذ موقف معين في تلك المرحلة، فواجب الدولة عندئذ ألا تتدخل فيما كتبه اللجنة عن هذه الشخصية أو تمسه بالحذف والإضافة. فمن الخير للدولة أن يحاط الناس علماً بالحقيقة التاريخية لأبطال الأمة والظروف التي أحاطت بهم، وإلا اهتزت صورة أولئك الأبطال أمام الناس، وحاول الواعون منهم معرفتها من مصدر آخر، لأن الحقيقة وإن طالت محاولة إخفائها لا يمكن أن تغيب عن الأجيال المتعاقبة. ولذا فليس من المستحسن أن تشكل لجان حكومية أو رسمية لكتابة تاريخ البلاد أو إعادة كتابة تاريخها في مرحلة معينة أو أن يكلف مؤرخ بعينه بهذا العمل على حساب الحد الأدنى من النزاهة والدقة العلمية، وإلا تزعزعت الثقة في الدولة وانقطع الإيمان بها، وفي ذلك خطر ما بعده خطر.

ومما يوضح لنا مدى خطورة أن تهيمن الدولة على كتابة التاريخ أو إعادة كتابته أن التاريخ لا يكتب مرة واحدة، ولكنه مادة يعاد كتابتها باستمرار على أوجه مختلفة. فالمؤرخ يدون الحدث وفقاً لما يعرفه من معلومات وتفاصيل تتصل بهذا الحدث، فإذا اتفق أن ظهرت معلومات جديدة يجب أن تضاف إلى ما كتبه أو تعدل أخطاء وقع فيها، احتاج الأمر إلى أن يعيد المؤرخ النظر فيما كتبه ويعرضه عرضاً جديداً بصورة أدق وأفضل.

ولعله صار من السهل أن ندرك مدى خطورة أن تهيمن الدولة على إعادة كتابة التاريخ، وكأنها بذلك تصدر أحكاماً على أحداث الماضي،

فتقول قد أخطأ هذا أو أصاب، وأسأء ذلك أو أحسن، وهذا بالطبع أمر غائب عن الموضوعية، ويعيد عن التفكير العلمي الحديث.

ويبغى ألا يغيب عن البال أن كل عصر يجب أن يكتب التاريخ من وجهة نظره، لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الآخر، وكل عصر يحاول أن يرى الماضي من خلال اهتمامه والأفكار السائدة فيه. ومن هنا قال كثيرون من المؤرخين إن التاريخ حوار بين الحاضر والماضي، وهذا في حد ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة في الدراسات التاريخية، فإن التاريخ بطبيعته كدراسة للإنسان وأعماله، تتأثر صورته التي يراها المؤرخ تأثراً واضحاً بالأحوال المادية والمعنوية في الوسط الذي كتبت فيه، وليس في هذا مأخذ على التاريخ^(١).

ومهما يكن من أمر، فإن ما قدمه لنا المؤرخون من قبل ليس ملكاً لنا نتناوله بالحذف أو بالإضافة، بل واجب الأمانة يحتم علينا أن نحافظ عليه مهما كانت درجة افتقاره إلى الدليل، وواجبنا أيضاً ألا نسلط عليه معاول الهدم. فالمؤرخ حر في أن يقول ما يشاء، وله مطلق التصرف في تفسير أحداث التاريخ حسب معتقداته ومذاهب تفكيره، وهنا يترك للقارئ مهمة التحقيق والتثبيت وترجيح رواية على أخرى. وبعبارة أخرى، فإن كتابة التاريخ أو إعادة كتابته عملية متجددة بطبيعتها، والرأي النهائي لتاريخ أي فترة لم يبت فيه نهائياً، وأن الكلمة الأخيرة في التصدي لكتابة تاريخ أي عصر أو حدث لم يتفق عليها بعد، ولا يمكن أن يتفق عليها في يوم ما. ومهمة القارئ الواعي الحصيف، هي الوقوف موقف الحكم بين المؤرخين وآرائهم، وتفضيل مؤرخ على آخر، وفقاً لما قدمه من رؤية موضوعية وأمانة علمية.

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٤٢ - ٤٣.

الفصل العاشر

كتابة البحث التاريخي

(أولاً) اختيار موضوع البحث

(ثانياً) وضع خطة البحث

(ثالثاً) جمع المادة العلمية

طريقة البطاقات

طريقة الدوسيه المقسم

(رابعاً) نقد المادة العلمية

١ - النقد الخارجي

٢ - النقد الباطني أو النقد الداخلي

(خامساً) كتابة البحث

مسودات البحث

الهوامش أو الحواشي

ملاحق البحث

(أولاً) اختيار موضوع البحث:

يختلف اختيار موضوع البحث من باحث لآخر تبعاً لاختلاف المستوى العلمي وحصيلة الثقافة، فالطالب المبتدئ في المرحلة الجامعية الأولى، يكون أقل وعياً عند اختياره لموضوع بحثه عن طالب الماجستير أو الدكتوراه. وهذا الأخير يختلف أيضاً عن الباحث المحترف الذي أصبحت كتابة التاريخ صناعته ومهنته بعد مجهود شاق من البحث والدراسة والتدقيق، وتنقسم مراحل البحث إلى ثلاثة: مرحلة الليسانس والدكتوراه، وبعد ذلك تبدأ مرحلة الاحتراف والإجادة^(١).

والطالب في المرحلة الجامعية الأولى يدرسه أساتذته على وسائل تحصيل المادة وجمعها، وهذه الوسائل هي التي تصبح أسلحته في المستقبل للعمل العلمي الأصيل المبتكر، ولهذا السبب لانطالبه بالكتابة التاريخية للوصول إلى نتائج علمية جديدة لم تكن معروفة من قبل، إنما نساعد في اختيار موضوعات من تلك التي سبقت دراستها بهدف تربيته وتدريبه على الاقتباس، معتمداً على المصادر والمراجع التي يرشده إليها أستاذه^(٢). وغالباً ما يكون الموضوع الذي يختاره الطالب في هذه المرحلة الأولى من كتابة البحوث، موضوعاً عاماً شاملاً، ثم يتدرج بعد ذلك - تحت إشراف أستاذه أيضاً - إلى اختيار الموضوعات المحددة التي تهتم بجانب واحد من جوانب الموضوع الشامل الذي كتب فيه أولاً. ويستطيع الأستاذ الجامعي أن يوجه طلابه في المرحلة الأولى إلى كتب بعينها من كتب التاريخ الهامة الجيدة التي تتناول موضوعاً بعينه من الموضوعات التاريخية، ويطلب منهم أن يلخصوا هذه الكتب بحيث

(١) عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ٥٨.

(٢) محمد عواد حسين: صناعة التاريخ، عالم الفكر، العدد الأول أبريل - مايو - يونيو ١٩٧٤، الكويت، ص ١٣٦.

تصبح في نصف حجمها ثم في ربعه ثم في صفحات محددة (١). وسيجد الطالب أنه قد أفاد فائدة طيبة، وتعلم القدرة على الاستيعاب والتركيز، فضلا عما يكسبه من المعلومات التاريخية، والحصيلة اللغوية والفكرية، والتدريب على الإيجاز.

وبعد أن يحصل الطالب على درجة جامعية، وينوي مواصلة دراسته للتاريخ، وهي التي تبدأ بما يسمى مرحلة السنة التمهيديّة، ففي هذه المرحلة يختار الطالب بإرشاد أستاذه بعض الموضوعات العامة المطروقة، وذلك للتمرين على الاقتباس، وكتابة ملخص عام عن تاريخ أى شخصية من شخصيات التاريخ في أى فترة من الفترات. ويعتمد الطالب في إعداد هذا الملخص على القليل من المراجع الأساسية التي يأخذها عن أستاذه، أو التي يستخرجها بنفسه من كتب المراجع، ثم يجمع ما حصل عليه من المعلومات، وعند الكتابة عليه أن يقارن ويمزج جزئيات موضوعة بعضها وبعض، ثم يعرض تاريخ الشخصية أو الموضوع الذي اختاره. فإذا كانت الشخصية - مثلا - نابليون بونابرت، فإن الطالب يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه، وتدرجه في المناصب، وحرابه في أوروبا ثم في الشرق ثم في أوروبا، وحكومته، ووقوف إنجلترا في سبيله، وتآلب أوروبا عليه، ثم سقوطه وحياته في المنفى (٢).

وبعد ذلك يتدرج الطالب فيختار جزءاً محدداً من الموضوع العام المشار إليه، مثل حملة نابليون على روسيا في سنة ١٨١٢م. فيبحث الظروف التي أدت إلى تلك الحملة، ويتتبع سيرها والمعارك التي حدثت، ووصول نابليون إلى موسكو، ثم ارتداده وما لحق به من الخسائر. وهو في هذا سيبحث موضوعاً أضيق من الموضوع السابق، ولكن بحثه سيكون بالضرورة أكثر عمقا. ثم يتدرج الطالب إلى بحث نقطة تاريخية

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٥٣ - ٥٤.

أكثر تحديداً، مثل معركة واترلو في سنة ١٨١٥م، وهو في هذه الحالة سيدرس الظروف التي أدت إلى هذه المعركة، ثم يدرس أرض المعركة وخططها، ويتتبع العمليات العسكرية، ويوضح كيف هزم نابليون، ويشرح ما ترتب على ذلك من النتائج. ولاشك أن بحث الطالب للموضوعين السابقين سيجعله أقدر على دراسة هذه الناحية الأخيرة أكثر تحديداً، وسيعلمه هذا التدريب التدريجي فائدة الإلمام بموضوع أوسع وانتقاله منه إلى نقط أكثر تحديداً^(١).

وبعد أن ينتهي الطالب من السنة التمهيدية ويختار موضوعاً للحصول على درجة الماجستير، أو إذا كان هناك طالب قد حصل على الدرجة الأخيرة ويرغب في أن يمضي قدماً في دراسة التاريخ للحصول على درجة الدكتوراه، فإن اختيار موضع البحث يبدو في صورة جديدة. ذلك أن الباحث في هذه الحالة عليه أن يختار موضوع البحث الذي يروق له، وعلى الأستاذ المشرف أن يتحقق من أنه يفعل ذلك.

وقبل الإقدام على تحديد الموضوع الذي يبتغيه الطالب سواء لدرجة الماجستير أو الدكتوراه عليه القراءة والمسح الشامل لتاريخ العصر أو المكان الذي يريد التخصص فيه، وهو أمر ضروري وأساسي للباحث، وينصح الطالب أن يقضى عاماً دراسياً على الأقل يغطي فيه معالم العصر أو المكان تغطية شاملة. وفي هذه المرحلة يبدأ الطالب بالرجوع إلى دوائر المعارف العالمية (الإنسيكلوبيديات) وكتب المراجع (الببليوجرافيا) Bil- bligraphy، وجميع المجالات العلمية المتخصصة، والمراجع الأساسية التي يتردد ذكرها خلال قراءاته^(٢).

(١) المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) سيد الناصري: كتابة التاريخ، ص ١٨٠ - ١٨١.

ويعد هذه المرحلة يكون الطالب قد وصل إلى الموضوع الذي ينوي بحثه، ويستحسن أن يختار أكثر من موضوع، على احتمال أن يكون إحداها قد درس أو أن المادة التاريخية لا تكفى لتغطية ذلك الموضوع، ويراعى أن يكون الموضوع جديد ومبتكر، واضح الملامح، ولم يسبق دراسته أو على الأقل سبق دراسته دراسة غير كاملة، أو ظهرت وثائق جديدة تغير من مفهوم الدراسات السابقة(١).

وهنا نلاحظ أنه إذا كانت المعلومات المتوفرة حول الموضوع الذي اختاره الطالب كثيرة جداً، بحيث لايسهل تداولها، فيمكن أن يختزل الموضوع من حيث اتساع دائرته، وذلك باختصار المنطقة الجغرافية التي يشملها البحث، وعدد الأشخاص، والفترة الزمنية أو مجال الحركة الداخلة ضمن نطاق الموضوع(٢). ويحدث في بعض الأحيان ألا يجد الطالب مادة كافية عن الموضوع الذي اختاره، أو يعرف أن هذا الموضوع قد درس من قبل على النحو الذي كان الطالب يزعم أن ينتهجه، أو يدرك صعوبة الحصول على بعض المراجع الأساسية في الموضوع، والواجب حينئذ أن يبادر إلى تغيير هذا الموضوع حتى لا يضيع الوقت فيما لا طائل تحته(٣). وليس من الضروري بالنسبة للطالب أن يحدد عنوان موضوعه منذ بداية العمل، وحسبه أن يحدد العصر أو النواحي التي تصلح للبحث في نطاق محدد، أما التحديد النهائي للعنوان فلا يتم غالباً إلا بعد أن يقطع الباحث شوطاً طويلاً في القراءة والإطلاع، ولعله من المفيد أن يحدد لنفسه المدة الزمنية التي يستطيع أن ينجز فيها عمله، علماً بأنه محتاج إلى بعض الوقت لتقصي أحوال العصر الذي ينوي دراسة جزء منه(٤).

(١) المرجع السابق، ص ١٨١.

(٢) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٣٢.

(٤) محمد عواد حسين: صناعة التاريخ، ص ١٣٩.

ولاريب أنه من الخطأ الواضح أن يختار الطالب موضوع تكون مصادره مكتوبة بلغة لا يعرفها ولا يتوقع أن يتعلمها، خاصة إذا كانت في الموضوع مصطلحات علمية فنية (كالطب أو اللاهوت أو الإحصاء) لا تكون في نية الطالب أن يتعلمها أو يستحيل عليه فهمها. ومثل ذلك يقال عن الموضوع الذي يستحيل الوصول إلى مصادره، كأن تكون المصادر نادرة باهظة التكاليف، أو أن تكون المصادر ملكاً لأفراد يحرصون على أن لا يطلعوا أحداً عليها، أو أن يكون ضمن الوثائق المحظور الاطلاع عليها في المحفوظات الحكومية، مما ينجم عنه في كل هذه الحالات توقع الإخفاق، وبالتالي لابد من تجنبه (١).

وينبغي ألا يقل الزمن الذي يفصل الطالب عن موضوعه عن خمسين عاماً، بفضل إعطائه فرصة البعد عن الوقوع تحت أي تأثيرات شخصية، بحيث يكتب كتابة المحايد المتحرر الذي لا يخشى الوقوع في مضرة أو الانسياق وراء منفعة شخصية عاجلة أو انحرافاً وراء تيار عام، حتى يخرج بحثه أقرب ما يكون إلى الحقيقة والصدق، وفضلاً عن ذلك فإن انقضاء فترة نصف قرن على وقوع الأحداث يكفي بلورتها والخروج بها من حالة القوران والغليان التي تواكب وقوع الحدث وتستمر بعده فترة غير قصيرة (٢). والمعروف أن الدول لا تنشر وثائقها المتصلة بسياساتها المختلفة إلا بعد انقضاء خمسين عاماً عليها، وفيما قبل ذلك فإنها تعتبر سراً لا يجدر نشره أو الإطلاع عليه، وإن كانت بعض الدول تكتفي الآن بمرور ثلاثين سنة على هذه الوثائق (٣).

وربما يريد طالب البحث الجديد أن يكتشف ما إذا كان الحقل الذي

(١) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ٨٢-٨٣.

(٢) محمد عواد حسين: صناعة التاريخ، ص ١٤٠.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

يريد أن يبحثه قد تعرض تعرضاً تاماً للبحث من قبل، بحيث أن فرص الإتيان بجديد فيه أو الفرص المغايرة لما جاء به الآخرون تكون محدودة للغاية. ولاشك أن نصيحة خبير في مثل هذه الحالة لهي نعم العون، ويمكن في العادة أن تقدم إما بالاتصال الشخصي وإما بالمراسلة. وأحياناً تقترح الكتب مشكلات تاريخية تحتاج إلى مزيد من توضيح. ثم هناك المصادر المرتبة في مجلدات والتي تلخص الأبحاث التي تمت في فترات معينة محددة، وأحياناً يشير نقد الكتب الجديدة، والمقالات التي تنشر في المجالات العلمية التاريخية عن المصادر، إلى مشكلات تحتاج إلى مزيد من التحري^(١).

ولا يجوز للباحث الذي يريد أن يكتب بحثاً تاريخياً أن يتخذ على سبيل المثال تاريخ الدولة الأيوبية بأكمله موضوعاً للبحث، لأنه موضوع طويل. فالأيوبيون حكموا دولتهم من سنة ١١٩٦ إلى سنة ١٢٥٠م، ودراسة هذه الفترة دراسة عميقة لا يمكن أن تتم في سنوات قليلة. أما إذا خصص الباحث وقته وجهده في نفس الفترة المحددة من الزمن، لبحث ناحية معينة بالذات من تاريخ الدولة الأيوبية، مثل تاريخ صلاح الدين الأيوبي، أو تاريخ الملك العادل الأيوبي، أو تاريخ التجارة في عهد الدولة الأيوبية، أو حروب تلك الدولة مع الصليبيين، فإنه يستطيع في هذه الحالة إن يكشف عن حقائق تاريخية جديدة. وما يقال عن عهد الدولة الأيوبية ينطبق تماماً على كل موضوع تاريخي آخر، منذ أقدم العصور حتى الأزمنة الحديثة. والمؤلفات التي لا يراعى فيها ذلك لاتعد كتباً علمية، ولكنها قد تعد كتباً ثقافية نافعة للقارئ العام^(٢).

(١) جوتشك: المرجع السابق، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٥٧ - ٥٨.

وفي هذه المرحلة - أي مرحلة الماجستير والدكتوراه - تتغير العلاقة القديمة التي كانت قائمة بين الطالب وأستاذه، وتتحول إلى علاقة قائمة على أساس من المساواة، وعلى النقد الحر والتقدير المتبادل. وفي هذا الدور يمكن للباحث أخذ وإستيضاح رأي أساتذته الذين يمكنهم إرشاده فيما غمض عليه، دون أن يملوا عليه رأياً معيناً، إذ أن الاختيار النهائي لموضوع البحث التاريخي أو تعديله أو تركه إلى موضوع آخر، ينبغي أن يترك للباحث لكي يقرر بنفسه ما يراه (١).

وينبغي ألا يكون غرض الباحث مجرد الحصول على درجات معينة لتحقيق أغراض معينة، إذ لا يعنى حصول الباحث على درجة علمية أنه قد بلغ نهاية الشوط أو أنه أصبح مؤرخاً، لأن الدرجة العلمية لا تزيد عن كونها بداية الطريق. والباحث المخلص لا يكف عن متابعة دراساته التاريخية بحصوله على الدرجة العلمية. وإذا جعل الدارسون هدفهم الأساسى هو الحصول على الدرجة العلمية وما يرتبط بها من المنافع، فلن يكون لهم من العلم إلا طلاء مظهر خارجي. والعلماء جميعاً - ومن بينهم علماء التاريخ - لا يصبحون علماء إلا إذا بحثوا العلم للعلم عن لذة ذاتية ورغبة أصيلة (٢).

(ثانياً) : وضع خطة البحث:

خطة البحث تعنى تبويب الرسالة تبويبا أولياً، أى تقسيم البحث إلى أبواب وفصول تسهيلاً للدراسة، ويمكن أن ينتفع بجهود من سبقوه، فإن مكتبات الجامعات تشمل مجموعة من الرسائل القيمة، وهذه الرسائل تقدم عوناً كبيراً لطلاب الماجستير والدكتوراه، لأنها تلقى ضوءاً ينير السبيل

(١) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٢.

للطالب، ويسترشد به في وضع خطوط رسالته، مع ملاحظة أن الظروف تختلف من موضوع إلى موضوع، ومن فكرة إلى فكرة^(١).

وبعد أن يتعرف الطالب على نماذج من التخطيط لرسائل تشبه رسالته، يستطيع أن يضع الخطوط العريضة الأولية لدراسته، ويشمل ذلك وضع عنوان لموضوع الرسالة، وتقسيمه إلى فصول. ويجب أن يلاحظ أن يكون عنوان الرسالة جذاباً، وواضحاً تمام الوضوح، وشاملاً لكل ما يستوعبه من جزئيات وتفاصيل. ويجب كذلك أن تخضع أبواب الرسالة وفصولها في ترتيبها إلى أساس سليم، وفكرة منظمة، ورابطة خاصة، كالترتيب الزمني أو الموضوعي، وعلى الطالب أن يتجنب وضع الأبواب والفصول ارتجالاً، وعلى غير أساس مقبول^(٢).

وعلى الباحث أن يدرك أن خطة البحث التي وضعها أولية وليست نهائية، وبالتالي فهي قابلة للتغيير سواء بالحذف أو الإضافة وفقاً للمادة العلمية التي يجمعها، فقد يحدث حذف فصل أو نقطة من الخطة لم يستطع الباحث أن يعثر لها على المادة العلمية اللازمة، ويدرك بذلك أن تصوره في هذه النقطة كان مثالياً جداً. وقد يحدث إضافة فصل جديد أو نقطة جديدة توصل إليها الباحث من خلال المصادر والمراجع التي يستشيرها لم تكن واردة في ذهنه عند التصور الأولى. وهذا يعني أن يتصف الباحث بالمرونة، ولا يتوقف عند الخطة التي وضعها في البداية. ومن الإغراق في الخيال أن يتمسك الباحث بخطة لا يستطيع الوفاء بها من خلال المادة العلمية المجموعة^(٣).

(١) أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة، ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤ - ٣٦.

(٣) عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ٦٢ - ٦٣.

(ثالثاً) جمع المادة العلمية:

والخطوة التالية بعد اختيار الباحث للموضوع الذى سيتناوله بالدراسة وتقسيمه إلى أبواب وفصول، هى أن يتوفر على جمع المادة التاريخية من كافة المصادر الأصلية Sources، وهى الوثائق سواء المنشورة أو غير المنشورة والمخطوطات والمذكرات الشخصية واليومية، وكذلك على الباحث الإفادة من المراجع العامة References وهى التى تشمل قوائم المراجع (ببيلوجرافيا) والدوريات العلمية Periodicals[†] التى تصدرها الجامعات والهيئات العلمية المختلفة. ومن الأفضل للباحث أن يبدأ بجمع مادته العلمية من المصادر الأصلية، ثم من المراجع الحديثة بعد ذلك، لأن المادة التاريخية التى تأتى من الأصول، هى التى تبرز عناصر البحث، وتوجهه إلى الكمال.

ويجب على الباحث أن يتحدث مع من له خبرة بموضوع دراسته، فأغلب الظن أنه سيرشده إلى بعض المراجع، كما يفيدته فى تنسيق الموضوع، ويفتح له أبواباً نافعة. وكذلك على الباحث أن يتعرف بل أن يعقد صلات ودية مع المشرفين على المكتبات التى يتردد عليها، أو مع رؤساء الأقسام التى تتبعها دراسته إذا وجدت هذه الأقسام، فأغلب هؤلاء لهم خبرة كبيرة بالمراجع وبعض المخطوطات الثمينة التى قد تتصل بالموضوع، ولا يفتأ هؤلاء يعملون فى الكتب وينقبون فيها، فلا نزاع أنهم سيمدونه بين الحين والآخر بما يعاونه معاونة ظاهرة^(١).

ويحسن بالباحث أن يعد قائمة أو فهرساً بالمصادر والمراجع التى سوف يرجع إليها موضعاً إسم المصدر أو المرجع ومكان وجوده ورقمه

(١) أحمد شلبى: كيف تكتب بحثاً أو رسالة، ص ٣٩.

ورمزه . فإذا كان المرجع في مكتبته الخاصة كتب أمامه : مكتبتى الخاصة، وإلا بحث عنه في المكتبات الأساسية التي يعتمد عليها، فإذا وجده بها كتب أمامه الرمز الموضوع له بهذه المكتبة^(١) . ويعمد بعض الباحثين وهم يعدون فهرساً عاماً للمراجع التي سيرجعون إليها إلى اتباع نظام البطاقات وطريقة ذلك أن يحضر الباحث عدداً من البطاقات، ويخصص كل بطاقة لكتاب واحد، على أن يوضع إسم المؤلف في أعلى البطاقة، وتحت عنوان الكتاب، وفي السطر الثالث يدون إسم المكتبة التي بها الكتاب، وكذلك الرمز الموضوع له، وترتب هذه البطاقات في درج ترتيباً أبجدياً حسب أسماء المؤلفين، وكلما عثر على كتب جديد يتصل بموضوعه أعد له بطاقة ووضعها في موضعها في درج البطاقات، والباحث بذلك يكون له مكتبة هامة وإن لم يمتلك كتبها^(٢) . وبالإضافة إلى ذلك يمكن للباحث أن يحتفظ بكراسة أو أجنده، ويسجل بها أسماء المصادر والمراجع التي اقتبس منها مادته العلمية أولاً بأول، وأسماء المؤلفين، وأسماء المكتبات التي توجد بها تلك المصادر والمراجع والرموز الموضوعه لها .

ومن المفيد جداً أن يحتفظ الباحث بفهرس موجز للكتب التي لا يمكن الاستغناء عنها، بحيث تكون في متناوله دائماً وأهم ما ينبغي الاحتفاظ به هو: فهرس مطبوع لإحدى المكتبات، ودائرة من دوائر المعارف ويحسن أن تكون من تلك المتخصصة في حقل الدراسة، وقاموس من قواميس الاعلام، وقاموس متخصص في حقل البحث اذى يتناوله الباحث (اقتصادي أو ديني أو إجتماعي... الخ) ، ودورية أو أكثر من الدوريات المتصلة بالبحث، ومجموعة للوثائق المتعلقة بعصر البحث^(٣) .

(١) المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤ .

(٣) على إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٤٠ - ٤١ .

وعندما يعمد الباحث في التاريخ إلى البحث عن المصادر المتعلقة بموضوعه، يجب عليه أن يستقصى هذا البحث إلى أبعد حد ممكن، فلا يزدري أيا من المصادر أو يهمله، لأن أضعفها وأقلها شأنًا لدى النظرة الأولى قد يصبح بعد التحقيق أشدها خطورة وأغناها بالمعلومات^(١).

ويجب على الباحث أن يجتهد في تدوين ما تجمع من مادة بالجبر وبخط واضح وبدقة تامة، كي لا تعوقه رداءة الخط أو عدم وضوحه عن استعمال ما جمع عندما يبدأ في الكتابة. وكذلك يجب على الباحث أن ينقل ما يأخذه من المصدر حرفيا دون تعديل أو اختصار، سواء كانت المادة مدونة باللغة العربية أو باللغة الأجنبية^(٢). وحين يعكف الباحث على نقل شيء من المصادر عليه أن يهتم بالمصطلحات التاريخية، وأن يفهم كل كلمة وتعبير ويقرأ السطور وما بين السطور، وينقل في البطاقات كل ما يهم موضوع البحث، وإذا طرأت عليه أثناء عملية جمع المادة العلمية أية تعليقات أو خواطر، فيجب أن يثبت ذلك كله في مكان منفصل على أحد جانبي البطاقة حتى لا تختلط ملاحظاته بكلمات المصدر الذي ينقل عنه^(٣).

ومن الضروري أن يتنبه الباحث إلى أنه إذا استعمل طبعة ما لمصدر من المصادر، كان عليه أن يستعمل نفس الطبعة في جميع بحثه كلما أمكن ذلك، فإذا اضطر لاستعمال طبعتين لمصدر واحد، فإن من الواجب أن يحدد الطبعة التي اعتمد عليها في كل اقتباس يورده عن ذلك المصدر^(٤).

(١) حسنين ربيع: محاضرات في علم التاريخ، ص ١٠٠.

(٢) على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٤١.

(٣) حسنين ربيع: المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤) أحمد شلبي: كيف تكتب بحثا أو رسالة، ص ٤٤.

أما فيما يتعلق بالمادة العلمية التي يجمعها الباحث في التاريخ، فهناك طريقتين لجمعها:

طريقة البطاقات:

وتصنع البطاقات (الجزائرات - الفيش © Fiches غالباً من الورق المقوى، وحجم البطاقة هو ١٠×١٤ سم تقريباً، ويلزم أن تكون متساوية وتدون الكتابة على عرض البطاقة وعلى وجه واحد منها، ويستحسن أن يوضع عنوان لكل اقتباس، ليبدل على ما ورد في البطاقة من مادة علمية. وتكون الكتابة بالحبر وبخط واضح، ويكتب في صدر البطاقة إسم المصدر الذي استمدت منه المادة، وكذلك إسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة ولا يكتب في كل بطاقة إلا اقتباس واحد (نقطة واحدة أو فكرة واحدة).

طريقة الدوسيه المقسم:

والدوسيه المقسم Loose leaf book هو عبارة عن غلاف من الكرتون المقوى مع كعب يتفاوت عرضه بتفاوت حجم الدوسيه، وبهذا الكعب حلقتان يمكن فتحها وإقفالها. ومن الممكن أن يضاف ما قد يلزم من أوراق في أي وقت وفي أي مكان من الدوسيه. ويقسم البحث الدوسيه أقساماً، يكون القسم الأول منها للمقدمة ثم فصول الرسالة والقسم الأخير لقائمة المصادر والمراجع^(١).

غير أن طريقة البطاقات أسهل بكثير في الاستخدام من طريقة الدوسيه المقسم، وذلك لسهولة نقل البطاقة من مكان إلى آخر أي من فصل إلى فصل، حيث إن بعض البطاقات قد تخدم أكثر من نقطة واحدة داخل البحث الواحد. وهذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً بين الباحثين.

(١) المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٦.

وينبغي الإشارة إلى عدم اللجوء مطلقاً إلى الاقتباس في كراسات وكشاكيل أو غيرها نظراً لاستحالة إستخدامها بسهولة وخاصة في رسائل الماجستير والدكتوراه^(١).

(رابعاً) نقد المادة العلمية:

يذكر لانجلوا وسنيوبوس في كتابهما «المدخل إلى الدراسات التاريخية» (١٨٩٨ م)، أن التاريخ يصنع من وثائق. والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم. والقليل جداً من هذه الأفعال والأفكار هو الذي يترك آثاراً محسوسة، وإن وجدت فنادرًا ما تبقى، لأن عارضا بسيطاً قد يكفى لزوالها. وكل فكرة أو فعل لا يخلف أثراً، مباشراً أو غير مباشر، أو طمست معالمه، هو أمر ضاع على التاريخ، كأن لم يكن البتة. ويفقدان الوثائق صار تاريخ عصور طويلة من ماضي الإنسان مجهولاً أبداً. إذ لا بديل عن الوثائق: وحيث لا وثائق، فلا تاريخ^(٢).

ويعرف البعض الوثيقة تعريفاً جزئياً ويحصرها فقط في نطاق كل مستند له صفة رسمية حكومية، كالمراسيم والمعاهدات والبيانات، والمراسلات الرسمية، وما شاكل ذلك. ويستمد هذا التعريف قوته من أن هذه الأوراق المستندية فوق الشبهات، ولأنها محفوظة بملفات رسمية، وموثقة بشكل رسمي، فهي تدعو إلى الثقة بها، واستخدامها في أي بحث يعطيه وزناً خاصاً ومقبولاً من القراء، وتكون معلوماته فوق مستوى الشك. ولهذا فالأصوب أن نصف هذا النوع من الوثائق بالمعلومات الرسمية Formal Informations أو الوثيقة الرسمية^(٣).

(١) عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) عبدالرحمن بدوي: النقد التاريخي: يتضمن ترجمة كتاب لانجلوا وسنيوبوس عن الفرنسية بعنوان «المدخل إلى الدراسات التاريخية»، وكذلك يتضمن ترجمة «نقد النص»، لبول ماس، وترجمة نصوص لكانت وديكارت وبول فاليري في التاريخ، (الكويت ١٩٧٧)، ص ٥.

(٣) عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ٦٧.

أما التعريف الأشمل للوثيقة في التاريخ والنسبة لكتابة البحث، فهو أكثر اتساعاً ويشمل كل نص يحتوى على معلومات تتعلق بنشاط الإنسان فى أى فترة من الفترات. وهذا التعريف يضم الوثيقة الرسمية بالمعنى السابق، والأوراق، واليوميات، وكتب الذكريات والمذكرات، والمخطوطات، والكتابات المعروفة بالمصادر الأصلية، والمراجع العامة من كتب ومقالات وأبحاث وأخبار مأخوذة من الدوريات، وفى كلمة واحدة: المعلومات (١).

والوقائع التاريخية لا يمكن معرفتها تجريبياً إلا بطريقتين: إما مباشرة إذا لوحظت وهى تحدث، أو بطريقة غير مباشرة بدراسة الآثار التى تركتها. فلنفرض حادثاً وليكن زلزالاً مثلاً، فإنى أعرفه مباشرة إذا أنا حضرت هذه الظاهرة، وأعرفه بطريقة غير مباشرة إذا كنت لم أحضره ولكنى عاينت آثاره المادية من شقوق وجدران متداعية، أو إذا قرأت وصفاً مكتوباً عنه بعد أن انمحت آثاره، كتبه شخص شاهد بنفسه هذه الظاهرة أو شاهد آثارها. والخاصية المميزة للوقائع التاريخية هى بطبيعتها غير مباشرة (٢).

على كل حال، عندما ينتهى الباحث من جمع المعلومات المتعلقة بموضوع بحثه، يدخل فى عملية رئيسية وأساسية قبل الشروع فى كتابة البحث فى شكله النهائى، وهى عملية تحليل هذه المعلومات وفرزها والتثبت من صحتها، وتوزيعها على فصول الخطة. وهذه العملية إحدى عمليات المنهج الأساسية، وتعرف بنقد الأصول. وممارسة النقد تعنى فى

(١) المرجع السابق، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ٤٣ - ٤٤.

أبسط الأمور عدم التقديس الأعمى للمعلومات المستمدة من النصوص، وخاصة من الوثيقة الرسمية، إلا بعد إخضاعها لعملية النقد المنهجي، فلا يصح للباحث أن يقترب من الوثيقة وهو منخفض الرأس، ويتحدث عنها بإجلال واحترام، فالوثائق أساسية بالنسبة للباحث، ولكن على الباحث أن لا يجعلها معبوداً، فهي لا تشكل التاريخ بحد ذاتها^(١).

وتمر الوثيقة بمرحلة طويلة من الفحص والتدقيق قبل أن نستخرج المعلومات التاريخية منها، وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يكتب التاريخ، لأنه إذا بنى على أصول مزورة منتحلة، خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة.

والوثيقة التي لا يعرف شيء عن مؤلفها وتاريخها ومكان كتابتها، هي وثيقة لا تفيد شيئاً. ومعظم الوثائق الحديثة تحمل إشارة دقيقة إلى مصدرها، ففي أيامنا هذه نجد أن الكتب ومقالات الصحف والأوراق الرسمية، بل والكتابات الخاصة مؤرخة وموقع عليها. وعلى العكس نجد كثيراً من الوثائق القديمة بلا تاريخ ولا إسم مؤلف ولا يعرف مكان صدورها على وجه الدقة^(٢).

وينقسم نقد الأصول إلى قسمين رئيسيين: النقد الخارجي أو الظاهري external criticism وهو يتعلق بعدة أمور مثل إثبات صحة الأصل التاريخي، وأسلوب الخط الذي كتب به، ومعرفة نوع الورق، وتعيين شخصية المؤلف وزمان التدوين ومكانه. أما النقد الباطني أو الداخلي in-ternal criticism فيبحث في الحالات النفسية والعقلية التي مر من خلالها كاتب الأصل التاريخي، ومحاولة الكشف عن أهدافه من الكتابة، ومدى اعتقاده في صحة ما كتبه. والأساس الذي يبنى عليه النقد بقسميه هو

(١) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٨٧؛ كار: التاريخ، ص ١٤ - ١٧.

(٢) عبدالرحمن بدوي: النقد التاريخي، ص ٦٥.

الشك فيما ورد في الأصل التاريخي، ثم الدراسة الواعية المتعمقة لكل ما نقرأ فيه لاستخلاص الحقائق، وتلك مهمة بالغة العسر، لأن المرء بطبيعته يميل إلى تصديق كل ما يصادف هوى في نفسه، بينما يميل بنفس الدرجة إلى تكذيب كل ما يتعارض مع رغباته وميوله، ونحن لانستطيع أمام هذه الحقيقة أن نأخذ كل ما يصادفنا من مدونات على أنه حقيقة خالصة، لأن الناس يختلفون في ميولهم ونزعاتهم وما يعتقدون من قيم. وسنتناول الحديث عن كل من النقد الخارجي والنقد الباطني بشيء من التفصيل.

١ - النقد الخارجي:

يقوم هذا النقد على أساس التحقق من صحة الوثائق التي لدينا عن الحادث، فكثيراً ما يدخل في الوثائق كثير من الحشو أو قد يضاف إليها كثير من الإضافات الزائدة المقصود بها الإكمال، وأحياناً يكون النص محرفاً في بعض أجزائه، وأحياناً أخرى يكون النص مزيفاً تماماً، وإذا توفر لدينا نسخة بخط المؤلف من الوثيقة موضوع البحث، فحينئذ يكون الأمر يسيراً وما علينا في هذه الحالة إلا أن ننسخ هذه الوثيقة كما هي في الأصل تماماً دون أن نزيد فيها حرفاً أو نقص منها شيئاً، حتى لو كانت مليئة بالأخطاء^(١).

وأحياناً تكون الوثيقة نسخة وحيدة، ولكنها ليست مخطوطة بخط المؤلف، وهذه النسخة الوحيدة قد تكون أحياناً كثيرة مليئة بالأخطاء الناجمة عن الجهل من جانب الناسخ أو بمحاولة إصلاح النص حسب فهمه الضيق فيسيء إلى النص من حيث أراد أن يصلحه. ونحن نجد الكثير جداً من هذه الأخطاء التي تحدث عن جهل الناسخ وعدم فهمه

(١) عبدالرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص ١٨٨ - ١٨٩.

للأصل تماماً خصوصاً في المخطوطات العربية^(١). ولكي يصلح النص إصلاحاً حقيقياً يجب على من يتصدى لهذا العمل أن يكون محيطاً باللغة التي كتب بها النص، وأن يكون عالماً بالخطوط التي كتبت بها النصوص التي يشتغل فيها، وبكل الخطوط التي مرت بلغة من اللغات إذا كان يتناول عصوراً طويلة، ويجب أن يكون على علم بالأخطاء الشائعة الخاصة بكتابة لغة من اللغات مما يرد عادة لدى النساخ في أحوال كثيرة تبلغ درجة أن تكون هذه الأخطاء أخطاء عامة^(٢).

وتتميز المنتحل والصحيح من المؤلفات صعب تماماً بالنسبة للأقدمين وأسهل نسبياً بالنسبة إلى المحدثين، لأن المحدثين قد اعتادوا أن يكتبوا أسماءهم على مؤلفاتهم أو يمهروا لوحاتهم بتوقيعاتهم أو بتعليقات تدل عليهم. وأما الأقدمون فإما أنهم كانوا لا يهتمون بذلك، وإما أن المواضيع التي تمهر فيها هذه التوقيعات قد درست وزالت، أو لعدة أسباب أخرى. ومن هنا كان على المؤرخ، خصوصاً الباحث في العصور القديمة أو الوسيطة أن يكون دقيقاً كل الدقة في النظر إلى النصوص، وعليه ألا يأخذ بالوثيقة إلا إذا ثبتت لديه صحتها^(٣).

وهناك قواعد تساعد الباحث على التعرف على وثيقة مجهولة المصدر على النحو التالي:

(أ) يجب أن نقوم بما يسمى «التحليل الباطن»، ومعناه أن ننظر في الوثيقة من حيث الخط الذي كتبت به. فالخطوط تختلف فيما بين العصور بعضها وبعض. فإذا وجدنا وثيقة من القرن الأول أو الثاني الهجري مكتوبة بخط فارسي أو نسخي عادي، فيجب أن تعد قطعاً

(١) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٥-١٩٦.

منحولة، وإذا وجدنا وثيقة في القرن الرابع الهجري مكتوبة بخط كوفي قديم قد خلا من النقط والإعجام، فليس من شك فمن المرجح جداً أن تكون منحولة. وعلينا أن ننظر في الوقائع التي ترد في الوثيقة من حيث إمكان حدوثها في الزمان المنسوبة إليه، أو في المكان الذي تزعم الوثيقة أنها جرت فيه، وأن ننظر فيما عسى أن تكون هناك من إشارات إلى هذه الوقائع في كتب المعاصرين، فمن طريق معرفة هذه الإشارات نستطيع أن نتبين إلى حد ما العصر الذي تنسب إليه الوثيقة^(١).

فعلى سبيل المثال، ثمة خطبة منسوبة إلى القائد طارق بن زياد ألقاها على جنده قبل خوض المعركة الحاسمة ضد القوط الغربيين في أسبانيا في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو ٧١١م)، يحثهم فيها على الجهاد، جاء فيها: «أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لاوذر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تتجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقى به إليكم مدينته الحصينة، وأن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم. لأنفسكم بالموت، وإنى لم أحذركم أمراً أنا منه بنجوة، ولا جبالكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسى... والملاحظ أن تلك الخطبة لم يشر إليها المؤرخون المسلمون المتقدمون، وهي أكثر ظهوراً في كتب المسلمين المتأخرين، التي ذكروها في القرن الخامس الهجري

(١) المرجع السابق، ص ١٩٦-١٩٧.

الأمر الذي يجعلنا نشك في نسبتها إلى طارق بن زياد، خاصة أن طارق كان حديث عهد بالإسلام، لم يكن باستطاعته صياغة خطبة بذلك الأسلوب الرائع. ولا يغيب عن الأذهان أنه ليس من مصلحة طارق حرق السفن قبل بداية المعركة، وبمعنى آخر لم يكن حرقها عملاً عسكرياً سليماً، خاصة أن طارق قد احتاج إلى النجدة قبل خوض المعركة.

وفي كتاب «مصطلح التاريخ» للدكتور أسد رستم^(١)، مثال للمعاناة التي لاقاها حين كلف بفحص إحدى الوثائق المكتوبة - وكانت عبارة عن رسالة من عهد محمد علي - للوقوف على مدى صحتها، وكيف اضطر إلى فحص نوع الورق الذي دونت عليه الوثيقة وفحص نوع المداد، ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق في أماكن مختلفة، ودراسة عادات المراسلة والأسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة واتفاق ما جاء بها مع الظروف التاريخية، وذلك كله يبين لنا مدى الصعوبة التي يجب على المؤرخ أن يواجهها ويتغلب عليها ليصل إلى الحقيقة.

(ب) لا تكفى الاعتبارات السالفة لتحديد دقيق لمؤلف الوثيقة، ولهذا يمكن أن نؤكد النتائج التي نصل إليها عن طريق الخطوة السالفة، بواسطة ما عسى أن يوجد لدى المؤلفين الآخرين، من اقتباسات من هذه الوثيقة، بشرط أن يكون هؤلاء المؤلفون المقتبسون معاصرين أو شبه معاصرين، وأن يذكر صراحة اسم مؤلف الوثيقة، مما يرجح لدينا أنه إذا كان ثمة انتحال فإن هذا الانتحال لم يتم إلا متأخراً، أو أنه لم يتم انتحال إطلاقاً^(٢).

(ج) من بين أنواع التزييف نوع خطير، وإن كان أقل خطورة من التزييف الكامل، وهو الحشو والإكمال interpolation & continuation: أما

(١) ص ١٧ - ٢٨ ك محمد عواد حسين: «صناعة التاريخ»، ص ١٤٥.

(٢) عبدالرحمن بدوي: «مناهج البحث العلي»، ص ١٩٧ - ١٩٨.

الحشو فهو أن تولج في داخل النص أقوالاً لم يأت بها المؤلف، أو تزيد بعض الشروح أو الزيادات الدخيلة في العبارة، إما للإيضاح أو لأن النص قد استعصى فهمه على الناسخ الجاهل أو القارئ غير العالم، وهذا ظاهر خصوصاً مثلاً في كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩م)، فنجد في النسخ المتعددة أنها قد احتوت على كثير من القراءات التي كتبها نساخ جهلة أو قراء أشد جهلاً، ظنوا أن في الكلام تحريفاً أو خطأً، فاستبدلوا به غيره، وخصوصاً أن الشافعي كان يستخدم تعابير في غاية من الرصانة، والجزالة، مما يدل على عريته الأصلية في الكتابة. ولكن هؤلاء القراء الجهلة كتبوا بدلاً من بعض الألفاظ ألفاظاً أخرى بدت لهم أيسر، واستبدلوا ببعض التعبيرات أخرى غيرها أنسب لعصرهم. ومهمة الناقد إن يستخرج القراءة الصحيحة التي أملاها الشافعي على تلميذه الربيع بالنسبة إلى هذه «الرسالة» (١).

وهناك نوع من التزوير لم يسلم منه كثير من الأصول. وذلك أن أصحاب الكتب الخطية، كانوا في بعض الأحيان، يضيفون على الهامش أوفى أواخر الفصول والأبواب، أخباراً أو آراء جديدة تتعلق به. ثم تمر الأيام، وينسخ بعض هذه الكتب، فتدخل الزيادة في الأصل، ويثبت الشرح في المتن، ويختلط الأمر على المتأخرين فينسب كل ما في النسخة الخطية المتأخرة إلى المؤلف. وهذا النوع من التزوير هو ما نريد أن نسميه الدس سواء كان مقصوداً أو غير مقصود. وفي محيط المحيط دس الشيء ودسه فيه يدسه دساً أدخله ودفنه تحته وأخفاه (٢).

أما الإكمال فكثير الحدوث خصوصاً عند رجال العصور الوسطى.

(١) عبدالرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ١٩٧٢-١٩٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٩.

فأكثر تواريخ العصور الوسطى المسيحية قد أكملت قرنا بعد قرن بوساطة مؤلفين لم يذكروا أسماءهم، فاختلفت بمؤلفي الكتب الأصليين، فأصبحنا في حيرة من أمر ما عسى أن ينتسب حقا إلى المؤلف الأصلي، وما عسى أن يكون قد ألفه مؤلفون متأخرون، وإن كنا نستطيع إلى حد ما أن نقوم بتمييز هذه المسألة بسهولة بمعرفة تاريخ حياة من ينسب إليه المؤلف صراحة، فمن المعلوم قطعاً أن ما حدث بعد وفاته لا ينتسب إليه (١).

ومهما يكن من أمر، فإن نقد المصدر خطوة تمهيدية لا بد من القيام بها حتى نستطيع الوصول إلى النص الحقيقي، أعنى ذلك الذى وضعه مؤلفه، وكذلك لكي نتبين المصدر الذى صورت عنه الوثيقة. فبهاتين نستطيع أن نصل إلى تحديد الوثيقة من حيث الصحة ومن حيث النسبة، ولكن يجب ألا نعتبر أننا بهذا قد قمنا بعملية النقد الحقيقي، ذلك أن الخطوة التمهيدية التى قمنا بها هى فى ذاتها وسيلة لخطوة أعلى منها هى النقد الباطنى.

٢ - النقد الباطنى أو النقد الداخلى:

والخطوة الحقيقية فى المنهج التاريخى هى عملية النقد الباطنى، ويقصد بهذه العملية بيان ما قصده صاحب الوثيقة منها، ثم معرفة صدقه فى الرواية سواء أكان شاهد عيان أو كان ناقلاً عن غيره. وعملية النقد الباطنى ضرورية لأن الظواهر الماضوية لا تقع تحت ملاحظتنا، ولا يمكن الثقة بما يذكره الرواة عنها، دون تمحيص أو نقد. وفرص الخطأ كثيرة، إذ أن كل وثيقة ما هى إلا نتيجة لسلسلة طويلة من العمليات التى لا يذكرها صاحب الوثيقة تفصيلاً. فقد يكون قد رأى أو سمع، ثم تصور الوقائع بناء على ثقافة خاصة به، ثم حرر ماتصوره كتابة. وفى كل

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، ص ١٩٩.

خطوة من هذه الخطوات يكون عرضة للخطأ. ولذلك يقول سينيوس: ينبغي أن تمر بجميع الأفعال التي تنتج الوثيقة، ابتداء من اللحظة التي رأى فيها صاحبها الحدث الباطني للأصول التاريخية. مسألة شاقة معقدة تحتاج إلى مثابرة وصبر طويل وقدرة على استعادة كل الخطوات الفعلية التي مر بها صاحب الوثيقة حتى سجلها على النحو الذي وصلتنا عليه. ونستطيع أن نلخص هذه الخطوات في عمليتين: الأولى عملية التحليل للنص والنقد الإيجابي لمعناه أي تفسيره، والعملية الثانية هي عملية النقد السلبي للنزاهة والدقة.

(أ) العملية الأولى: النقد الإيجابي للتفسير:

وهذه العملية الفرض منها فهم مدلول نص الوثيقة التي نعنى بدراستها فعلى أن نحدد بالدقة ماذا قصد صاحب الوثيقة منها، أي أن العملية التي نقوم بها هنا هي في الواقع عملية تفسير. وتقوم في البداية على عملية فهم للنص كما هو في لغته أي أنها في البداية عملية لغوية. وهذه العملية صعبة تماماً، خاصة إذا كانت اللغة قديمة. ذلك أن اللغات كائنات حية تتطور، ومعاني الألفاظ تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة. فعلى إذن أن نعرف اللغة التي كتبت بها الوثيقة، وأن نعرف ثانياً هذه اللغة كما كانت في العصر الذي كتبت فيه الوثيقة - فعلى سبيل المثال نجد أن المؤرخ جريجوري التوري (٥٣٩ - ٥٩٤ م) مؤلف كتاب تاريخ الفرنجة، قد كتب تاريخه باللغة اللاتينية، ولكن اللغة اللاتينية الكلاسيكية تختلف اختلافاً بيناً عن اللغة اللاتينية في العصور الوسطى (١).

والاستعمال اللغوي يمكن أن يختلف من إقليم إلى آخر، ولهذا ينبغي معرفة لغة الإقليم الذي كتبت فيه الوثيقة، أي المعاني الخاصة المستعملة

(١) عبدالرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

بها الألفاظ في الأقاليم المختلفة . والتعبير يختلف معناه بحسب الموضع الذي يوجد فيه، ولهذا ينبغي أن نفسر كل كلمة وكل جملة لامفردة، بل بحسب المعنى العام للفقرة، أي في نطاق السياق العام للنص التاريخي، وقاعدة السياق هذه هي قاعدة أساسية في التفسير (١).

ويظهر في المحاولات الدفاعية التي يحاول بها كثير من الناس أن يشيدوا بمجد قديم أو تراث حضارى معين، فيحاولون أن يقتبسوا عبارات واردة في كتب قديمة فلسفية أو دينية أو علمية وفقا للبحث، زاعمين أن هذه العبارة تتفق مع مايقول به الفيلسوف المعاصر أو المحدث أو هذا الاقتصادى أو هذا المذهب السياسى . وفى هذا فى الواقع خيانة علمية إلى أقصى درجة، وعلينا أن نتجنبها دائما، وألا نفسر النص إلا وفقا للموضوع الذى وجد به، وألا نحاول أن نتقول عليه ما لا يمكن أن يكون قد فكر صاحبه فى القول به (٢).

وعندما ينتهى الباحث من تحديد المعنى الحرفى للألفاظ والتراكيب التى تحتل الشك فى معانيها، عليه أن يصل إلى معرفة غرض الكاتب والمعنى الحقيقى لما كتبه . فكثيراً ما يكون ظاهر النص غير معبر حقا عما رعى إلهى المؤلف بالفعل . والدواعى إلى هذا عديدة، منها أن يكون المؤلف قد عبر عن قول من الأقوال من باب السخرية منه والتهكم عليه، أو قاله من باب الهزل أو التلميح والتعريض، أو حاول به التعمية عن قصده وصرف النظر عما يقصده فى الواقع . وفضلا عن هذا كله، فقد يدعو التحسين اللفظى إلى كثير من الاستعمالات المجازية، كاستخدام التشبيهات والاستعارات والمجازات والكتايات . مما يؤدي فى أحيان كثيرة

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) عبدالرحمن بدوى: منهج البحث العلمى، ص ٢٠٨ .

إلى أن يتبدى من مظاهر النص غير ما يقصده المؤلف بالفعل . ولهذا يجب علينا ألا نأخذ النصوص بظاهرها، وذلك أن ننظر أولاً في النص، فإذا وجدناه غامضاً أو يختلف مع ما نعرفه من أقوال أخرى للمؤلف، أو توجد به تلميحات تتبدى أحياناً في شيء من الوضوح، وغالباً في اختفاء وإيماء، فإن علينا أن نعتبر أن النص هنا يجب ألا يؤخذ بحروفه، بل علينا أن نفترض معنى خفياً قصده المؤلف، واضطر إلى إخفائه للأسباب التي ذكرناها^(١). ومن أشهر ما حدث في هذا الصدد نجد مثلاً أن الملحدين وأصحاب البدع في الحضارة الإسلامية يستخدمون ألفاظاً مثل الدنيا والدهر والزمان، ويقصدون منها في الواقع «الله»، ولكن لأنهم يريدون أن يصبوا عليها كل اللعنات ويعزوا إليها أسباب المصائب، فإنهم لا يستطيعون قطعاً أن ينسبوا إلى الله، فيلبسون عن قصد بمثل هذه الألفاظ التي يجب أن تعد معبرة عن قصدهم، وهذا هو ما نبه إليه في الحديث الشريف المشهور «لاتسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»، وعلى الرغم من هذا التحذير فقد استمر هؤلاء في سب الدهر^(٢).

وبهذا نستطيع أن نحدد المعنى الذي قصد إليه المؤلف تماماً، وبذلك تكون عملية النقد الباطني الإيجابي للتفسير قد تمت، ويصبح الباحث على بينة من المعلومات التي أوردها صاحب الأصل، ومن أفكاره الخاصة عن الموضوعات والأحداث التي تناولها. وتبدأ بعد هذا العملية الثانية للنقد الباطني، وهي العملية السلبية للنزاهة والدقة.

(ب) العملية الثانية: النقد السلبي للنزاهة والدقة:

لا يكفي القيام بعملية النقد الباطني الإيجابي للتفسير، فكل ما يقدمه

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٩.

لنا هذا النقد هو قصد المؤلف فحسب، أما كيف شاهد الحادث وهل أصاب في مشاهدته أم لا، وهل قصد إلى الكذب أم لم يقصد، وإلى أى مدى نثق بالوثيقة التي رجع إليها، وإلى أى حد هي تعبر عن الواقعة، كل هذه مسائل لا بد أن تقوم بها عملية ثانية للنقد الباطنى هي عملية النقد الباطنى للنزاهة والدقة فعلى أن نبحت فى صحة مشاهدة مؤلف الوثيقة للحادث، وهل أصاب فى وصف له. وهل لم يخطئ فى بعض الجزئيات، وهل لم يكن مخدوعاً فى بعض ما شاهده وهل لم تكن تحذوه دوافع أجنبية من شأنها أن تشوه تصويره للحادث، وفى إيجاز: إلى أى حد نثق برواية صاحب الوثيقة(١)؟

وفى هذه المرحلة يصبح من حق الباحث أن يشك فى صحة وأمانة المعلومات الواردة فى الأصول التاريخية عن موضوع معين، فالأصل أن كل صاحب وثيقة متهم بالخيانة والتزييف والخطأ وعدم النزاهة، ويمكننا أن نبدأ بحثنا إما بتأييد هذا الحكم السابق، أو بإثبات براءته. وبهذا الشك الحاسم المتناول لكل شىء، نستطيع أن نقيم فعلاً منهجاً علمياً لدراسة التاريخ. وهنا يجب أن نتبع قاعدتين: القاعدة الأولى هي أنه يجب ألا نثق فى رواية لمجرد أن صاحبها شاهد عيان، فشهادة العيان ليست بصحيحة دائماً لأن صاحبها قد يخطئ، وقد يكون عرضة لكثير من الأوهام. والقاعدة الثانية هي يجب ألا نأخذ الوثيقة ككل، بل ينبغى أن ننقد جزئياتها وتفصيلاتها وحوادثها المفردة واحدة بعد أخرى(٢).

وعلىنا أن ننظر فى الأحوال التى وضعت فيها الوثيقة، والظروف التى أحاطت بالمؤلف، فنجمع أوفر قسط من المعلومات عن المؤلف وعن

(١) المرجع السابق، ص ٢١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٠-٢١١، حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٢٥-١٢٦.

ثقة الناس به وعن العصر الذي كتب فيه وعن الوثائق المشابهة التي روت نفس الحادث، وعن الوقت الذي وجد به . حتى إذا ما استطعنا أن نجمع كل هذه المعلومات كان علينا أن نضع لأنفسنا مجموعة من الأسئلة العامة تدور حول نزاهة المؤلف ودقته^(١) . وتدور كل الأسئلة في هذه الحالة حول إمكان أن يكون المؤلف قد كذب في روايته أو نقله . والأسباب الداعية إلى الكذب أشهرها:

- ١ - أن يكون المؤلف قصد إلى التزييف لحاجة عملية، كأن يستفيد مادياً من هذا التزييف، أو أن يكون ملحقاً بحاشية ملك أو أمير فيضطر إلى تزييف الأخبار والوثائق لصالح الأمير الذي يوجد في بطانته .
 - ٢ - أن يكون المؤلف قد وجد في وضع اضطره إلى هذا التزييف .
 - ٣ - أن يكون المؤلف مدفوعاً بدافع البغضاء والكراهية لجماعة من الجماعات: دينية أو وطنية، أو اجتماعية، أو بدافع الاختلاف في الرأي مع مبدأ من المبادئ أو حزب من الأحزاب، فيميل دائماً في هذه الحالة إلى تمجيد مبادئه هو أو مبادئ حزبه أو مبادئ الجماعة التي ينتسب إليها، والحط من قيمة خصومه وتزييف أقوالهم والتقول عليهم بأشياء لم يقولوها إطلاقاً، وإنما قصد بها كذباً التشهير بهم .
 - ٤ - أن يكون المؤلف قد قصد - لغاية شخصية معينة - أن يضع من قدر شخص من الأشخاص أو حادثة من الحوادث، فيميل إلى الكذب في الرواية، ولهذا لا يمكن أن يقال إنه نزيه في روايته^(٢) .
- أما الدقة فتتصل بالخداع أو الخطأ، ومعناها أن يكون صاحب الوثيقة

(١) عبدالرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٢١٢ - ٢١٣ .

فريسة لوهم من الأوهام، فيظن أنه رأى الحادث على هذا النحو ويؤكد هذا، مع أن الحادث كان على نحو آخر، ولكن حالت دون رؤيته على النحو الصحيح موانع أشهرها:

١ - أن يكون الشخص في وضع يشاهد فيه الحادث فعلا ويعاينه ويباشره دون أن يكون ثمة مانع قسري، ولكنه لا يراه على حقيقته لوجود معان سابقة في ذهنه. وهذا يشاهد كثيراً في الروايات العيانية عن حادث واحد، فنحن نرى، أنه لو شاهد عشرون شخصاً حادثاً من الأحداث، وليكن سياسياً، لرووه بروايات متعددة، تكاد أن تتناقض في أكبر الأحيان، وذلك وفقاً لطبيعة الملاحظ من حيث تأثره بالحادث ومن حيث المعاني السابقة الموجودة في ذهنه.

٢ - أن يضطر الراوى إلى رواية الحادث على نحو معين خاص لا يستطيع أن يرى الأشياء فيه إلا على هذا النحو كما يحدث غالباً في مشاهدة الزائرين لبلد من البلدان، فإن الحكومات تلجأ دائماً إلى تنظيم الرحلة بطريقة من شأنها أن تبعد هذا الزائر عن مشاهدة كل ما لا تود هي أن يراه، فيكون في هذه الحالة مضطراً بحكم ظروفه إلى ألا يرى غير ما رأى.

٣ - أن تكون الوقائع معقدة ومتشابكة أو موجودة في أمكنة متعددة، أو تحتاج إلى معونة الكثيرين من المخبرين أو العيون والأرصاد، فتكون روايتهم في هذه الحالة مشوية بالكثير من النقص لأنه لم يستطع أن يشاهد الحادث كله جملة، فهذا كله يتنافى مع الدقة التي يجب أن يحرص عليها في الرواية، فيضطر في هذه الأحوال إلى أن يورد الرواية على نحو غير دقيق. فالفارق بين النزاهة وبين الدقة إذن هو

أنه في عدم النزاهة يُفترض سوء النية، وفي عدم الدقة يفترض حسن النية، ويأتي الخطأ عن وهم أو استحالة مادية^(١).

(خامساً) كتابة البحث:

وبعد هذا الشوط الطويل الذي قطعته الباحثة، يكون قد وصل إلى المرحلة النهائية، وهي كتابة البحث. ولا تصبح كتابة التاريخ سهلة إلا عندما تكون كافة الحقائق ماثلة أمام الباحثة مثبتة معلة مشروحة، وعندما يتخيل الباحث موضوع البحث كله كوحدة متكاملة، ويدرك الأهمية النسبية لأجزاء البحث المختلفة.

والواقع أنه لا يستقيم المنهج العلمي التاريخي إلا إذا توفرت له أدواته من معاجم وأدلة وفهارس وكشاف مصطلحات، ودوائر معارف متخصصة، وقد بدأ المستشرقون عملهم العلمي الضخم بإعداد أدوات العمل، فحققوا المعاجم ونشروها، وواحد منهم وهو راينهاردت دوزي، عمل ملحقاتاً للقواميس العربية، جمع فيه كل الألفاظ التي عثر عليها فيما قرأ من النصوص، ولم ترد في المعاجم العربية، ومعظمها من الدخيل والمعرب والعامي والاصطلاحي، وما يستعمل في صنعة من الصناعات أو حرفة من الحرف، ثم عمل معجماً لأسماء الملابس العربية، ويدخل فيها أنواع النسيج^(٢).

وعلى الباحثة في التاريخ أن يحسن اللغة التي يكتب بها، ويحسن التعبير بها، وأن يكتب بلغة سهلة واضحة تلائم الموضوع الذي يتناوله، وعليه أن يكتب بأسلوبه الخاص الذي تتضح فيه شخصيته، فلا يقلد غيره من الباحثين، فكل كاتب طريقته الخاصة في التعبير عن آرائه. وينبغي

(١) المرجع السابق، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٥٦.

على الباحث أن يتجنب الكتابة بأسلوب أدبي صرف حتى لا يؤثر ذلك على واقعية الأحداث، وليس المطلوب من المؤرخ إجادة استعمال التورية والسجع والجناس والتشبيه وما إلى ذلك. وإنما يكون أسلوبه بسيطاً وممتعاً، خالياً من الأخطاء اللغوية، في دقة وإيجاز، فالمؤرخ غير الأديب أو الشاعر، ويحبذا لو يجمع المؤرخ بين البساطة والدقة وروح الفن، لأن غياب الخيال نهائياً يؤدي إلى ركافة الأسلوب^(١). ومشكلة الأسلوب آخر الأمر يمكن أن تحل - ولو جزئياً - بشيء من التعاون، فبوسع المؤرخ بعد أن يفرغ من كتابة بحثه معتمداً على المادة التي استقاها من مصادرها، بوسعه أن يدفع بهذا البحث إلى زميل أو صديق يتمتع بأسلوب أدبي رفيع ليعيد له صياغة ما كتب، ولا عيب في ذلك على الإطلاق، شريطة ألا يكون هذا الأديب ممن يؤثرون الأسلوب الجذاب على الحقيقة التاريخية.

وقبل أن يبدأ الباحث في التاريخ في الكتابة عليه أن يجعل الخطة التي سيسير بمقتضاها أكثر تحديداً، وليس من الضروري أن يكتب فصول البحث بترتيب وضعها، فقد يكتب الفصل الخامس قبل الفصل الأول مثلاً، بشرط أن يتم مراجعة الفصول كلها لتحقيق التناسق وحتى لا يحدث تكرار. ويجب أن يكتب الباحث وفي ذهنه احتمال الوقوع في الخطأ، وعليه أن يبادر بتصويب ما يمكن أن يكشف عنه من الأخطاء إذا ما ظهرت أمامه معلومات أو أدلة جديدة، وحينما يكون غير واثق من معلومة فعليه أن يقرر ذلك بصراحة، وأحياناً يكون التعديل في معلومة ما أمر متروك لضمير الباحث، فالأمر مسألة أمانة علمية ووفاء للبحث العلمي^(٢).

(١) عبدالمعتم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، ص ٧٣؛ حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) حسن عثمان: المرجع السابق، ص ١٩٨ - ١٩٩.

كذلك على الباحث في التاريخ أن يثبت وجوده باستمرار في البحث، وأن يعلق على الحوادث بين حين وآخر، حتى لا يكون ما يكتبه مجرد سرد لأقوال الآخرين. وعلى الباحث أن يراعى في كتابة بحثه أن تكون فصول هذا البحث متساوية في حجمها قدر الإمكان، حتى يحدث التوازن المطلوب في البحث، فلا يكون هناك فصل عدد صفحاته ١٥ صفحة مثلا وآخر ٦٠ صفحة (١).

وعلى الباحث في التاريخ أن يتجنب استخدام ضمير المتكلم بكل أنواعه، سواء في ذلك ضمائر الرفع وضمائر النصب والجر منفصلة أو متصلة بارزة أو مستترة. وعلى هذا فلا يقول: أنا، ونحن، وأرى، ونرى، وقد انتهيت في هذا الموضوع إلى، ورأى، ونحو ذلك، وكمثل ضمير المتكلم ضمير المخاطب. وينصح الباحث أيضا ألا يكثر من استخدام الأساليب الآتية: ويرى الكاتب، والمؤلف لا يوافق، والباحث يميل. أما التعبيرات التي يجب أن تغلب على الأسلوب فهي مثل: ويبدو أنه، ويظهر مما سبق ذكره، ويتضح من ذلك، والمادة المعروفة عن هذا الموضوع تبرز.. الخ. وعلى هذا ينصح الذين يكتبون بحوثهم ألا يكثروا من استعمال ضمير المتكلم والمخاطب، وأن يلاحظوا إذا استعمالوا ضمير المتكلم والمخاطب مراعاة التواضع والأدب الجم، فالحديث عن النفس غير محبب غالبا للقارئ والسامع (٢).

وينبغي على الباحث في التاريخ أن يحترم آراء المؤرخين الأعلام ويقدر وجهات نظرهم، على ألا يصدق كل ما يقولونه. ولكن يجب أن يكون تفنيده لما ذهبوا إليه مما لا يتفق وآراءه برفق حين يكتب، كأن

(١) على إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث ص ٤٥، عطية القوصي: علم التاريخ، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) أحمد شلبي: كيف بحثا أو رسالة، ص ٨٦ - ٨٧.

يقول: ذهب المؤرخ فلان إلى القول، بأن .. ولكن ما أجمع عليه المؤرخون يدلنا على أن .. دون أن تذكر عبارات مثل: تريدنا الحادثة الآتية كذب المؤرخ فلان أو دحض كلامه، لأن ذلك فيه تحقير للمؤرخين دون موجب، مما ينافي جانب الوفاء والتقدير لأمثالهم (١).

وإذا كنا نرى الماضي بعيون عصرنا، إلا أن بعض المصطلحات التي تستخدم في عصرنا، قد لا يكون لها مدلولها الذي ينطبق على حياة الماضي، فعلى سبيل المثال يعتبر غربيا عن البيئة الإسلامية وتاريخها في العصور الوسطى التعبيرات الاصطلاحية المستعملة في أوروبا في تاريخها الحديث: ليبرالية، ويمين، ويسار، وانتهازية، وشيوعية، واشتراكية، إذ لا يجوز تطبيقها على واقع البيئة الإسلامية وعصرها (٢).

وينبغي كذلك ملاحظة أن الفقرة وحدة قائمة بذاتها لا تحتاج إلى عنوان، وهي مجموعة من الجمل بينها اتصال وثيق لإبراز معنى واحد أو شرح حقيقة واحدة، ولها استقلالها الكامل، حتى أنه يطلق عليها بحث قصير، أو بحث داخل بحث،، والفقرة طول متوسط فلا ينبغي أن تكون طويلة جداً ولا قصيرة جداً، وإن كان قصرها مقبولا عن طولها (٣).

ويعد الاقتباس من أهم المشكلات التي يجب على الباحث أن يدرسها بعناية واهتمام، ويدرس كل ما يحيط بها من ظروف، فعليه أن يتبع الدقة التامة في النقل، ويضع ما يقتبس بين شولتات،، وإذا كان الاقتباس لأكثر من فقرة يجب أن توضع شولتان قبل بدء كل فقرة، ولكن الفقرة الأخيرة فقط هي التي تختتم بشولتين، ويشار في الحاشية إلى المرجع

(١) علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢) عبدالمنعم ماجد: نيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٧٢.

(٣) أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة، ص ٨٨.

الذى اقتبس منه . ويجب ألا تختفى شخصية الباحث بين ثنايا كثرة الاقتباسات، وألا يكون البحث سلسلة اقتباسات متتالية، كما يجب أن تنسق الاقتباسات تنسيقاً بديعاً(١) .

وإذا أشار الباحث في بحثه إلى شخص ما، فالقاعدة العامة أن يذكر اسمه دون ذكر لقبه أو الوظيفة التي يشغلها. ولكن هناك بعض حالات يكون ذكر الألقاب والوظائف فيها ضرورياً، وذلك في حالة ما إذا كان للقب أو الوظيفة دون أن يكون القصد تكريم الشخص، بل الإيضاح ودعم الرأي. وينبغي على الباحث أن يبتعد تماماً عن ذكر العبارات التالية: أستاذنا الكبير- العالم الجليل- العلامة(٢).

وعلامات الترقيم هامة للغاية في كتابة البحث، ويتوقف الفهم عليها أحياناً، وهي دائماً تعين مواقع الفصل والوصل، وتسهل الفهم والإدراك عند سماع الكلمات ملفظاً، أو قراءته مكتوباً. وهذه العلامات هي:

١ - النقطة (.) وتوضع في نهاية الجملة التامة المعنى، وكذلك توضع عند إنتهاء الكلام وانقضائه .

٢ - الفصلة (،) وتوضع بعد لفظ المنادى مثل: يا على، أحضر الكتاب. وتوضع بين الجملتين المرتبطتين في المعنى والإعراب. وكذلك توضع بين الشرط والجزاء وبين القسم والجواب. وتستخدم الفصلة بين المفردات المعطوفة.

٣ - الفصلة المنقوطة (؛) : وتوضع بعد جملة، ما بعدها سبب فيها، مثل: محمد من خيرة الطلاب في فريقه؛ لأنه حسن الصلة بأساتذته

(١) المرجع السابق، ص ٨٩-٩٢ .

(٢) المرجع السابق، ٩٤-٩٧ .

وزملائه. وتوضع أيضا بين الجملتين المرتبطتين في المعنى دون الإعراب.

٤ - الدقطنان (:) وتوضعان بين القول والكلام المقول: مثل: روى، حكى:، قال:، أجب: وتوضعان أيضا بين الشيء وأقسامه وأنواعه، مثل: إثنان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال.

٥ - علامة الانفعال (ا) وتوضع في آخر جملة يعبر بها عن فرح أو حزن أو تعجب أو استغائة أو دعاء أو تأسف.

٦ - الشرطة (-) وتوضع من أول السطر في حال المحاورة بين إثنين إذا استغنى عن تكرار إسميهما. وتوضع الشرطة أيضا بين العدد والمعدود إذا وقعا عنوانا في أول السطر مثل أولا - ... أو ١ - ...

٧ - الشرطتان (-...-) وتوضع الشرطتان ليفصلا جملة أو كلمة معترضة فيتصل ما قبلها بما بعدها.

٨ - الشولتان المزدوجتان () وتستعملان للدلالة على أن ما بينهما هو من كلام الغير.

٩ - القوسان () ويوضع بينهما عبارات التفسير والدعاء القصير، ومثال هذا الدعاء أن نقول: كان عمر (ع) مثال الخليفة المسلم العادل.

١٠ - علامة الحذف وهي نقط أفقية أقلها ثلاثة مثل (...)(١)، وتستعمل تبين بأن كلمات وردت في المصدر قد حذفها الباحث عن عمد.

مسودات البحث:

قبل أن يبدأ الباحث في التاريخ في كتابته، يجب عليه أن يخطط

(١) المرجع السابق، ٩٨، ١٧٣ - ١٨٠.

المقالة أو الفصل ليعرف بدايته ونهايته ثم ما سيقوله بينهما. وحتى عند قيامه بهذا التخطيط، يجب عليه أن يكتب مستعينا بما لديه من مادة وملحوظات دونها، ومن كتب، وجرائد، ومقالات، وغير ذلك من وسائل جمع المعلومات، التي يجب أن تكون تحت يده، وذلك لأن الدقة هي أحد أهدافه الكبرى. وهنا يجدر القول بأن المسودة الأولى، قد يبدو كأنها ملحوظات موضوعية ومصنوفة مقلوبة رأساً على عقب، ولا حياة فيها، على الرغم من أن المؤرخ لن يألو جهداً في وضع مسودته في أعلى قالب من الأسلوب اللغوي^(١).

وبعد أن تنتهي المسودة الأولى، لا بد من أن تعاد قراءتها، حتى يمكن أن تزداد عليها بعض المعلومات، التي تكون قد أفلتت عند تسويدها، والتي تكون ذات صلة مباشرة بالموضوع. ومن هنا لا بد له من إعداد مسودة أخرى جديدة، حتى تصبح مخطوطة الباحث واضحة القراءة وضوحاً كاملاً^(٢).

ولعل هذه المسودة تحمل في طياتها فضيلة واحدة، وهي فضيلة الاكتمال. ولربما تعوزها سلاسة الأسلوب، ولباقة في الانتقال من نقطة إلى أخرى، وتنظيم جيد، ولربما تحتفظ بزيادات، وتتكرر فيها الأفكار، وتكون في جملتها أطول مما ينبغي. فعلى الباحث والحالة هذه أن يباشر في صقل جملة وفقراته، ويصل ما انقطع من أفكار، وينقل فقرات من مواضعها، ويحذف ما زاد من كلمات، ويعدل في عباراته والمجازات اللغوية، ويصلح ترجمته وأن يضع ملحوظاته الهامشية في شكلها النهائي الكامل^(٣).

(١) هوتشاك: كيف نفهم التاريخ، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٨ - ٢١٩.

أما المسودة الثالثة، فلا بد من أن تكون على أحسن حالة يمكن أن يضعها بها الباحث. على أنه قد يجد الكثير من الفقرات غير المنسجمة مع الكتابة وتحتاج إلى تبديل وتغيير، وكذلك ربما بدا له بعض المسائل التي كانت تبدو مرتبطة بسياق الحديث في المسودة الثانية لم تعد كذلك. إن هذه المسائل يجب أن تراجع الآن من جديد، وإن لزم الأمر، فلا بد من كتابة مسودة رابعة للصفحات التي تأثرت بالتعديلات الجديدة على الأقل. وكلما طالت الفقرات بين المراجعات للمسودات، كانت نظرة الباحث أصوب وأدق في كل مسودة عن سابقتها^(١).

الهوامش أو الحواشي Footnotes:

وهي ما يكتب أسفل الصفحة، وتحتاج كتابتها إلى معرفة وخبرة، وتقدر مهارة الباحث بمدى دقته في ترتيب وتنظيم حواشي البحث، وللهمامش فائدة كبرى في الكتابة التاريخية، ولعلها أداة الحكم على أصالة هذه الكتابة وجدواها، ولهذا يعتبر المؤرخ الذي يهملها أو يتخلى عنها تماماً في أي مؤلف يضعه، كأنما تخلى عن أهم وسيلة يستطيع بها غيره أن يفحص ما وصل إليه من نتائج، والملحوظة الهامشية هي التي تهىء للقارئ فرصة الاستدلال على صدق المؤلف، كما تهىء له في نفس الوقت فرصة الحصول على مزيد من المعلومات التي قد تستهويه أو تهمله أهمية مباشرة^(٢).

وتستخدم حواشي البحث في ثلاثة أمور رئيسية هي:

- ١ - الإشارة إلى المراجع الذي استقى منه الباحث معلوماته، اعترافاً بالفضل لهؤلاء الذين انتفع بجهودهم واقتبس منهم.

(١) المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٢) محمد حسين عواد: صناعة التاريخ، ص ١٥٥.

٢ - ذكر إيضاحات تورد أحيانا لتفصيل مسألة وردت في صلب الرسالة أو لتحقيق موضع أو نحو ذلك، ولا يمكن إثبات هذه الإيضاحات في صلب الرسالة لأنها غير أساسية فيها، فلو أوردت لقطعت اتساق الرسالة وتسلسلها.

٣ - إحالة القارئ إلى مكان آخر من البحث أو إلى مراجع أخرى لمناقشة نقطة ما يتعرض لها الباحث.

وهناك ثلاث طرق للترقيم بالهامش:

١ - أهم هذه الطرق وأسهلها وأكثرها شيوعاً هو وضع أرقام مستقلة لكل صفحة من البحث على حدة، وهي تبدأ من رقم (١) وتوضع في أسفل كل صفحة هوامشها، وسهولة هذه الطريقة واضحة، فكل صفحة بأرقامها ومراجعتها وكل ما يتصل بها.

٢ - إعطاء رقم مسلسل متصل لكل فصل على حدة، ويبدأ أيضاً من رقم (١) ويستمر إلى نهاية الفصل، وإحداث تغيير بالحذف أو بالإضافة في الأرقام هنا أيضاً يستلزم تغيير ما بعده حتى نهاية البحث، وتوضع في أسفل كل صفحة هوامشها، أو تجمع الهوامش كلها لتوضع في نهاية الفصل.

٣ - إعطاء رقم مسلسل متصل للرسالة كلها، ويبدأ من رقم (١) كذلك ويستمر إلى نهاية البحث، وإحداث أى تغيير بالحذف أو بالإضافة في الأرقام هنا أيضاً يستلزم تغيير ما بعده حتى نهاية البحث، وتوضع في أسفل كل صفحة هوامشها، أو تجمع الهوامش كلها لتوضع في نهاية البحث (١).

(١) أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة، ص ١٠١-١٠٣.

وإذا أخذ الباحث من مرجع أو مؤلف مطبوع، عليه أن يضع اسم المؤلف أولاً، اسمه الأول والثاني أو الحروف الأولى منهما يليه اللقب (Surname)، ثم يضع اسم الكتاب كاملاً، فاسم الناشر، ومكان طبع المرجع، وترتيب الطبعة إذا كان المرجع قد طبع عدة مرات، ويراعى دائماً أن آخر طبعة هي أفضلها، وهي الأجدد بالرجوع إليها، لأن المؤلف دائماً يصحح نفسه ويضيف إلى مؤلفه في الطبعة الجديدة، ثم تاريخ الطبعة، وإذا لم يجد تاريخاً للطبعة يذكر ذلك بين قوسين دائرين (١).

وفي المراجعة الأجنبية يشار إلى الجزء بـ Vol. اختصار كلمة Vol-ume، وإلى الصفحة بـ P. اختصار كلمة Page، وإذا تعددت الصفحات تذكر.. PP. أما إذا كانت المعلومات التي اعتمد عليها الباحث موزعة في كل صفحات الكتاب بحيث لا يمكن تحديد صفحة معينة، فيضع الرمز Passim وهي كلمة لاتينية معناها في كل مكان، أي هنا وهناك.

وإذا تكرر مرجع في نفس الصفحة بدون فاصل فإنه يذكر في المرة الأولى كاملاً، وفي المرة الثانية يذكر هكذا: نفس المرجع، ص (كذا)، وفي حالة المرجع الأجنبي، يذكر اسم المؤلف متبوعاً بعبارة = Op. Cit. = In the work cited ثم رقم الصفحة. وإذا كان التكرار لمرجع أجنبي دون فاصل يشار إليه هكذا. Ibid., P. وإذا كان الاقتباس الثاني من نفس الجزء والصفحة، ففي حالة المرجع العربي تكون الإشارة: نفس المكان. وفي حالة المرجع الأجنبي تكون الإشارة = Loc. Cit = Loco. Citato = In the palce cited.

وإذا كان الاقتباس من كتاب نشر عدة أبحاث علمية لأكثر من باحث، يذكر في الهامش اسم صاحب البحث، ثم عنوان بحثه، وأخيراً

(١) سيد الناصري: فن كتابة التاريخ، ص ٢٧٣.

إسم الكتاب وناشر الكتاب وعنوانه . وكذلك الحال فى المجلات الشهرية أو الفصلية بشكل عام . وفى اللغة الأوربية يكتب إسم المؤلف، ثم عنوان الدراسة، ثم كلمة فى in ويذكر بعدها إسم الكتاب الذى ضم كل الدراسات وبعدها كلمة edited by أى حرره فلان ويذكر رسم المحرر (١) .

ومن الإختصارات الأجنبية التى توضع فى العاشية:

Ms. (manuscript)	مخطوط
Mss. (manuscripts).	مخطوطاً تؤسس
Vol., Vols. (volme - volumes).	مجلد - مجلدات
	طبعة. (edition). ed.

وفى أحوال كثيرة يضطر الباحث إلى أن يورد فى الهامش نصاً أصلياً مأخوذاً من مخطوط أو مطبوع، ويحسن أن يكون ذلك بلغة النص الأصلية لأن الترجمة قد تغير المعنى، وألا تكتب الترجمة إلا إذا تعذر الحصول على الأصل التاريخى (٢) .

ويلى ذلك أن يضع الباحث خاتمة البحث التى تضم النتائج العلمية التى توصل إليها من البحث دون حاجة إلى الإشارة إلى حواشى أو هامش .

ملاحق البحث :

يجوز تقديم ونشر مختارات من الأصول التاريخية النادرة التى اعتمد عليها الباحث، وفى بعض الأحيان يكون نشر مثل هذه الملاحق أمراً جوهرياً، لأنه يقدم للقارئ جزءاً من المواد الأولية التى استخرج منها

(١) عاصم الدسوقي: البحث فى التاريخ، ص ٨٩ .

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

الباحث معلوماته، خاصة إذا كانت وثائق لم تنشر. ومن الأفضل أن تنشر هذه الأصول بلغاتها وهجائها وأخطائها، كما وردت بغير تعديل، ويكون نشرها مصحوباً بشرح ألفاظها الغريبة وتصحيح أخطائها والتعليق عليها، وبيان قيمتها التاريخية. وأحياناً ينشر الباحث في هذه الملاحق مناقشات خاصة بشأن التثبت من صحة أصل تاريخي، أو تحديد العلاقة بين بعض الأصول وبعض، أو بحث نقطة تفصيلية خاصة بشخصية أو بحادث أو بمكان أو بتاريخ أو برقم ما. وقد تنشر هذه المختارات أو هذه المناقشات أو الصور والرسوم والخرائط التوضيحية، أو جداول الإحصائيات والتعليقات في ملحق متصل بالبحث ذاته، أو تنشر في مجلد خاص تابع له^(١).

وفي نهاية البحث يضع الباحث قائمة بالأصول والمصادر والمراجع التي رجع إليها الباحث وأفاد منها، وينبغي أن تنظم بحسب أسماء المؤلفين، فيذكر اللقب، ثم الاسم الأول والثاني أو الحروف الأولى لهذين الإسمين الأوليين وذلك في المراجع الأجنبية. أما في المراجع العربية فيكتب الإسم عادياً بعد أن تسقط أداة التعريف (أل) و(ابن) و(أبو) في ترتيب الأسماء العربية. ومن الأفضل أن يقدم الباحث دراسة تحليلية ينقد ويبين فيها أهمية الأصول والمراجع الأساسية التي أوردها، كدليل على جهوده، وكعون للباحثين في التاريخ من بعده.

ومهما يكن من أمر، فتلك هي أسس كتابة التاريخ العلمي، وذلك هو المنهج السليم الذي ينبغي أن يتبعه كل من يريد أن يكتب بحثاً في التاريخ تكون له أهميته وقيمه، أما الكتابات التقليدية التي تكفي بسرد الأحداث وحسب، فهذه لا تدخل في نطاق التاريخ، وإنما هي مجرد قصص قد يتسلى بها الإنسان.

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

المصادر والمراجع العربية

إبراهيم طرخان: (دكتور)

تاكيتوس والشعوب الجرمانية (القاهرة ١٩٥٩م).

إتكن (هيوج.):

دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة د. محمود زايد
(بيروت ١٩٦٣).

ابن الأثير: (على بن أحمد بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م)

الكامل في التاريخ، ٩ أجزاء (طبعة بيروت).

أحمد أمين:

ضحى الإسلام. ج ٢ (القاهرة ١٩٧٩).

أحمد حسين الطماوى:

على أدهم بين الأدب والتاريخ (القاهرة ١٩٩٠)

أحمد شلبي: (دكتور)

كيف تكتب بحثاً أورسالة. (القاهرة ١٩٦٨)

أحمد صبحى: (دكتور)

الحضارة الإغريقية (الإسكندرية بدون تاريخ).

- فى فلسفة التاريخ (الإسكندرية - بدون تاريخ).

أرنولد توماس):

الدعوة إلى الإسلام. ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبدالمجيد

عابدين، اسماعيل النحراوى. (القاهرة ١٩٧٠).

إسحق عبّيد: (دكتور)

معرفة الماضي (القاهرة ١٩٨١).

السيد عبدالعزّيز سالم: (دكتور)

التاريخ والمؤرخون العرب (الإسكندرية ١٩٨٧).

السيد محمد بدوي: (دكتور)

مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري لكوندرسيه (القاهرة ١٩٩٥).

بارنز (هارى إلمر):

تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة د. محمد عبدالرحمن برج، مراجعة

د. سعيد عبدالفتاح عاشور. جزءان (القاهرة ١٩٨٢، ١٩٦٧).

توفيق الطويل: (دكتور)

أسس الفلسفة (القاهرة ١٩٦٧).

جوتشلك: (لويس):

كيف نفهم التاريخ. مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي،؛ ترجمة د.

عائدة سليمان عارف، د. مصطفى أبو حاكمة (بيروت ١٩٦٦).

جوزيف نسيم يوسف: (دكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٤).

- تاريخ العصور الوسيطة الأوربية وحضارتها (القاهرة ١٩٨٤).

حامد عمار: (دكتور)

المنهج العلمى فى دراسة المجتمع (القاهرة ١٩٦٤).

حسن عثمان: (دكتور)

منهج البحث التاريخي (القاهرة ١٩٨٠).

حسني محمد ربيع: (دكتور)

محاضرات في علم التاريخ (القاهرة ١٩٩٦).

حسين مؤنس: (دكتور)

التاريخ والمؤرخون (القاهرة ١٩٨٤).

= «التاريخ والمؤرخون»، عالم الفكر أبريل - مايو - يونيو، العدد الأول

الكويت ١٩٧٤.

حسين نصار: (دكتور)

نشأة التدوين التاريخي عند العرب (القاهرة بدون تاريخ).

= نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي (القاهرة ١٩٦٦).

ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

المقدمة، ج ١ تحقيق د. علي عبدالواحد وافي (القاهرة ١٩٦٥).

داهموس (جوزيف):

سبعة مؤرخين في العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر

(القاهرة ١٩٨٩).

. ديفز (ه. و. كاريس):

شارلمان، ترجمة د. السيد الباز العريبي (القاهرة ١٩٥٩).

. رأفت الشيخ: (دكتور)

في فلسفة التاريخ (القاهرة ١٩٩٦).

راوس (أ.ل.):

التاريخ أثره وفائدته . ترجمة مجدى حفى ناصف، مراجعة د.
محمد أحمد أنيس (القاهرة ١٩٦٨).

رسل (برتراند):

الفلسفة بنظرة علمية، ترجمة د. زكى نجيب محمود (القاهرة
١٩٥٦)

روزنثال (فرانز):

علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلى، مراجعة
محمد توفيق حسين (بغداد ١٩٦٣).

السخاوى (محمد بن عبدالرحمن، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧).

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ١٣٤٩هـ).

سعيد عبدالفتاح عاشور: (دكتور)

أوربا العصور الوسطى، ج ١ (القاهرة ١٩٧٥)، ج ٢ (القاهرة
١٩٧٦).

سمالى (بيريل):

المؤرخون فى العصور الوسطى؛ ترجمة د. قاسم عبده قاسم (القاهرة
١٩٨٤)

سمير عبده:

صناعة تزيف التاريخ . (دمشق ١٩٨٩).

سيد أحمد الناصرى: (دكتور)

فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه (القاهرة ١٩٨١).

سيدة إسماعيل كاشف: (دكتورة)

مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه (القاهرة ١٩٧٦).

شاكر مصطفى: (دكتور)

التاريخ هل هو علم؟، أبريل - مايو - يونيو، العدد الأول، الكويت

. ١٩٧٤

صلاح قنصوه: (دكتور)

الموضوعية فى العلوم الإنسانية (بيروت ١٩٨٤).

طه حسين: (دكتور)

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبدالله عنان (بيروت

. ١٩٧٥)

عاصم الدسوقي: (دكتور)

البحث فى التاريخ، قضايا المنهج والإشكالات (القاهرة ١٩٨٦).

عبدالباسط محمد حسن: (دكتور)

أصول البحث الاجتماعى (القاهرة ١٩٩٠).

عبدالحميد زايد: (دكتور)

مصر الخالدة (القاهرة ١٩٦٦).

عبدالرحمن بدوى: (دكتور)

مناهج البحث العلمى (بيروت ١٩٧٧)

= اشبنجلر (بيروت ١٩٨٢).

– النقد التاريخى، يتضمن ترجمة كتاب لانجلوا وسينويس عن

الفرنسية بعنوان «المدخل إلى الدراسات التاريخية»، وكذلك يتضمن ترجمة «نقدالنص» لبول ماس، وترجمة نصوص لكانت وديكارت وبول فاليري في التاريخ (الكويت ١٩٧٧).

عبدالعزیز الدورى: (دكتور)

بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت ١٩٦٠).

عبداللطيف أحمد على: (دكتور)

مصادر التاريخ الرومانى (القاهرة ١٩٦٤).

عبدالمنعم ماجد: (دكتور)

ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى (القاهرة ١٩٧٩).

عطية القوصى: (دكتور)

علم التاريخ (القاهرة ١٩٨٤).

عفت محمد الشرقاوى (دكتور)

أدب التاريخ عند العرب، ج ١ (القاهرة ١٩٧٦).

على إبراهيم حسن: (دكتور)

استخدام المصادر وطرق البحث (القاهرة ١٩٦٣).

على أدهم:

بعض مؤرخى الإسلام (القاهرة بدون تاريخ).

= تاريخ التاريخ (القاهرة ١٩٧٧).

= التاريخ بين الذات والموضوعية، مجلة العربى، العدد ١٧٥،

يونيو ١٩٧٣.

على الغمراوي: (دكتور)

مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط (القاهرة ١٩٧٧).

= موضوعات في الثقافة الأوربية في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٢).

عماد الدين خليل: (دكتور)

التفسير الإسلامي للتاريخ (بيروت ١٩٧٥).

فؤاد زكريا: (دكتور)

التفكير العلمي (القاهرة ١٩٩٦).

فؤاد محمد شبل:

منهاج توينبي التاريخي (القاهرة ١٩٦٨).

= توينبي مبتدع المنهاج التاريخي الحديث (القاهرة ١٩٧٥).

قاسم عبده قاسم: (دكتور)

الرؤية الحضارية للتاريخ (القاهرة ١٩٨٥).

قسطنطين زريق: (دكتور)

نحن والتاريخ (بيروت ١٩٦٩).

القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي، ت ٥٨٢/١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩)

كار (إدوارد):

ما هو التاريخ، ترجمة أحمد حمدي، راجعه على أدهم (القاهرة بدون تاريخ).

كاسيرر (إرنست):

فى المعرفة التاريخية، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، مراجعة
على أدهم (القاهرة بدون تاريخ).

كولتجوود: (ر.ج.):

فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، راجعه محمد عبدالواحد
خلاف، (القاهرة ١٩٦٨).

كوماس (خوان):

خرافات عن الأجناس، ترجمة د. محمد رياض، مراجعة د. محمد
عوض محمد (القاهرة بدون تاريخ).

كوهن (هانز):

عصر القومية، ترجمة عبدالرحمن صدقى، مراجعة مصطفى
حبيب (القاهرة ١٩٦٤).

لطفى عبدالوهاب: (دكتور)

اليونان، مقدمة فى التاريخ الحضارى (بيروت ١٩٧٩).

مارغوليوث (د.س.):

دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة د. حسين نصار (بيروت
بدون تاريخ).

محمد أنيس: (دكتور)

مدرسة التاريخ العثمانى (القاهرة ١٩٦٢).

محمد صقر خفاجة (دكتور)

هيرودوت يتحدث عن مصر (القاهرة ١٩٨٧).

محمد الطالبى:

التاريخ ومشاكل اليوم والغد، عالم الفكر، أبريل - مايو - يونيو،
الكويت ١٩٧٤، العدد الأول.

محمد عبدالغنى حسن:

التاريخ عند المسلمين (القاهرة ١٩٧٧).
- علم التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٦١).

محمد عبدالواحد حجازى:

العقاد فيلسوف التاريخ (القاهرة ١٩٨٨).

محمد عواد حسين: (دكتور)

صناعة التاريخ، عالم الفكر، أبريل - مايو - يونيو، العدد الأول،
الكويت ١٩٧٤.

محمد فؤاد شكرى، محمد أنيس: (دكتور)

أوريا فى العصور الحديثة، ج ١ (القاهرة ١٩٦٦).

محمود قاسم: (دكتور)

المنطق الحديث ومناهج البحث (القاهرة ١٩٤٩).

محمود محمد الحويرى: (دكتور)

الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، فى القرنين الثانى عشر والثالث
عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩).

- اللومبارديون فى التاريخ والحضارة (القاهرة ١٩٨٦).

- رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٥).

- مصر فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٩٦).

- المقريزي (تفى الدين أحمد بن على، ت ٨٥٤هـ/١٤٤١م)
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ)
- نظير حسان سداوى: (دكتور)
- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين. (القاهرة ١٩٦٢).
- نور الدين حاطوم، نبيه عاقل، أحمد طرمين، صلاح مدنى: (دكاترة)
- المدخل إلى التاريخ (دمشق ١٩٦٥).
- نورى جعفر: (دكتور)
- التاريخ مجاله وفلسفته. (بغداد ١٩٥٥).
- نيفين علم الدين (دكتورة)
- فلسفة التاريخ عند توينى (القاهرة ١٩٩١).
- هرنشو. (ف.ج.س):
- علم التاريخ، ترجمة عبدالحميد العبادى (القاهرة ١٩٤٤).
- هويزنجا (يوهان):
- أعلام وأفكار: نظرات فى التاريخ الثقافى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مراجعة د. زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٧٢).
- هيجل (جورج لودفيج):
- محاضرات فى فلسفة التاريخ، ج١ ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة د. فؤاد زكريا (القاهرة ١٩٨٦).
- ولدرديج (س.و)، جوردين إيست:
- الجغرافيا مغزاها ومرماها، ترجمة د. يوسف أبو الججاج، مراجعة د. محمد محمود الصياد (القاهرة ١٩٥٨م).

وولش (و. هـ):

مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، مراجعة
محمد بكير خليل (القاهرة ١٩٦٢).

ويدجري (آلبان. ج):

التاريخ وكيف يفسرونه، من كنفوشيوس إلى تونيبى، ترجمة
عبدالعزیز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٩٦).

يحيى هويدى (دكتور)

مقدمة فى الفلسفة العامة (القاهرة ١٩٧٩).

Writtan (John):

Karl Marx, in the Historian at work, ed. by John Canon
(London, 1980).

Winlker (Henry R.):

George Macaulay Trevelyan, in some the 20th century his-
torians, ed. by william halperin, (U.S.A., 1961).

Young (Louise Merwin):

Thomas Carlyle and Art of History (New York, 1971).

Taylor (H.O.):

The Mediaeval Mind. Vol. I. London, 1936).

Taylor (Joan):

A lexis de Tacqueville, in the Historian at work , ed. by
John Canon (New York, 1975).

Tholfsen (Trygve R.):

Historical Thinkings. An Introduction. (New York, 1967).

Thompson (James Westfall):

A History of Historical Writing . (New York, 1942).

Tillinight (Pardon E.):

The Specious Past: The Historians and Others. (London, 1972).

Trevelyan (G.M.):

History and the reader. London, 1945).

Ramm (Agatha):

Leopold von Ranke, in the Historian at Work, ed. by John Canon. (New York, 1975).

Renier (G.J.):

History and Method. (London, 1950).

Rowse (A.L.):

History. (New York, 1948).

Salvemini (Gaetano):

Historian and scientist. (U.S.A., 1939).

Scheville (Ferdinand):

Six Historians. (U.S.A., 1956).

Shyder (Phil. L.):

**Dteachment and the writing of history Essays and letters
of care L. Becker (New York, 1958).**

Smellie (K.B.):

**Why we read History, ed. by H.M. Burton (London,
1947).**

Stern (Fritz):

**The Varieties of History from Voltaire to the Present
(New York, 1964).**

Joinville & Villehardouin:

Chronicles of the Crusades. (U.S.A., 1977).

Krey (A.C.):

**William of tyre, the Making of an historian in the middle
ages, in speculum. A Journal of Mediaevel srudies. Vol.
XVI, April, 1941.**

Nordau.

**The Interpretaton of History, tr. from the german by M.A
Hamilton (London, MCHX).**

Oman (Sir Charles):

On the WQriting of History (London, 1969).

Paul the Deacon:

History of the Lombards, tr. by William Dudley Foulk, ed. by Edward Peters. (U.S.A., 1974).

Einhard:

The Life of Charlemagne, with a forward by Sidney Painter (U.S.A., 1959).

Gay (Peter):

Style in History. (New York, 1974).

=Historian at Work (New York, 1975).

Gesta Francorum et Alifanorum Hierosolimitanorum, ed. by Rosalind Russell. (London, 1962).

Gregory of Tours:

The History of the Franks, tr. by Lewis Thorpe. (London, 1974).

Halperin (S. William), Hadsel (Fred L.):

George Peabody Gooch, In Some 20th Century Historians. (U.S.A., 1961).

Heilbroner (Robert L.):

Future as History. (New York, 1960).

Hay (Denys):

Annalists and Historians. (London, 1977).

المصادر والمراجع الاوربية

Ausubel (Herman):

Historians and their Craft. New York, 1965).

Barnes:

A History of Historical Writing.

Bede:

A History of the English Church and People, translated by
leo Sherley - Price (London, 1968).

Boyd (C. Shafer) & Others:

Historical Study in the West (U.S.A., 1969, 1986)

Buddha Prakash:

The Modern Approach to History. (Delhi, 1963).

Butterfield (Herbert):

Man on his Past (U.S.A., 1966)

Cate (Janes L.):

Henry Pirenne, in Some 20th Century Historians. ed. by S.
William Halperin. (U.S.A., 1961).

Childe (V.G ordan):

History. (London, 1977).

Davis (R.H.):

William of Tyre, in Relations between East and West in
the Middle Ages by Derek Baker (London, 1973).

محتويات

صفحة	
٢	مقدمة
	الفصل الأول: علم التاريخ
٦	أصل كلمة التاريخ.....
١٢	هل التاريخ علم؟.....
١٧	فائدة التاريخ.....
٢٨	الصفات الواجب توفرها في المؤرخ.....
	الفصل الثاني: كتابة التاريخ في العصور القديمة
٣٥	كتابة التاريخ في الشرق القديم.....
٣٩	كتابة التاريخ عند اليهود.....
٤١	كتابة التاريخ عند الصينيين.....
٤٢	كتابة التاريخ عند اليابانيين.....
٤٤	كتابة التاريخ عند الهنود.....
٤٦	كتابة التاريخ عند اليونان.....
٥٢	كتابة التاريخ عند الرومان.....
	الفصل الثالث: كتابة التاريخ في العصور الوسطى
	الأوربية
٥٩	كتابة التاريخ بعد ظهور المسيحية.....
٦٥	كتابة التاريخ في العصور الوسطى الأوربية الباكرة.....
	تدوين التاريخ في العصور الوسطى الأوربية فيما بين سنتي
٧٥	٩٥٠ و ١١٥٠م.....
	تأثير الحروب الصليبية في التدوين التاريخي في العصر
٧٨	الوسيط الأوربي.....

الفصل الرابع : كتابة التاريخ فى عصر النهضة وما بعده

- ٨٩ كتابة التاريخ فى عصر النهضة
٩٦ حركة الاستنارة أو التنوير فى القرن الثامن عشر

الفصل الخامس : كتابة التاريخ عند المسلمين

- ١٠٦ المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام
١١٠ التدوين التاريخى عند المسلمين
١٢١ ابن خلدون وكتابة التاريخ

الفصل السادس : تفسير التاريخ

- ١٢٨ التفسير الجغرافى للتاريخ
١٣٢ تقاضى الأجناس
١٣٦ التفسير الدينى للتاريخ
١٤٣ التفسير المادى للتاريخ
١٤٥ نظرية التعاقب الدورى للحضارات
١٥٠ المدرسة الهيجلية
١٥٤ نظرية البطل والبطولة
١٥٨ التفسير القومى للتاريخ
١٦١ التفسير الحضارى للتاريخ

الفصل السابع : العلوم المساعدة للتاريخ

- ١٧٥ علم الانسان (الانثروبولوجيا)
١٧٧ علم الاجتماع
١٧٧ علم السكان
١٧٨ علم النفس
١٨٠ العلوم السياسية
١٨٠ الجغرافيا

١٨٣	علم الاقتصاد.....
١٨٦	اللغات.....
١٨٩	فقه اللغة (الفيلولوجيا).....
١٨٩	قراءة الخطوط (الباليوجرافيا).....
١٩٠	الأختام.....
١٩١	علم الرنوك.....
١٩٢	علم النميات.....
١٩٣	الآثار.....
١٩٤	الوثائق.....
١٩٥	الأدب.....
	الفصل الثامن: كتابة التاريخ بين الموضوعية والذاتية
١٩٩	الموضوعية في كتابة التاريخ.....
٢١٥	الذاتية في كتابة التاريخ.....
٢٢٣	الذاتية المتطرفة في كتابة التاريخ.....
٢٢٨	التوافق بين الموضوعية والذاتية في كتابة التاريخ.....
٢٣٤	الفصل التاسع: إعادة كتابة التاريخ
	الفصل العاشر: كتابة البحث التاريخي
٢٤٥	(أولا) اختيار موضوع البحث.....
٢٥١	(ثانيا) وضع خطة البحث.....
٢٥٣	(ثالث) جمع المادة العلمية.....
٢٥٦	طريقة البطاقات.....
٢٥٦	طريقة الدوسيه المقسم.....
٢٥٧	(رابعا) نقد المادة العلمية.....
٢٦٠	١ - النقد الخارجي.....

٢٦٥	٢ - النقد الباطنى أو النقد الداخلى.....
٢٧٢	(خامسا) كتابة البحث.....
٢٧٩	الهوامش أو الحواشى.....
٢٨٢	ملاحق البحث.....
٢٨٥	قائمة المصادر والمراجع.....

 Bibliotheca Alexandrina



0353073